تاريخ شمال افريقية الحديث

تاريخ الجزائر الحديث

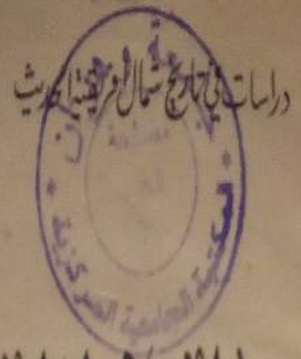
من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي

[illegible] م - 1830 م

تأليف

الدكتور محمد خير فارس

دراسات في تاريخ شمال افريقيا الحديث



تاريخ الجزائر الحديث

من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي

تأليف
الدكتور محمد خير فارس

مدرس تاريخ شمال افريقية الحديث
كلية الآداب ـ جامعة دمشق



الطبعة الاولى
١٩٦٩

مقدمة

ما تزال الكتابة في تاريخ شمالي افريقية الحديث خلال الفترة الممتدة بين بداية التدخل الأجنبي - العثماني والاسباني والبرتغالي - والاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨١ والمغرب سنة ١٩١١ قليلة ، ولاسيما ما يتعلق منها بتاريخ الجزائر • وباستثناء كتاب دوجرامون «تاريخ الجزائر تحت السيطرة التركية ١٥١٦ - ١٨٣٠» باللغة الفرنسية ، الذي حاول فيه ان يعرض تاريخ الجزائر في هذه الفترة بصورة مفصلة ، لانكاد نجد كتابا آخر يماثله اسهاباً سواء في اللغات الأجنبية أو العربية • وقد اصبح هذا الكتاب ، رغم أهميته ، قديماً ، فضلاً عن كونه ينطوي على نقص في الاطلاع على المصادر المحلية وعلى الأرشيف التركي •

وخلال الفترة التي تلت صدور كتاب دوجرامون ١٨٨٧ نشرت المجلات الاوربية ابحاثاً كثيرة ، وصدرت كتب عدة ، تعرضت لجوانب متفرقة من تاريخ هذه الفترة أو لخطوطها العامة وذلك من خلال تاريخ الجزائر العام وأخص بالذكر كتاب شارل اندره جوليان « تاريخ شمالي افريقية » باللغة الفرنسية • ومما يلفت النظر اتجاه الباحثين اليوم الى نبش الأرشيف التركي والافادة من المعلومات الغزيرة والهامة التي يحويها ، ولكن هذا العمل مازال في بدايته •

وتأتي صعوبة الكتابة في هذه الفترة من تاريخ الجزائر من نواح عديدة منها :

١ - ندرة المصادر المحلية ، فلا نجد كتاباً محلياً يعالج أحداث هذه الفترة بمثل أهمية الكتب المحلية التي تعالج تاريخ تونس أو المغرب في الفترة نفسها ككتاب « المؤنس » لابن ابي دينار ،

وكتاب «اتحاف الزمان ...» لابن ابي الضياف، أو «الترجمانة الكبرى» للزياني، و «الاستقصا» للناصري .. وغيرها من الكتب والمخطوطات التي تسهل عملية البحث في تاريخ تونس والمغرب .

٢ ـ عدم استقرار الحكم التركي في الجزائر، على عكس ما كان في تونس والمغرب من قيام اسر تعاقبت على الحكم في هذين القطرين قبل هذه الفترة وخلالها، مما هيأ لهذين القطرين خبرات ادارية محلية أفادت منها الأسر الحاكمة فيهما، فضلاً عن أن النشاط الثقافي فيهما كان أفضل واكثر عراقة مما كان عليه في الجزائر .

٣ ـ صعوبة الافادة من الوثائق التركية في الجزائر أو في تركية، ومن الوثائق والتقارير التي لا حصر لها والمبعثرة خاصة في دول المتوسط الغربي ومدنه الأوربية التي كان لها علاقات متنوعة وكثيرة مع الجزائر .

وتزداد الصعوبات بصورة كبيرة في وجه الباحث العربي في المشرق العربي لان الجامعات العربية، وهي مراكز البحث الأساسية في هذه البلاد، لاتولى تاريخ شمالي افريقية عامة وتاريخها الحديث خاصة الاهتمام الذي يستحقه، مما أضعف الدوافع والامكانات للبحث في هذا التاريخ . ولابد من الاشارة هنا إلى جهود واهتمام معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة في تخصيص ساعات كثيرة، وتكليف عدد من حملة الدبلوم بكتابة رسائل جامعية لنيل «الماجستير» في تاريخ شمالي افريقية الحديث . كما لا بد من الاشارة إلى الخطوة الجديرة بالتقدير التي قام بها قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة دمشق بتوجيه من رئيسه الاستاذ الدكتور نور الدين حاطوم بتخصيص ساعتين لدراسة تاريخ شمالي افريقية الحديث . ولاشك أن هذا، بالاضافة الى اسهام الجامعات في شمالي افريقية وتزايد عدد الباحثين فيها سيسهم اسهاماً كبيراً في تقدم الدراسات في هذا الباب .

وهذا الكتاب هو حلقة من سلسلة دراسات في تاريخ شمالي افريقية الحديث والمعاصر . وقد بدأتها بتاريخ الجزائر الحديث، لان

الجزائر كانت اول قطر عربي دخلة العثمانيون واتخذوا منه قاعدة لمد سيطرتهم على باقي اقطار شمالي افريقية، باستثناء المغرب . ولانه كان اول قطر خضع للاحتلال الفرنسي واتخذه الفرنسيون قاعدة لمد سيطرتهم على باقي اقطار الشمال الافريقي، باستثناء ليبية . وقد اكتفيت بدراسة الملامح العامة لتاريخ الجزائر بسبب نقص المصادر المحلية، وعدم امكان الاطلاع على الأرشيف التركي، وبسبب طبيعة الحكم التركي في الجزائر . ولم أتوقف عند احتلال الفرنسيين لمدينة الجزائر سنة ١٨٣٠ بل تابعت الدراسة حتى استسلام الأمير عبد القادر الجزائري سنة ١٨٤٧ الذي كان يعني زوال آخر العقبات الجدية أمام الفرنسيين وامتداد سيطرتهم على معظم المناطق الحساسة والعامرة في الجزائر .

ومن الحق علي أن أشير إلى المساعدات القيمة التي قدمها لي المعهد الفرنسي للدراسات العربية التابع لجامعة باريس بشخص مديره الفاضل الاستاذ الدكتور اندره ريمون ـ وهو واحد من خيرة العلماء الموضوعيين الذين يعنون بتاريخ شمالي افريقية ومصر .

وارجو أن يسهم هذا الكتاب الذي اضعه بين يدي القارىء العربي، مع ما كتبه الاساتذة والزملاء في جامعات الجمهورية العربية المتحدة، واخص بالذكر ما كتبه الدكتور صلاح العقاد في تعريف القارىء العربي بالخطوط العامة لتاريخ شمالي افريقية الحديث . والله ولي التوفيق .

دمشق في ١٩٦٩/١٢/١

الدكتور محمد خير فارس

مقدمة عامة

المغرب الأوسط قبيل التدخل العثماني

تمهيد تاريخي :

حقق الفتح العربي لشمال افريقية (في القرن السابع الميلادي) الوحدة السياسية لهذه المنطقة لأول مرة في تاريخها • وجعل مركزه (إفريقية) أو المغرب الأدنى (تونس) • الا ان الفوضى التي عصفت في هذه المنطقة منذ أواخر العهد الأموي عرضت هذه الوحدة للتمزق ، اذ لقيت الدعوات المناوئة للأمويين ، ومن بعدهم العباسيين ، كالخوارج والشيعة ترحيبا ، ولا سيما في المغربين الأوسط والأقصى ، وسمح العباسيون لمجابهة هذا الموقف الخطر بقيام دولة حاجزة (الأغالبة) تتمتع باستقلال ذاتي •

وبين القرن التاسع والقرن الثاني عشر حين تحققت وحدة شمال افريقية من جديد على يد الموحدين ، تعاقب في المغربين الأدنى والأقصى حكومات عديدة في حين كان المغرب الأوسط في أغلب الأحيان مسرح صراع على النفوذ بين القوى السياسية الحاكمة في القطرين المجاورين ، وكان المغرب الأوسط يبدو ، بالقياس الى جيرانه ، منطقة يغلب عليها الطابع الريفي والبدوي ، ولا يحتوي الا على قليل من المراكز الحضرية • الطابع الريفي

وعندما ظهر ضعف الموحدين منذ أوائل القرن الثالث عشر ، ولاسيما اثر هزيمتهم القاسية في معركة العقاب (لاس نافاس دوتولوسا) سنة ١٢١٢، بدأ المغربان الأدنى والأوسط يميلان نحو الاستقلال عن الموحدين لتنتهي

بذلك الوحدة الثانية • وعندما انهارت دولة الموحدين في منتصف القرن الثالث عشر قام على انقاضها ثلاث دول : الدولة الحفصية في المغرب الأدنى، وبنو عبد الواد في تلمسان في المغرب الأوسط، وبنو مرين في المغرب الأقصى•
وكانت دولة بني عبد الواد أضعف الدول الثلاث اذ لم تكن تملك الأساس التاريخي أو الاقتصادي الذي كان لمملكة تونس • وليس لها قوة بني مرين العددية • وعلى اي حال فان أياً من هذه الدول لم تكن على مستوى الموحدين • يقول جوليان « ••• عرفت هـذه الدول حظوظاً مختلفة ، ومرت بساعات من المجد والازدهار النسبي • ولكن لا يمكن اعتبارها ، على أي حال ، الا دولا من الدرجة الثانية ، لم يظهر فيها أحد له حيوية وقوة شخصية الموحدين • كانت كل دولة منها تحاول أن تعيد لحسابها امبراطورية الموحدين ، وقد نجح بعضهم ولكن لبضعة أشهر • ان تاريخ المغرب حتى نهاية هذه الممالك ، أي حتى منتصف القرن السادس عشر ، انما هو جهد باطل لاحياء الماضي •• »[1] •

وكان شمال افريقية قد تعرض منذ القرن الحادي عشر لغزو بني هلال وسليم الذين تركز نشاطهم في المغربين الأدنى والأوسـط ، وتعـاونوا في اواخر القرن الثاني عشر مع بني غانية المرابطين اسياد جزر البالیار ضـد الموحدين الذين كانوا يسيطرون على شمال افريقية كله•وقد نشر المتحالفون الدمار في المنطقة • واذا كان المغرب الأدنى ، بفضل التقاليـد الحضرية والادارية العريقة ، قد نجح في التخفيف من اثار هذه الصدمة والاحتفاظ بوجود سلطة ، فان فقدان المغرب الأوسط لسلطة مركزية قد جرده من وسيلة دفاع قوية وتركه مسرحا لفوضى القبائل الغازية والمحلية تعبث فيه فسادا وتنشر فيه الخراب ، فخربت المدن واتلف الـزرع واصبح المغـرب الأوسط بصورة عامة منطقة تجوال ، وظل حتى الاحتلال التركي يعاني من

(1) Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord. Tome 2 P. 132.

فقدان سلطة مركزية قوية ، ومن تصـارع القوى المحيطة به في أرضه ، ومن انتشار القبائل العربية فيه •

دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية :

وهي دولة بربرية قامت في غرب المغرب الأوسط في أواخر النصف الأول من القرن الثاني عشر وعاصمتها تلمسان •

وبنو عبد الواد أو عابد الوادي – وهي صفة لجدهم المتبتل – هم على قول ابن خلدون من زناتة ، القبيلة البربرية الكبيرة التي كانت منتشرة في مختلف انحاء شمال افريقية ولكن معظمها في المغرب الأوسط ، حتى انـه – كما يقول ابن خلدون – ينسب اليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة[1] •

بدأ استقرار بني عبد الواد في منطقة تلمسان وظهر أمرهم في عهـد الموحدين • وقد ربطوا مصيرهم بمصير الموحدين واخلصوا لهم ولا سيما في عصر الاضطرابات المدمرة ، إثر الغارات التي شنها ابن غانيـة[2] عـلى المغربين الأدنى والأوسط في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر • وفي الوقت الذي تدمرت المـدن المجاورة لتلمسان[3] فقـد نجحت تلمسان في الدفاع عن نفسها وافـادت من خراب جيرانهـا • فأصبحت « ••• قاعدة المغرب الأوسط وأم هؤلاء الأحياء من زناتة المغرب ••• »[4] •

نال بنو عبد الواد نتيجة ذلك حظوة الموحدين وحصلوا على امتيازات

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ••• ج ٧ ص ٤

(٢) علي ابن غانية وهو حاكم جزر البالیار وكان كأسلافه موالياً للمرابطين ، بدأ هجومه على المغرب الاوسط سنة ١١٨٤ واحتل بجاية ثم الجزائر والمدية ومليانة وتلمسان ووهران ، وتعاون في ذلك مع عرب بني هلال • ولكن الموحدين هزموه وتوفي سنة ١١٨٨ • وفي سنة ١٢٠٠ عاود أخوه يحيى الهجوم على المغرب الأوسط بالتعاون مع عرب بني هلال وسليم ودمر كثيراً من المدن من بينها تاهرت سنة ١٢٠٩ واستمر يحيى بن غانية وانصاره يشيعون الدمار في المغرب الأوسط حتى سنة ١٢٣٣ •

(٣) ولا سيما مدينتي تاهرت وارشكول •

(٤) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦١ •

ارضية وسياسية ، ولم يتأثروا بضعف الموحدين لأنهم كانوا قد وطدوا أقدامهم في منطقة تلمسان ، وتهيأ لهم زعيم قوي عرف كيف يجنب قبيلته اخطار الفوضى الناجمة عن ضعف هؤلاء ، ويرسي أسس دولة استطاعت أن تعيش ـ بالرغم من الظروف الصعبة ـ ثلاثة قرون ونيف ١٢٣٥ ـ ١٥٥٤ .

بدأت مملكة عبد الواد بحكم يغمراسن الطويل ١٢٣٥ ـ ١٢٨٣ في ظروف خاصة تركت على هذه الدولة بصماتها . كانت دولة الموحدين قد تفككت ، فقد استقل بنو هود في الأندلس وخطبوا للعباسيين ، واستقل الحفصيون في المغرب الأدنى وجانب من المغرب الأوسط . واعلن يغمراسن استقلاله في تلمسان ، وبدأ بنو مرين ينازعون الموحدين على ملك المغرب الأقصى . وكانت العلاقات بين هذه القوى آنذاك معقدة ومتقلبة . كان مركز يغمراسن حرجا : فالتنافس التقليدي بينه وبين أبناء عمومته المرينيين كان يدفعه الى الوقوف ضدهم الى جانب الموحدين ، ولم يكن هذا في صالحه . فقوة الموحدين تنهار ونجم المرينيين في صعود . وكان يغمراسن يطمح الى امتلاك المغرب الأوسط فيصطدم بمطامح الحفصيين الأقوياء .

وقد تبدو الظروف التي رافقت قيام مملكة بني عبد الواد في الظاهر ملائمة : فالمرينيون والموحدون منهمكون في الصراع على المغرب الأقصى ، وقاعدة الحفصيين بعيدة ، وعلى رأس بني عبد الواد زعيم قوي ما هر وصفه ابن خلدون أنه كان « ... من أشد هذا الحي بأسا واعظمهم في النفوس مهابة وجلالة واعرفهم بمصالح قبيله واقواهم كاهلا على حمل الملك واضطلاعا بالتدبير والرياسة مهدت له بذلك آثار قبل الملك وبعده ... »[1] ولكن الظروف الداخلية في مملكة بني عبد الواد خاصة والمغرب الأوسط عامة لم تكن تسمح بقيام دولة قوية . ففوضى القبائل العربية ، ومنافسة بعض بطون زناتة كبني توجين وآل منديل امراء مغراوة من جهة ، والظروف

(1) ابن خلدون : ج ٧ ص ١٦٢ .

الجغرافية من جهة اخرى ، مسؤولة عن هذا الفشل . فمنطقة وهران والمغرب الغربي هي مناطق ملائمة للحياة الرعوية ، ومساحة الأراضي الزراعية محدودة وهي معرضة باستمرار للغارات ، الامر الذي حرم مملكة بني عبد الواد من أساس فلاحي قوي كما لغيرها ، وكان هذا هو السبب الأهم ـ في نظر جوليان ـ في عدم استقرارها وعدم نجاحها . فهي نتيجة لهذا مؤلفة من مجموعات بشرية متفرقة ، وفي الغالب متنافسة على المراعي ، واقتصادها متشابه وغير متنوع لا يسمح لها بالوصول الى التوازن . أضف الى ذلك أن يغمراسن ـ ربما لطموحه أو لموقف خصومه من آل توجين وآل منديل ، ومطامع جيرانه الأقوياء ـ لم يستطع أن يجنب نفسه الدخول في نزاع مبكر مع جيرانه . وظلت مملكة بني عبد الواد طيلة تاريخها محصورة بين فكي كماشة ومهددة على الدوام من جيرانها ، تخضع احيانا للاحتلال أو الحماية وأحيانا تتمتع باستقلال يشوبه الاضطراب الداخلي والتهديد الخارجي .

وتاريخ مؤسس هذه المملكة يغمراسن يبرز المشاكل الأساسية التي ظلت توجه تاريخها . فالصراع مع الحفصيين تارة والمرينيين تارة أخرى ، أو مع القوتين معا أحيانا ، والصراع مع البطون الزناتية الأخرى المنافسة ومع القبائل العربية المتحالفة مع خصومه ، كل هذا يحدد الخطوط العامة لتاريخ بني عبد الواد .

كان الحفصيون يطمحون في وراثة ملك الموحدين[1] وكان يغمراسن بالرغم من استقلاله مايزال مواليا للموحدين ، الذين كانوا يبالغون في اكرامه ليكسبوا عونه ضد بني مرين . وكان هذا يضايق الحفصيين الذين رحبوا باستمالة خصوم يغمراسن من آل توجين ومنديل فهاجموا تلمسان واضطر يغمراسن الى الهرب الى الصحراء . ولما لم يكن باستطاعة الموحدين تقديم العون له فقد قرر التفاهم مع الحفصيين واتصل بهم بواسطة أمه (سوط النساء) وابدى استعداده للتعاون معهم وقبول سيادتهم اذا ما قبلوا عودته الى

(1) ابن خلدون : ج ٧ ص ١٦٤ .

قاعدة ملكه . وقبل الحفصيون عرض يغمراسن ولكنهم – ليقيدوا طموحه ويأمنوا خروجه عليهم – اقاموا بالقرب من تلمسان منافسيه من آل توجين ومنديل « ... وعهدوا اليهم واذنوا لهم في اتخاذ الآلة والمراسيم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم ... »(1) ودخل المغرب الأوسط بذلك كله في طاعة الحفصيين .

أثار خضوع يغمراسن للحفصيين ثائرة الموحدين فهاجموا تلمسان بقيادة الخليفة السعيد ولكنهم هزموا وقتل الخليفة . وعاد يغمراسن أمام تزايد قوة المرينيين الى التعاون مع آخر الخلفاء الموحدين ضدهم ولكن سقوط الموحدين سنة ١٢٤٨ تركه وجها لوجه امام المرينيين . فاضطر بعد سلسلة هزائم امام المرينيين – الذين وصلوا حتى أبواب تلمسان – الى التهادن معهم، دون أن يزايله الشعور بالخوف منهم . وحاول يغمراسن أن يستغل تدخل المرينيين في الأندلس ، فسعى الى عقد تحالف مع بني الأحمر ملوك غرناطة الذين بعد أن استنجدوا بالمرينيين بدءوا يتآمرون ضدهم ، واشترك ملك قشتاله المسيحي في هذا التحالف ، وعبثا حاول المرينيون مع يغمراسن لاقناعه بالتخلي عن هذا التحالف . فعاد النزاع من جديد ولم يكن في صالح يغمراسن الذي اقتنع في آخر ايامه بوجوب تغيير سياسته فأوصى ابنه وولي عهده عثمان قبل موته بالاقلاع عن سياسة المجابهة مع المرينيين وان يتخذ منهم موقفا دفاعيا ، وان يصرف جهده الى التوسع نحو الشرق على حساب الحفصيين « ... يابني ان بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فاياك واعتماد لقائهم وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا اليك وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك وتكافىء حشد العدو بحشدك ولعلك تصير بعض الثغور الشرقية معقلا لذخيرتك »(2) .

(1) ابن خلدون : ج ٧ ص ١٦٧ .

(2) ابن خلدون : ج ٧ ص ١٩٠ .

سعى أبو سعيد عثمان ١٢٨٣ – ١٣٠٤ الى تطبيق نصيحة والده فتهادن في بادىء الأمر مع المرينيين وانصرف الى اخضاع منافسيه من آل توجين وآل منديل ، ومحاولة الاستيلاء على المتيجة وبجاية . ولكن المرينيين بعد أن عقدوا الصلح مع ملك قشتالة ومع بني الأحمر نقضوا الهدنة واستؤنف الصراع . وبعد ثلاث هجمات مرينية على تلمسان قرر المرينيون أخيرا سنة ١٢٩٩ الانتهاء من أمرها ، فأحاطوها بسياج من الأسوار وأقاموا الى جانبها مدينة سموها المنصورة ابتنوا فيها « ... الدور الواسعة والمنازل الرحيبة والقصور الأنيقة واتخذوا البساتين واجروا المياه.. فكانت من أعظم الأمصار والمدن واحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق اسواق واحتفال بناء وتشييد منعة .. ووصل اليها التجار بالبضائع من الآفاق ... »(1) واستمر الحصار ثمانية أعوام وثلاثة أشهر « ... نالهم – أي أهل تلمسان – فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم واضطروا الى أكل الجيف والقطط والفئران حتى لزعموا انهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الأناس .. »(2) ولم يضع موت أبو سعيد عثمان المفاجىء حدا للمقاومة . ولما لم يعد لأهل تلمسان طاقة قرروا الخروج عن مدينتهم مستميتين ، عندما وصلهم نبأ اغتيال السلطان المريني يوسف بن يعقوب على يد أحد عبيده ، وقيام خلاف على العرش المريني ، مما ادى الى رفع الحصار ، ونجت تلمسان .

وكان على السلطان ابي زيان ١٣٠٤ – ١٣٠٨ وابي حمو موسى ١٣٠٨ – ١٣١٨ وابي تاشفين ١٣١٨ – ١٣٣٧ أن يعملوا على اعادة توطيد مركزهم الداخلي بعد أن تزعزع ابان الغزو المريني ، وان يُعدوا أسباب الدفاع عن تلمسان ضد هجوم مريني محتمل . وشرعوا في الوقت نفسه في تنفيذ وصية يغمراسن في محاولة التوسع على حساب الحفصيين وتركزت هجماتهم ضد المتيجة وقسنطينة وبجاية ، مستغلين فترة ضعف نسبية كانت

(1) المصدر السابق : ج ٧ ص ٤٥٨ .

(2) المصدر السابق ج ٧ ص ١٩٨ .

تمر بها الدولة الحفصية ، وتشجيع القبائل العربية الثائرة على الحفصيين ،
لجأ الحفصيون الى التعاون مع المرينيين ، وتحرج مركز ابو تاشفين واضطر
الى العودة الى سياسة الدفاع ولا سيما بعد أن تخلت عنه القبائل العربية التي
كان يعتمد عليها ، ونجح المرينيون سنة ١٣٣٧ في احتلال تلمسان بعد
حصار دام عامين فخضعت لهم عشر سنوات حتى تحررت سنة ١٣٤٨ بعد
فشل المرينيين في المغرب الأدنى ، ثم عادوا لاحتلالها سنة ١٣٥٢ ولم تتحرر
حتى سنة ١٣٥٩ ،

أعاد أبو حمو الثاني تأسيس الدولة بعد تحرير تلمسان واطلق عليها
اسم الدولة الزيانية ، وظلت هذه الدولة أكثر من نصف قرن تتحمل ثقل
الضغط المريني الذي أخذ ينحو منحى جديدا ، فقد عمد المرينيون الى
الايقاع بين أفراد الاسرة الزيانية واصطناع البعض منهم وتقديم المساعدة
لهم ضد منافسيهم من خصومهم ، وتدخل المرينيون أكثر من مرة في تلمسان
ولكنهم لم يهتموا باحتلالها قدر اهتمامهم بتنصيب من يوالهم من الأمراء
الزيانيين ، ولم تتخلص تلمسان من التهديد المريني حتى اوائل القرن
الخامس عشر ، اذ نجح السلطان ابو مالك عبد الواحد ١٤١١ - ١٤٤٠ في
مطاردة المرينيين حتى فاس ، ولكن توسع عبد الواحد في الجزائر الشرقية
الحفصية فتح باب الصراع مع الحفصيين الذين قوي أمرهم ، هاجم
السلطان الحفصي ابو فارس ١٣٩٤ - ١٤٣٤ تلمسان ودخلها عام ١٤٢٤
ونصب عليها اميرا زيانيا مواليا للحفصيين (الأمير محمد المعروف بابن الحمرة)
الذي ما لبث بعد ان وطد أمره في تلمسان ان رفض السيادة الحفصية ، اتبع
الحفصيون الاسلوب المريني في اثارة الدسائس والمنافسات بين الأمراء
الزيانيين ، ونتج عن ذلك الكثير من الفتن والفوضى ، وكثر تعاقب الحكام
وكان حكم اكثرهم قصيرا أو مضطربا * واستمر الأمر على هذا النحو حتى
ظهور الاسبان والأتراك في المغرب الأوسط ، فدخلت المملكة الزيانية في دوامة
الصراع الاسباني التركي حتى قضى عليها الأتراك عام ١٥٥٤ ،

الفصل الأول

التدخل الأجنبي في شمال أفريقية

التدخل الاسباني

اختلف التدخل الاسباني في شمال افريقية تبعاً لتطور الأوضاع العامة
في اسبانية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ،
ولتطور الأوضاع العامة في شمال افريقية في الفترة نفسها ،

ساعدت الحرب مع المسلمين على ظهور الروح القومية في اسبانية ،
وقد ارتدت هذه الحرب طابع الحرب الصليبية ، مما وسم الروح القومية
الاسبانية والسياسة الخارجية الاسبانية ازاء شمال افريقية بطابع التعصب
الديني * كان تدخل الاسبان في شمال افريقية امتدادا للحرب مع المسلمين،
تلك الحرب التي يطلق عليها الاسبان اسم حرب الاسترداد Reconqusta .
ولم تكن شمال افريقية في نظر الاسبان نقطة الوثوب لاحتلال اسبانية فقط
(في القرن الثامن) ، وانما كانت أيضا السند العسكري القوي الذي اخر
عملية الاسترداد عدة قرون بالرغم مما كان عليه مسلمو اسبانية من ضعف
وتمزق ، وقد تركت الملكة ايزابيل في وصيتها مايلي « ... اني أرجو
الأميرة ابنتي (جين) والأمير زوجها (فيليب) وآمرهما باطاعة وصايا أمنا
القدسة الكنيسة طاعة تامة وان يكونا حماتها والمدافعين عنها حسبما يقتضي واجبهما
وألا يكفا عن متابعة فتح افريقية ومحاربة الكفار في سبيل الايمان ...»[1] ،

(1) Maura : La question au Maroc au point de vue espagnole P. 1

وكان رجال الدين الاسبان ولا سيما رجال محاكم التفتيش يغذون على الدوام نار التعصب ، وقد اخذوا باضطهاد المسلمين بقسوة ولا سيما بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ ٠

كانت وثيقة استسلام غرناطة تضمن للمسلمين احترام عاداتهم وممتلكاتهم وقوانينهم ودياناتهم ، وشيئا من الاستقلال الاداري الذاتي ٠ وقد احترم هذا العهد عدة سنين ثم انتهى بضغط من ايزابيل ملكة قشتالة ومستشارها المتعصب الكردينال كزيمنيس الذي بدأ بشن حملة وحشية على المسلمين بغية طردهم او تحويلهم عن دينهم ، وقد أدى ذلك الى قيام المسلمين بثورة في منطقة غرناطة سعى كزيمنيس واعوانه الى القاء مسؤوليتها على عاتق المغاربة ٠

كانت اسبانية في اواخر القرن الخامس عشر تتألف من مملكتي قشتالة وأراغون ٠ وكانت قشتالة بحكم موقعها الجغرافي تتجه نحو الأطلسي ، وبحكم دورها في الصراع مع المسلمين تهتم بما يجري في المغرب ٠ أما مملكة اراغون فقد كانت بحكم امتلاكها جزر البالبار وصقلية وسردينية ، ولوجود احد افراد اسرة اراغون على رأس مملكة نابولي ، تتجه نحو المتوسط ، وكانت سياستها تهدف الى تأمين طريق بحري آمن بين اشبيلية وصقلية الغنية بالحبوب ، وكان لابد لها لتحقيق ذلك من نقاط ارتكاز على سواحل شمال افريقية ٠

وقد هيأ زواج فرديناند ملك اراغون بايزابيل ملكة قشتالة وحدة اسبانية رغم أن هذا الزواج لم يدمج المملكتين معاً ، فقد ظل لقب « ملوك اسبانية » موجودا ٠ ولم يكن فرديناند ملكا على قشتالة الا بوصفه زوج ايزابيل ، وكانت صور الاثنين تظهر على العملة والأسلحة والرايات ٠ وقد أفادت قشتالة وحدها من ضم غرناطة ومن المكشوف الجغرافية ٠ ولكن اذا لم يكن هناك سياسة اسبانية داخلية واحدة ، فقد كان هناك سياسة اسبانية

خارجية واحدة يوجهها فرديناند الذي نجح في اثارة اهتمام قشتالة بمسائل القارة وشبه الجزيرة الايطالية ٠

ومنذ مطلع القرن السادس عشر توزعت مشاغل اسبانية الخارجية بين أكثر من ميدان : في امريكة وشمال افريقية وايطالية ، ثم في القارة الأوربية بعد تسلم ملك اسبانية شارل ، حفيد فرديناند وايزابيل ، تاج الامبراطورية الجرمانية المقدسة باسم شارلكان ٠ كان عمل اسبانية وسياستها الخارجية يفتقران الى التركيز ، وهذا ما يفسر نشاط السياسة الاسبانية في شمال افريقية ، أو فتور هذا النشاط ٠ أو يفسر ان صح التعبير تخبط السياسة الاسبانية الافريقية ٠

وكذلك كان للاوضاع القائمة في شمال افريقية اثر كبير على السياسة الاسبانية:

كانت الدول الثلاث الحاكمة في اقطار الشمال الافريقي في حالة ضعف شديد ، مما ساعد على تفكك السلطة السياسية وانتشار الفوضى ، وصارت اقطار المغرب العربي ولا سيما المغرب الأوسط فسيفساء سياسية يتعذر تحديدها ٠

تقلصت سلطة بني عبد الواد وافلت معظم المغرب الأوسط من قبضتهم ، وتمزقت امارتهم بسبب منافسات الأسرة الحاكمة ودسائس البلاط ومؤامرات كبار الموظفين ، وتدخل الحفصيين في شؤونهم ٠ واستقلت المناطق الواقعة بين مملكة عبد الواد والممتلكات الحفصية وتجزأت بفعل الأحداث المحلية : ضعف السلطات الزيانية والحفصية ، فوضى القبائل المحلية ، نشاط الطرق الصوفية ٠ فاستقلت واحات فكيك وقبائل الوارسنيس ، وخضعت بلاد القبائل لسلطان كوكو (قرية آيت يحى قرب ميشليه) وسيطر حاكم قسنطينة الحفصي على المنطقة الواقعة بين بون (عنابة) والقل بعد أن تخلص من السيطرة الحفصية ، واصبح الزاب والحضنة اقطاعا لعرب الدواودة ، وقامت في تقرت سلالة جديدة مدت سيطرتها على واحات وادي غير ٠ وألفت الموانى

بين جربة والمغرب نوعا من الجمهوريات المستقلة انصرفت الى النشاط البحري وممارسة القرصنة .

وقد نشطت القرصنة على سواحل شمال افريقية بتأثير عوامل عديدة أهمها :

١ ـ الأزمة السياسية والاقتصادية التي كان من أهم عواملها هجرة قبائل بني هلال وسليم ، وقد اشتدت هذه الأزمة منذ منتصف القرن الرابع عشر .

٢ ـ هجرة مسلمي الأندلس الى شمال افريقيــة واستقرارهم في الموانئ واسهامهم في تمويل سفن القرصنة وتشجيعها بدافع الربح من جهة وبدافع الانتقام ممن طردوهم من موطنهم من جهة اخرى .

كان هذا الضعف والتفكك في شمال افريقية مشجعاً للمطامع الاسبانية ، وقد كتب سكونيو ملك اسبانية عام ١٤٩٥ :

" ... ان البلاد ، يقصد شمال افريقيــة ، في حالة يبدو وكأن الله يريد أن يمنحها لجلالتكم ... "

وقد تركز التدخل الاسباني في المغربين الأوسط والأدنى ، وذلك بعد معاهدة توردى سيلاس عام ١٤٩٤ التي عقدت بين اسبانية والبرتغال برعاية البابا ، والتي خصصت لاسبانية المناطق الواقعة شرقي بنون دوفيليز (حجر باديس) المغربية .

ويمكننا أن نستخلص مما سبق دوافع التدخل الاسباني :

١ ـ دوافع دينية ، لايمكن انكار أهميتها ، فهي وليدة الصراع مع المسلمين خلال حرب الاسترداد وقد اشتدت تجاوبا مع دعـوات البابا الى الحرب الصليبية في النصف الثاني للقرن الخامس عشر ، إثر سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ ووصول الأتراك الى اسوار البندقية في أواخر هذا القرن . واسب

المتعصبون من رجال الدين الاسبان ، وعلى رأسهم الكاردينال كريمنس ، دورا بارزا في اعداد الحملات الاسبانية وتوجيهها . وقد استاء الاسبان من لجوء ملك غرناطة ابي عبد الله وعدد من أعيان الأندلس الى وهران وترحيب السلطان الزياني محمد الثاني بهم . وحاول السلطان الزياني أن يخفف من وقع هذا العمل في نفوس الاسبان بسبب عجزه عن مجابهتهم فسافر الى اسبانية مصحوبا بهـدايا ثمينة ، ونجح الى حد ما في تخفيف غضب ملك اسبانية(١) . الا أن ثورة المسلمين في غرناطة عام ١٥٠١ وهجمات القراصنة المسلمين على الجزر والسواحل الاسبانية ربيع ١٥٠٥ زود المتعصبين الاسبان بالحجج اللازمة ، ولاسيما وأن نشاط القرصنة هذا كان يشجعه ويسهم فيه مسلمو الأندلس المطرودون أو المهاجرون من اسبانية . وكان هؤلاء المهاجرون يحملون حقدهم على الاسبان ويقصون على اخوانهم في شمال افريقية قصص الحروب والاضطهاد والغدر والنهب والاعتداء على حرمة المساجد والمقدسات . فأثاروا عواطف المغاربة وطلبوا مساعدتهم لانقاذ اخوانهم الذين حال فقرهم دون مغادرة اسبانية ، كما أن الأمراء الاندلسيين الذين لجأوا الى بلاطات المغرب وتلمسان وتونس كانوا يستصرخون حكام هذه البلاد كل يوم ليمدوا يد المساعدة لاخوانهم مسلمي اسبانية . وبانتظار قيام رد فعل مغربي ضد اسبانية بدأ سكان موانئ شمال افريقية يشنون حرباً بحرية ضد السفن والموانئ الاسبانية . وفي كل الموانئ الصغيرة التي استوطن فيها المهاجرون سلحت سفن خفيفة كانت تقوم منفردة او مجتمعة في أساطيل صغيرة بمهاجمة السفن التجارية والموانئ الاسبانية التي اقفرت من سكانها . وكان المسلمون الذين أجبرتهم ظروفهم على البقاء في اسبانية واجبروا على تغيير دينهم ، يتصلون سراً برجال البحر المسلمين ، ويمدونهم بالمعلومات اللازمة ليقوموا بهجماتهم دون ان يتعرضوا للاخطار . وقد روع سكان الموانئ الاسبانية ورفعوا شكاوي

(١) عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ١٩٦ .

الى الملكة واعلنوا انهم لم يعد في مقدورهم دفع الضرائب اذ لم يعد بامكانهم التجارة مع الخارج أو زراعة أراضيهم (1) .

X - ٢ - دوافع سياسية واستراتيجية ، فقد كانت سواحل شمال افريقية ضرورية لكل اتصال بحري آمن بين السواحل الاسبانية وسواحل ايطالية الاسبانية ، كما كانت ضرورية لنشاط اسبانية في البحر المتوسط • وكان الكاردينال كريمنيس يعرف كيف يوفق بين الدوافع الدينية والسياسية وكان يرى ان الاستيلاء على الجزائر ضروري للتوسع الاسباني • كانت عملية التدخل من تصميم ايزابيل والكاردينال كريمنيس • فكلفت ايزابيل اثنين من اتباعها بمهمة استطلاعية سرية في مملكة تلمسان • وتنكر المبعوثان في زي التجار وامضيا عاماً في مملكة تلمسان وحصلا على كل المعلومات اللازمة لمشروع الغزو الذي كان يجري الاعداد له • كما استعان الكاردينال بأحد البنادقة الذي كان ذا خبرة تامة بالساحل الجزائري • وبناءً على المعلومات المتوفرة قررت الملكة مهاجمة تلمسان وأعدت قوة كبيرة بقيادة حاكم غرناطة الذي مول الحملة، إلا ان موت الملكة سنة ١٥٠٤ أخر الحملة التي كانت حلم حياتها ، ولكنها لم تهمل أن تطالب في وصيتها بعدم التوقف عن فتح افريقية • وكان فرديناند يرغب في تأجيل هذه الحملة ريثما تنتهي الحرب الايطالية ولكن انتصاره على الفرنسيين من جهة ، وجرأة بحارة المرسى الكبير الذين هاجموا في ربيع سنة ١٥٠٥ عدة موانىء اسبانية من جهة أخرى دفع فرديناند الى اتخاذ قرار بتنفيذ مشروع الحملة •

اختار فرديناند دون ديبجو فرنانديز دو كوردوفا قائداً للحملة ووضع تحت [illegible] فه جيشاً قدر بأكثر من عشرة آلاف رجل • وحدث أن أخرت الرياح قيام الاسطول أكثر من اسبوع ، وكان هذا التأخير في صالح الحملة

---

(1) H. D. De Grammont : Histoire d'Alg[illegible]r sous la domination turque P. 3 - 4.

ذلك أن المغاربة كانوا على علم بمجيء الحملة فاستعدوا لها وتجمعوا على الساحل لصد الانزال ، ولما طال انتظارهم دون ان يظهر اثر للحملة ظنوا ان الاسبان قد عدلوا عن خطتهم فتفرقوا وعادوا الى قراهم مكتفين بترك قوة صغيرة على الساحل • وأفاد القائد الاسباني من هذا التأخير فأكمل استعداداته • وفي العاشر من شهر ايلول رسا الاسطول الاسباني على بعد فرسخ من المرسى الكبير •

X قاوم الجزائريون مقاومة ضارية بدون جدوى ، فقد قتل قائد الحامية ونقص الماء وفشلت الهجمات التي شنها الاهالي الذين هرعوا من الداخل • فاضطرت حامية الميناء الى الاستسلام • وحدث توقف في النشاط الاسباني بسبب الخلاف الحاد الذي نشب بين فرديناند وصهره فيليب الجميل (1) • وبوفاة فيليب في أواخر ايلول سنة ١٥٠٦ صار بامكان فرديناند متابعة نشاطه•

X وفي ١٥٠٧ قام حاكم المرسى الكبير بعملية حمقاء أدت الى كارثة كادت ان تقضي على الوجود الاسباني في المغرب الأوسط • فقد هاجم قرية « مسرغين » القريبة من المرسى الكبير للاستيلاء على المواشي ، وكي يتجنب مدفعية وهران سلك طريقاً جبلياً ضيقاً يعرف بـ (طريق الماعز) • وصحب القائد معه معظم افراد الحملة ولم يترك في المرسى الكبير سوى قوة صغيرة • نجح الاسبان في الوصول الى مسرغين وفاجأوا أهلها وقتلوا المدافعين واسروا البعض وصحبوا الماشية • ولكن الانسحاب كان أصعب من الهجوم • فقد تعالى الصريخ في القرى المجاورة وتدفق الأهالي من كل حدب وصوب ، كما سارعت حامية وهران ، وفتك المغاربة بالاسبان ولم ينج سوى بضعة أفراد بينهم قائد الحملة ، الا أن المغاربة لم يستثمروا هذا الظفر وفشلوا في استرداد المرسى الكبير •

استأنف الاسبان نشاطهم عام ١٥٠٨ بقيادة بدرو نافارو الذي تعلم

---

(1) Claude Martin : Histoire de l'Algerie française P. 43

القرصنة في ظروف غير معروفة تماما على سفن مغربية ومسيحية . استولى بدرو نافارو عام ١٥٠٨ على بنون دوفليز (حجر باديس) على سواحل المغرب الأقصى الشمالية ، ثم هاجم وهران عام ١٥٠٩ ونجح في اقتحام أسوارها بسهولة لخيانة القائدين المسؤولين عن حراسة وهران« .... وأحدهما منافق يتظاهر بالاسلام والآخر يهودي اسمه اشطورا .... »(1) وبمساعدة بعض الأعراب له . قام الاسبان بأعمال وحشية أشرف عليها الكاردينال كزيمينس بنفسه فقتل ٤ آلاف وأسر ٨ آلاف وحول مسجدين الى كنائس . وقد تركت هذه المجزرة صدى عميقا في المغرب الأوسط « .... ويومئذ انطلقت ألسنة العلماء والشعراء بتوجيه الصريخ الى الولاة والرؤساء وامراء القبائل لانقاذ وهران .... »(2) . وعين دون دييجو قائداً عاماً لمدينة وهران والمرسى الكبير ومملكة تلمسان . ويدل هذا اللقب على أن الاسبان كانوا مصممين على احتلال تلمسان ، ولكن النفقات الكثيرة حالت دون توسيع الاحتلال واضطرت اسبانية الى الاكتفاء بسياسة الاحتلال الناقص .

واستولى الاسبان عام ١٥١٠ على بجاية ونهبوها ونقلوا جميع ما فيها من تحف ونفائس الى اسبانية في ثلاثين مركبا غرق اكثرها في الطريق ، كما هدموا منار قصر اللؤلؤ البالغ طوله سبعين ذراعا والذي يعتبر من أعظم آيات فن المعمار الجزائري الجميل ، وحطموا قصر الكوكب والمسجد الجامع الأعظم . وفي العام نفسه استولى الاسبان على طرابلس ، ولم يؤثر فشلهم في الاستيلاء على جزيرة جربة على انتصاراتهم . وسارع عدد من الموانئ الأخرى الى قبول الخضوع للسيادة الاسبانية ودفع الجزية ، مثل تنس ودلّيس وشرشال ومستغانم . وفي عام ١٥١١ توجه وفد من مدينة الجزائر برئاسة شيخها سالم التومي الى بجاية التي جعلها بدرو نافارو مركز قيادته ، فأبرم معه صلحا تعهد فيه بالخضوع للنفوذ الاسباني والافراج عن جميع

(1) الجيلاني : ص ١٩٨ .

(2) الجيلاني : ص ١٩٩ .

الأسرى من النصارى ، ثم توجه الوفد عام ١٥١٢ الى اسبانية حيث قدم ولاءه الى الملك فرديناند . وقبل الوفد تسليم احدى الجزر وهي عبارة عن صخرة مواجهة لميناء الجزائر على بعد ٣٠٠ م منه . وقد اقام الاسبان على هذه الصخرة حصنا Penon وضعوا فيه حامية ومدفعية اصبح شوكة في جنب الجزائر ، تهددها مدافعه المسلطة تهديدا دائما . وكان فرديناند يفكر بالاستيلاء على القل وعنابة ولا سيما تونس التي يسمح له امتلاكها بالسيطرة على المضيق الصقلي والتحكم فيه ، كما يسمح له باغلاق المتوسط الغربي في وجه الأتراك ، ولكن تعقيد السياسة الاسبانية عطل هذه المشاريع، ذلك ان التوسع في افريقية لم يكن ممكناً بالنسبة لاسبانية الا في فترة سلم في اوربة، وكانت سياسة لويس الثاني عشر ملك فرنسة تقلق فرديناند، وقد ادى استئناف الحرب في ايطالية سنة ١٥١١ إلى توقف النشاط الاسباني في افريقية، واضاعت اسبانية بذلك فرصة توطيد اقدامها في شمال افريقية(1) .

وهكذا خلال بضع سنوات سيطر الاسبان على النقاط الرئيسية من سواحل المغرب الأوسط ، وكان بامكانهم الاعتماد عليها للسيطرة على المغرب الأوسط كله مستغلين حالة الضعف والتمزق السائدة فيه ، ولكنهم لم يفعلوا وظل احتلالهم احتلالا ناقصا مقصورا على السواحل . ولعل السبب في ذلك راجع الى تحول اهتمام اسبانية نحو ايطالية،حيث شغلها الصراع على شبه الجزيرة الايطالية الذي امتد ، حينما انتخب ملك اسبانية شارل امبراطورا للامبراطورية الجرمانية المقدسة ، ليشمل القارة الأوربية ، والى تدخل آل بربروسا والعثمانيين لانقاذ المغرب الأوسط من التهديد الاسباني ، وكان هذا التدخل ضربة شديدة عقدت موقف المراكز الاسبانية ووضعت حدا للتدخل الاسباني .

1) C. Martin : P. 44

التدخل العثماني

ـ لم يكن التدخل العثماني في شمال افريقية أمرا متوقعا أبدا ، ولم يكن في حسبان أحد بما في ذلك الدولة العثمانية نفسها • فقد كان أقصى ما تتمنى تلك الدولة وأقصى ما كانت تستطيع هو القضاء على الدولة المملوكية ووراثة أملاكها • كانت الدولة العثمانية دولة برية لعب الجيش الدور الحاسم في فتوحاتها ، ولم يكن للاسطول العثماني أي دور بارز في هذه الفتوحات ، سواء في البلقان أو في آسية العربية • وفي حين اتسعت فتوحات العثمانيين القارية فان تقدمهم في البحر كان بطيئا ولا قيمة له ، واذا كانت فتوحاتهم العربية قد منحتهم مواقع بحرية هامة على سواحل المتوسط الشرقي فان ممتلكاتهم البحرية اقتصرت حتى اوائل القرن السادس عشر على عدد من جزر الأرخبيل القليلة الأهمية في حين ظلت الجزر الهامة كرودس ومالطة وكريت وقبرص بعيدة عن متناول ايديهم •

ومنذ أوائل القرن السادس عشر توزعت اهتمامات الدولة العثمانية في اتجاهات متعددة : في اوربة وبلاد الفرس ، وفي مياه الجزيرة العربية حيث اضطروا الى متابعة الصراع الذي بدأه المماليك ضد البرتغاليين • ولا شك في أن اتساع السواحل العثمانية على البحرين المتوسط والاحمر بعد احتلال العثمانيين للبلاد العربية الآسيوية ، ودخول الجزائر في طاعتهم ـ هذا الدخول الذي اقحمهم في شؤون المتوسط الغربي ـ كل هذا دفع الدولة العثمانية الى بذل جهود كبيرة لتنمية البحرية العثمانية بحيث اصبحت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر من أهم القوى البحرية في المتوسط •

٨ ولم يكن التدخل العثماني في شمال افريقية نتيجة خطة وتصميم عثمانيين بل كان نتيجة مبادرة اشترك فيها أهل مدينة الجزائر والأخوين عروج وخير الدين بربروسا ، كرد فعل على التدخل الاسباني •

عروج :

هناك اختلاف حول أصل عروج واخوته الثلاثة خير الدين ، واسحاق ، والياس • قيل ان والدهم كان جنديا تركيا في قوة الاحتلال التركية في جزيرة مديلي (ميتلين) فهم مسلمون اذن في الأصل • وقيل ان والدهم كان خزافا يونانيا وانهم اعتنقوا الاسلام في وقت متأخر حسب مايروي الأب هايدو • وأيا كان الأمر فان نشاط عروج واخوته كان موجها ضد السفن المسيحية وفي خدمة الاسلام والمسلمين • ويلف الغموض تاريخ عروج في مراحل نشاطه الأولى ، قيل انه مارس القرصنة منذ حداثة سنه ، وكان للقرصنة في منطقة الارخبيل تقاليد عريقة وقد طبعت بالطابع الديني ولاسيما بعد فتح القسطنطينية في منتصف القرن الخامس عشر ، ووصول الأتراك الى أبواب البندقية في اواخر هذا القرن ، وما اثاره هذا كله من ردود فعل دينية ظهرت في نداءات البابوات الى الحرب الصليبية • وقيل ان الياس قتل في معركة بحرية واسر عروج واضطر أن يعمل مجدفا على سفن تابعة لفرسان القديس يوحنا ومركزهم جزيرة رودس • ولانعرف كيف تحرر عروج من أسره[1] •

وفي أوائل القرن السادس عشر انتقل نشاط عروج واخويه من المتوسط الشرقي الى المتوسط الغربي فجأة وكان خير الدين قد سبق عروج الى ذلك[2]

---

(١) قيل أنه كان في مركب لفرسان القديس يوحنا فهاج البحر بهم واضطربت أمواجه فالقى عروج بنفسه في البحر ونجا / انظر نور الدين عبد القادر : صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ص ٤٢) •

(٢) ابن ابي الضياف : اتحاف أهل الزمان ... ج ٢ ص ٩ •

واشترك فيها سالم التومي واهل المدينة والاسبان • ولكن عروجا كشف المؤامرة وسبق المتآمرين فقتل زعيمهم سالم التومي ، ونادى جند عروج به سلطانا • نجح عروج بالاحتفاظ بالجزائر بالرغم من مؤامرات اولاد سالم التومي الذين لجأوا الى الاسبان ، واضطر لتوطيد مركزه الى استعمال اقسى وسائل الشدة ضد خصومه ونجح في احباط حملة اسبانية قادها ديجو دوفيرا عام ١٥١٦ ، انتهت بكارثة ، فقد فتك عروج بأفرادها وحطمت العاصفة معظم السفن • وبعد ان وطد عروج مركزه في مدينة الجزائر شرع في التوسع على حساب الامارات المجاورة فاستولى على مليانة والمدية وتنيس[١] وشرع في تنظيم هذه المناطق فأوكل الى أخيه خير الدين أراضي المشرق ومقره ديليس وترك لنفسه مدينة الجزائر ومناطق الغرب •

رغب عروج في استغلال ضعف السلطة الزيانية فاستغل المنازعات الأسرية ونقمة أهل تلمسان[٢] على السلطان ابي حمو لخضوعه للنفوذ الاسباني • فقرر احتلال تلمسان بحجة انقاذها من النفوذ الاسباني وفي طريقه تضخم جيشه بعدد من المتطوعين الناقمين على ابي حمو ، واحتل قلعة بني راشد وترك فيها أخاه اسحق على رأس فرقة من الجند ليحفظ مؤخرته وخط تراجعه ، ونجح في احتلال تلمسان عام ١٥١٧ بدون صعوبة ، ولكنه بدلا من أن يضع على عرشها الأمير الزياني ابا زيان تسلم السلطة بنفسه ، وحاول القضاء على الاسرة الزيانية فقتل سبعين شخصا منها •

وتوغل عروج في المغرب الشرقي حتى (وجدة) واخضع بني يزناسن

---

(١) كان حاكم تنيس قد اتفق مع الاسبان ووعد بمساعدتهم • وبالرغم من انه لم ينفذ وعده أو لم يتمكن من هذا فقد قرر عروج تاديبه ليضرب به المثل لباقي الزعماء •

(٢) استقبل عروج في تنيس عدداً من أعيان تلمسان جاءوا يرجون مساعدته ضد السلطان ابي حمو ، وكان على رأس الناقمين على ابي حمو أخوه ابو زيان وكان قد سجن في المشور وارسل من سجنه يستنجد بعروج •

وشرع في اجراء مباحثات مع الوطاسيين في فاس للتعاون معهم ضد الاسبان[١] •

شعر الاسبان بالخطر فوجهوا حملة بقيادة دون مارتن نجحت في قطع الطريق بين تلمسان والجزائر وقتلت اسحاق أخا عروج ثم توجه المركيز دوكوماريس حاكم وهران على رأس حملة نحو تلمسان يساعده جماعة من انصار الزيانيين وحاصر عروجا في تلمسان • صمم عروج على المقاومة مؤملا فيما يبدو بنجدة من فاس ولكن أهالي تلمسان ثاروا ضده واجبروه على اللجوء الى قلعة المشور • هرب عروج من تلمسان مع حفنة من جنده ونجح في اختراق صفوف الاسبان سراً نحو الساحل حيث كان يأمل في وصول سفن أخيه خير الدين ، وحمل معه كنوز آل زيان • ولما علم الاسبان بهربه ارسلوا قوة لمطاردته ، وقد حاول عروج تأخير المطاردين بنثره كنوز آل زيان على الطريق • ولكن الاسبان لحقوا به وحصروه في قلعة قديمة ، وبعد معركة ضارية حارب فيها عروج « كأسد » قتل مع جميع انصاره عام ١٥١٨ ، وكان عمره حين قتل اربعة واربعين عاماً ، وقد مات مأسوفاً عليه من كل الذين خدموا تحت امرته كما يقول هايدو[٢] •

لم يؤد مقتل عروج الى انهيار البناء الذي وضع أساسه • ومهما قيل عن قساوة عروج في الجزائر وتلمسان وعن تسرعه في التوسع اكثر مما تسمح امكاناته ، فما من شك في انه عرف كيف يستغل الانقسامات التي كانت تعصف بالمغرب الأوسط ، ونجح في توجيه (ضربة توقف) للنفوذ الاسباني وفي اضعاف الاسرة الزيانية ، وفي رسم الطريق لخلفائه لاقامة نظام جديد في المغرب الأوسط • وكان عروج أبعد نظرا من الاسبان ، اذ

---

(١) يؤكد المؤرخون الاسبان قيام هذا الحلف ويضيف بعضهم انه في الوقت الذي قتل فيه عروج وصل سلطان فاس مع جيشه عن طريق مليلا • ولكن دوجرامون يشك في قيام هذا الحلف دون ان ينفي امكان وجود مشروع تحالف لم ينفذ لان وجود الاتراك على حدود المغرب اكثر خطراً من وجود الاسبان العاجزين عن أي تهديد للمغرب •
De Grammont P. 25

(2) De Grammont P. 28

انه أدرك ان عليه ، أن يحتل أوسع قسم من الداخل ، كي يصبح سيدا على الشاطىء الافريقي • ولكن عمل عروج كان مستقلا يعتمد على عبقريته الشخصية وعلى حفنة محدودة من الأعوان وبضع عشرة سفينة في بيئة لم تعرف منذ زمن طويل الاستقرار السياسي والاقتصادي،بيئة خصبة للدسائس والمطامع الفردية يهددها خطر أجنبي كان يعتمد على قوى وامكانات اكبر بكثير من امكاناته • وكان هذا العمل عرضة للانهيار لو لم يتابعه أخوه خير الدين بقوة ومهارة وبعد نظر غاب عن عروج أو لم يتسن له الوقت للتفكير أو للقيام به •

خير الدين بربروسا(١) :

لم يكن « خير الدين والدنيا » ـ كما يسميه ابن ابي الضياف ـ مجرد مغامر أو قرصان شهير بل كان مؤسس دولة ، وشخصية من أبرز شخصيات التاريخ العثماني بوصفه منظم القوة البحرية العثمانية العظيمة في القرن السادس عشر • وكان فضلا عن هذا قوة من القوى الفعالة في تاريخ الصراع في البحر المتوسط في هذا القرن الحافل بالصراع •

كان خير الدين نائبا لأخيه عروج في مدينة الجزائر ، ولما وصل نبأ مقتل عروج نادى به الجند خلفا له في وضع كان في غاية الصعوبة ، ذلك ان عروجاً كان قد صحب معه خيرة المحاربين ، كما أن فشله ومقتله أبعد عن خير الدين اولئك الحلفاء الموقتين الذين انضموا اليه حين كان قوياً • وكان خير الدين يخشى ثورة المناطق المجاورة للجزائر ، وثورة سكان المدينة الناقمين ، وتدخل الاسبان الذين كان بامكانهم ان يستثمروا ظفرهم فيهاجموا الجزائر ويطردوا خير الدين وقوته البسيطة • وفكر خير الدين فعلاً بمغادرة الجزائر الى استنبول ، ولكن كان من حسن حظه ، ان اكتفى الاسبان بنجاحهم في تلمسان وعادت قواتهم الى اسبانية ، الا ان الموقف الداخلي ظل حرجاً فقد ثارت مدينة تنس وشرشال كما ثارت بلاد القبائل بقيادة أحمد القاضي • وادرك خير الدين بعد نظر أنه لن يستطيع أن يجابه الموقف بقواه الخاصة ، ولن يتمكن من مجابهة الخطر الاسباني بمغرب ممزق ،

---

(١) كانت كلمة بربروسا ـ وهي تعني ذا اللحية الحمراء ـ تطلق فقط على خير الدين وليس على أخيه عروج • وقد وردت هكذا في الغزوات التي كتبها سنان شاووش باشراف خير الدين ، ووردت هكذا في الوثائق الدبلوماسية الفرنسية حيث نقل عن السلطان العثماني نفسه انه كان يسمي خير الدين « اميرالنا ذو اللحية الحمراء » مما لايدع مجالا للشك في أصل هذه الكلمة

انظر De Grammont P. 29 .

وادرك أيضاً أن عليه أن يعتمد على قوة الدولة العثمانية ليحصل على الهيبة والمال والقوة التي تسمح له بالسيطرة على المغرب الأوسط والتغلب على الاسبان • فقرر الاستعانة بها ، وكانت آنذاك في اوج قوتها وقد شرعت في بسط سيطرتها على المشرق العربي • ويذكر ابن ابي الضياف قصة ارتباط خير الدين بالدولة العثمانية « ••• فاضطر خير الدين الى العزم على السفر لدار السلطنة العثمانية ، فجمع العلماء واعيان البلاد وفاوضهم في ذلك فمنعوه وتضرعوا له ألا يخرج من بينهم حتى تضع الحرب اوزارها • وقال له العلماء : يجب عليك القام بهذه البلدة الاسلامية لحمايتها ، ولا رخصة لك في تركها نهبة للمفترس ، فأجابهم بأنه بقي منفردا بلا معين من اخوته ، وقد رأيتم ما فعله بنا صاحب تلمسان من بني زيان ، واستعانته علينا بغير أهل ملتنا حتى كفانا الله أمره ، وصاحب تونس الحفصي لا رأي له في نصرنا واعانتنا ، وأسلمنا للعدو بمنع البارود ، لولا لطف الله ، فالرأي أن نصل أيدينا بالقوة الاسلامية ، وهو السلطان سليم خان ، ونعتمد عليه في حماية هذه المدينة ، ولا يكون ذلك الا ببيعته والدخول في طاعته ، بالدعاء له في الخطب على المنابر ، وضرب السكة باسمه لنتفيأ ظل حمايته ، فاستكانوا لذلك ورضوا به ، وأعلنوا بالدعاء له على المنابر وكتبوا بذلك للحضرة السلطانية وبعثوا له من السكة المضروبة باسمه في الجزائر ، وحمل خير الدين له هدية فاخرة[1] •

كان هذا العرض مفاجأة سارة للسلطان سليم لم يتردد بقبوله لأنه يضع تحت تصرفه دون عناء أو كلفة كبيرة شواطىء البحر المتوسط ،وسارع يمنح خير الدين لقب بكلربك ، وهو من أعظم القاب الدولة ولم يكن يتمتع به حينذاك سوى ثمانية أشخاص في السلطنة ، وارسل اليه قوة مؤلفة من ٢٠٠٠ انكشاري مزودين بالمدفعية ، وخوله حق تجنيد المتطوعين مع منحهم امتيازات الانكشارية ، وهكذا تلقى خير الدين ٤٠٠٠ جندي من المشرق

---

(١) ابن أبي الضياف ج١ ص ١٠ •

تألف منهم اوجاق الجزائر • وبفضل هذه القوة الجديدة تصدى خير الدين للمخاطر التي تواجهه فنجح في احباط مؤامرة دبرها سكان الجزائر مع رجال القبائل هدفها حرق الاسطول وقتل الأتراك[1] ، وألحق هزيمة قاسية بحملة اسبانية سنة ١٥١٩ قادها هوجو دومونكاد نائب الملك في صقلية، كانت قد نجحت في النزول قرب مدينة الجزائر عند مصب الحراش[2] • ولكن خير الدين اصيب بهزيمة قاسية أمام جيش حفصي كان يتقدم نحو الجزائر من الشرق •

كان سلطان تونس الحفصي يعتبر أن مدينة الجزائر تخصه ، وكان يعتبر عروجاً وخير الدين من اتباعه المنشقين ، ويرغب في استغلال موت عروج لاسترجاع الجزائر • وقد اتفق سراً مع أحمد ابن القاضي سلطان كوكو على التعاون ضد خير الدين • وكان ابن القاضي غير واثق من عفو خير الدين ، ويرغب في التخلص من هذا السيد القوي • وعندما توجه الحفصيون نحو الجزائر سار خير الدين لمواجهتهم على رأس قوة من الاتراك ورجال ابن القاضي الذين كانوا ينتظرون الوقت المناسب للانقلاب ضد خير الدين وهكذا وجد خير الدين نفسه محصوراً بين نارين وحاقت به الهزيمة ونجا قليل من اعوانه من المجزرة واضطر ، بعد ان رأى طريق الجزائر مقطوعاً امامه ، الى اللجوء الى جيجل حيث دعا سفنه الى اللحاق به

---

(١) كان أهل الجزائر يرغبون في التخلص من سلطان خير الدين واستعادة استقلالهم • وكان ميناء الجزائر غير أمين لأنه كان تحت رحمة مدفعية القلعة الاسبانية • وكان من عادة قباطنة خير الدين ان يجروا سفنهم على رمل الشاطىء بين باب الواد ومصب وادي مغاسل • تفاهم سكان المدينة مع القبائل المجاورة على أن يستغلوا يوم السوق لحرق السفن وقتل الاتراك • وكان على رجال القبائل ان يدخلوا المدينة يخفون سلاحهم ، وفي الوقت الذي يتوجه الاتراك لاطفاء النار في السفن يغلق السكان ابواب السور وينقضون على الرؤساء المجردين من السلاح •

(٢) كانت الحملة تتألف من ٤٠ سفينة وخمسة آلاف جندي ، وكان سلطان تلمسان قد وعد بان يهاجم الجزائر من البر ولكن خير الدين هزم الحملة وقتل معظم افرادها واجبر الباقين على الابحار ، واستولى على ٢٦ سفينة • وقد عزز هذا الانتصار موقف خيرالدين •

مع كوزه ومن تبقى من الانكشارية ، ولم يجرؤ خير الدين على العودة الى الجزائر دون جيش وهو يعلم استياء سكان المدينة والمناطق المجاورة ، واغار رجال ابن القاضي على المتيجة ونهبوه ، واحتلوا مدينة الجزائر ، وثارت تنس وشرشال في الوقت نفسه عام ١٥٢٠ .

كان خير الدين بحاجة الى موارد والى اعادة تنظيم قوته . فاستأنف من جيجل نشاطه القديم كقرصان بين ١٥٢٠ - ١٥٢٥ وشرع في مهاجمة سواحل المتوسط الغربية . ولما كثرت مغانمه نجح في جمع عدد كبير من الأعوان تمكن بواسطتهم من احتلال بون (عنابة) وقسنطينة . ونجح في الحصول على تأييد رجال القبائل الصغرى بتحالفه مع زعيم بني عباس عبد العزيز الذي ساعده ضد ابن القاضي . ولما تأكد خير الدين من قوته ومن استياء الجزائريين من ابن القاضي هاجم الجزائر وهزم ابن القاضي . وقتل رجال ابن القاضي زعيمهم وحملوا رأسه الى خير الدين علامة على خضوعهم ودخل خير الدين الجزائر سنة ١٥٢٥ ، ثم قمع ثورات شرشال وتنس وقسنطينة.

قرر خير الدين بعد أن وطد الأمن سنة ١٥٢٨ التخلص من القلعة الاسبانية المواجهة لمدينة الجزائر وشرع في قصفها في صيف عام ١٥٢٩ ، وكان الاسبان قد اهملوا شأن الحامية وتعزيزها . وبعد قصف دام ثلاثة أسابيع نجح خير الدين في الاستيلاء عليها ، واستسلم من بقي من حاميتها ، واستخدم انقاضها في انشاء مرسى يصل الصخرة التي كانت تقوم عليها القلعة بالمدينة ، فأوجد بذلك ميناءً لمدينة الجزائر وملجأ لاسطوله الذي أصبح بامكانه من هذا الموقع الستراتيجي بين المضيق الصقلي ومضيق جبل طارق أن يراقب ويقطع أقرب الطرق المباشرة بين مضيق جبل طارق والمتوسط الشرقي ، وبين جنوب اسبانية وجنوب ايطالية .

أثار سقوط القلعة الاسبانية رد فعل كبير في كل افريقية الشمالية وفي اسبانية وهاجمت القبائل بجاية دون نجاح واعلن سلطان تلمسان عبد الله

رفضه للتبعية الاسبانية وامتنع عن تقديم الجزية والمؤن مما عرضه لمتاعب أثارها ضده الاسبان بتحريض ابنه محمد الذي ثار ضد والده[1] ، وأقلق نجاح خير الدين الاسبان فوجهوا حملة بقيادة الأميرال اندريه دوريا حاولت الاستيلاء على شرشال لكنها أصيبت بالفشل عام ١٥٣١ .

التدخل في تونس

كان خير الدين يحلم بامبراطورية تضم كل افريقية الشمالية ليحقق بذلك تفوق الاسلام على المتوسط كله[2] ولهذا شرع في اعداد القوة اللازمة لانجاز مثل هذا العمل العظيم . ولم يكن بامكانه الاعتماد على الانكشارية فقط بسبب ضعف روح الانضباط لديهم فقرر انشاء قوة جديدة الى جانبهم ، فكون فرقة من الحرس مؤلفة من ٥٠٠ من العلوج ، وجنّد نحو ٨٠٠٠ من اليونان والالبان ومن رجال القبائل أوكل قيادتهم الى قباطنة من رفاقه القدامى الذين يثق باخلاصهم . وكان خير الدين يركز اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التي تمزق الأسرة الحفصية ، كما كان لتونس في نظره اهمية استراتيجية كبيرة لاشرافها على المضيق الصقلي بحيث تسمح له السيطرة عليها في تهديد أو قطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي . وكان خير الدين يعرف كره السكان لسلطانهم الحسن بسبب طغيانه وفسقه ، وله عيون في البلاط الحفصي يمدونه بأنباء البلاد .

حظي مشروع خير الدين لاحتلال تونس بموافقة السلطان سليمان

---

(١) كان لسقوط القلعة الاسبانية صدى كبير في كل شمال افريقية وهاجم رجال القبائل بجاية ولكنهم فشلوا في الاستيلاء عليها ، وفي تلمسان كان ابو حمو يحكم بعد مقتل عروج خاضعاً للنفوذ الاسباني يدفع الجزية ويمد حامية وهران بالمؤن اللازمة ، ولما توفى ابو حمو خلفه اخوه عبد الله الذي كان يحلم بالتحرر من التبعية الاسبانية ، وعندما علم بسقوط القلعة اعلن رفضه للتبعية الاسبانية وامتنع عن دفع الجزية وتقديم المؤن .

(2) A. Bernard : l'Algerie : P. 154

الذي ارسل له النجدات لمساعدته في تنفيذ مشروعه(1) . ولم يلق خير الدين صعوبة في احتلاله القطر التونسي . وحين دخل تونس في صيف عام ١٥٣٤ اعلن انتهاء الحكم الحفصي وتبعية تونس للسلطنة العثمانية وكسب عناصر كبيرة من السكان الى جانبه .

كان احتلال تونس تهديدا خطيرا لاسبانية والبابا والامراء الايطاليين. وكان الموقف ملائما للقيام برد فعل : فقد شغلت الدولة العثمانية في النزاع مع الفرس ، وتوقف الصراع في اوربة ووعد فرانسوا الأول ملك فرنسة شارلكان بالحياد . تردد شارلكان في اختيار المكان الذي سيوجه اليه ضربته في شمال افريقية : الجزائر أم تونس ؟ ولكن استنجاد السلطان الحفصي المخلوع والرغبة في عزل الجزائر عن استنبول دفع شارلكان الى اختيار تونس كهدف للهجوم .

وفي صيف عام ١٥٣٥ وصل اسطول اسباني مؤلف من ٤٠٠ سفينة و ٣٠ الف رجل الى الشاطىء التونسي . ونجح الاسبان في الاستيلاء على حلق الوادي وكان مما ساعد على هذا النجاح استهتار خير الدين بخصمه وابقائه اسطوله بعيدا عن المياه التونسية« ... فأصبح اسطول الصبنيول ناشرا أجنحته بحلق الوادي ، ونزل للبر بمحل يقال له برج العيون قرب حلق الوادي ، وانزل عساكره ومدافعه وآلات حربه ، وسفنه وراءه غادية رائحة بما يلزمه من ضروريات الجيش ...»(2) . وفيما كان خير الدين يصادم الغزاة نجح الأسرى المسجيون في مدينة تونس من تحطيم قيودهم واستولوا على القصبة ، فخشي خير الدين من التطويق وانسحب الى عنابة(3) حيث كان اسطوله . ولكي يعوض عن هذا الفشل وليشغل شارلكان عن متابعة الزحف،

(1) ساعد السلطان خير الدين بارسال ٤٠ سفينة الى عنابة مع ٨٠٠٠ رجل ومدفعية قوية .

(2) ابن ابي الضياف ج ٢ ص ١٢ .

(3) لم يعد خير الدين الى الجزائر عن طريق البر ذلك لان آل القاضي كانوا قد اتفقوا مع حاكم بجاية الاسباني على أن يقطعوا على خير الدين خط الرجعة .

هاجم جزر الباليار في الوقت الذي شاع فيه أنه هرب الى استنبول ، وأعاد معه ٦٠٠٠ أسير مع غنائم كبيرة ، وكانت هذه آخر عملياته البحرية كبكلربك وقرصان في الجزائر . فقد استدعاه السلطان الى استنبول ليتولى مهام قبطان باشا (اميرال) الاسطول العثماني ، بالاضافة الى منصبه السابق كبكلربك الجزائر مع كل امتيازات هذا اللقب .

ترك خير الدين في الجزائر حسن آغا خليفة له(1) ، وشرع منذ وصوله الى استنبول سنة ١٥٣٦ في اعادة تنظيم الاسطول العثماني وقيادة العمليات الحربية ضد خصوم الدولة البنادقة والاسبان ، فحقق انتصارات هامة زادت من مكانته في العاصمة العثمانية وجعلته محط انظار القوى المتصارعة في اوربة والمتوسط ؟ وسعى كل من فرنسوا الأول ملك فرنسة وشارلكان الى محاولة كسبه الى صفه . عرض شارلكان على خير الدين سرا الاعتراف به حاكما لشمال افريقية مقابل جزية بسيطة ، وكان شارلكان يأمل في قيام تحالف اسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني ، ويعمل على فصل شمال افريقية عن الباب العالي على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال افريقية ابداء مقاومة قوية ويكون من السهل حينئذ سقوطها . باشر المفاوضات الأميرال دوريا واستخدم فيها عدداً من اعوانه . وقد تظاهر خير الدين خلال عامين أنه موافق ، واستقبل مبعوثي الأميرال استقبالاً حسناً وناقش معهم المسائل بكل تفاصيلها ، وقبل الهدايا واستطاع بهذا أن يخدع دوريا الذي اقتنع قناعة تامة أن خير الدين أصبح في جانب اسبانية . وخلال ذلك كان خير الدين يطلع السلطان على كل ما يجري . واخيراً وضع السلطان حداً لهذه المساعي وزج المفاوض الاسباني في السجن بتهمة دفع احد رعايا السلطان الى الخيانة ، وكان خير الدين يميل الى التحالف مع فرنسة وتربطه

(1) ولد في ساردينية واسر وهو طفل خلال احدى هجمات القراصنة الجزائريين على الجزيرة ، وعندما وزعت الغنائم كان من نصيب خير الدين . وعندما شب حرره خير الدين وقلده قيادة عسكرية لما تميز به من شجاعة .

بالسفير الفرنسي صلة صداقة ومودة وقد وضع ثقله الى جانب فرنسة .

وفي سنة ١٥٣٥ حصل السفير الفرنسي في استنبول على وعد باشتراك الدولة العثمانية ونيابة الجزائر في الحرب ضد الاسبان ، ولم يكن هذا تحالفا صريحا لأن الطرفين لم يكونا راغبين في تحالف صريح لأسباب معنوية .

ومنذ سنة ١٥٣٦ بدأت السفن الجزائرية والفرنسية تشترك في هجمات مشتركة ضد جزر الباليار والشواطىء الاسبانية .

حملة شارلكان على الجزائر

وفي سنة ١٥٤١ استغل الاسبان فرصة الهدوء في القارة اثر عقدهم الصلح مع فرنسة فقرروا مهاجمة الجزائر والاستيلاء عليها، وتولى شارلكان بنفسه الاشراف على اعداد الحملة وقيادتها، وتعتبر هذه الحملة من الحملات الكبرى في القرن السادس عشر اشترك فيها نبلاء اسبانية والمانية وايطالية كما اشترك فيها أخو البابا وفرسان القديس يوحنا ، تألفت الارمادا الاسبانية من ٦٠٠ سفينة تحمل ١٢ الف بحار و ٢٤ الف جندي . ولكن اعداد الحملة لم يتم حتى تشرين الأول ، وبالرغم من ان الأميرال اندريه دوريا اعلن ان النزول على الساحل الافريقي ليس ممكنا الا في الصيف فان شارلكان صمم على الهجوم . ويبدو أنه كان يأمل في نجاح الاتصالات السرية التي كان يقوم بها حاكم وهران مع خليفة خير الدين حسن اغا ، لاغرائه بتسليم المدينة دون مقاومة(1) ، نزلت الحملة الاسبانية في مصب الحراش واستولى الاسبان على

(1) عرض حاكم وهران على حسن اغا باشوية الجزائر ، ويبدو مما كتبه حاكم وهران انه وجد لدى حسن اغا استعداداً لقبول هذا العرض . وأنه - اي حسن اغا - وعد بتسليم المدينة وذلك بشرط ان يهاجمها الامبراطور بقوة كبيرة ليغطي حسن اغا هزيمته . ويرى دوغرامون أن هذا يفسر تشبث شارلكان بالقيام بهذه الحملة في اشد الفصول خطورة بالرغم من نصائح دوريا وكل القباطنة الكبار ، وبالرغم من توسل أخيه فرديناند والبابا ، كما يفسر الاخطاء التي ارتكبها بصورة تدعو للاستغراب القواد الكبار الذين كانوا على راس الحملة مثل دوق دالب وفرناندو كورتيز ودو غونزال انظر De Grammont P. 58
وبعد نزول الحملة أرسل الامبراطور مبعوثاً الى حسن اغا يطلب فيه تسليم المدينة ويشير المؤرخون المحليون ان حسن اغا رفض باباء هذا العرض في حين أن الاخباريين الاسبان يشيرون ان حسن اغا كان سيستسلم لولا انه لقي معارضة قوية في مجلس الحرب .

المرتفعات المحاذية للجزائر ، ونصب شارلكان خيمة على تل عرف باسم حصن الامبراطور . تعرضت الحملة لعاصفة شديدة وامطار غزيرة اقتلعت وجرفت خيمها ومؤنها وافسدت ذخيرتها ، وساعدت على فشل الهجوم الاسباني على الجزائر وعلى تحطيم قسم كبير منه ، بالاضافة الى تخريب الأسرى المسلمين الذين كانوا يعملون مجدفين في السفن الاسبانية ، وامتلأ الشاطىء من شرشال الى دنيس بحطام الاسطول وجثث القتلى والغرقى . وكانت غنائم الجزائريين كبيرة بحيث صار يضرب بها المثل عند الحديث عن الغنائم الكبيرة . تجمع باقي الاسطول والحملة برئاسة الامبراطور في رأس ماتيفو وعقد الامبراطور مجلس حرب ليرى ما اذا كان عليه تأجيل الحملة أم أنه مايزال هناك أمل لمعاودة الهجوم . وكانت الأغلبية في صالح التأجيل في حين اصر حاكم وهران وأيده كورتيز على معاودة الهجوم ، وقد حسم الأميرال دوريا الموقف لصالح التأجيل حين بين أن الطقس السيء سيستمر . وكان خير الدين يراقب منذ زمن طويل استعدادات الحملة وقد رغب منذ شهر حزيران ارسال مئة سفينة حربية يوجه نصفها نحو شواطىء افريقية ويوجه النصف الآخر ضد الاسطول الاسباني الذي كان آنذاك مبعثراً في موانىء نابولي وصقلية واسبانية ولكن شكوك الديوان منعته من تنفيذ مخططه وحين توصل في شهر تشرين الاول الى التغلب على المعارضة وأقلع اسطوله علم بانسحاب الاسبان وهكذا فان هذا التأخير انقذ الاسطول والامبراطور .

كانت هذه الكارثة المريعة التي مني بها شارلكان ضربة خطيرة للنفوذ الاسباني في غرب البحر المتوسط ولا سيما في الجزائر ، وكانت حملته آخر مشروع كبير ضد السواحل الجزائرية ، اصبحت الجزائر بعدها في نظر اوربة مدينة لاتقهر ، وظل ذكراها لمدة طويلة يحول دون اقدام أية دولة اوربية على محاولة من هذا النوع ضد الجزائر . وشعر الجزائريون كذلك بالمنعة . وجاء في مخطوطة جزائرية « ... وفرج الله تعالى عنهم وفرح أهل الجزائر بهذا النصر العظيم ... وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها

وحللها من رخاء الأسعار وأمن الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها وبقي رعب المسلمين في قلوب اعداء الدين مدة من الزمن بأمن الملك المنان ...»[1] .

وكان من نتائج هذا النصر في الداخل أن نبذ السلطان محمد سلطان تلمسان السيادة الاسبانية ، فدخل حاكم وهران مؤيداً منافسه وهو اخوه عبد الله سنة ١٥٤٣ ولكن ما أن انسحب الاسبان حتى استدعى اهل تلمسان سلطانهم المعزول . ولما عادت الحرب في اوربة بين فرنسة وشارلكان استؤنف التعاون الفرنسي العثماني الجزائري وانضم الاسطول الجزائري بقيادة خير الدين الى الدوق دانجيم في حصار نيس والاستيلاء عليها ، واستقبل الاسطول الجزائري في ميناء طولون حيث امضى بها الشتاء ولما توقف النزاع الفرنسي الاسباني النمساوي عام ١٥٤٤ بعد صلح كريبي عاد خير الدين الى المشرق حيث توفي في استنبول عام ١٥٤٦ ، وتقديرا لخدماته العظيمة عينت الدولة العثمانية ابنه حسن باشا بكلربك على الجزائر .

حسن باشا :

وهو ابن خير الدين من امرأة جزائرية وهذا يعني انه من المولدين (القولوغلي) وهذا استثناء لن يتكرر في تاريخ الجزائر العثمانية . اذ انه لم يصدف أن تقلد افراد القولوغلي مناصب كبيرة ولا سيما منصب حاكم عام . ولكن سمعة خير الدين في تركية والجزائر معا غطت على كل شيء . عين حسن باشا في بادىء الأمر كاتب لوالده في الجزائر عام ١٥٤٤ ، ثم رقي الى منصب بكلربك بعد وفاة والده عام ١٥٤٦ وكلف بين عام ١٥٤٦ وعام ١٥٦٧ ثلاث مرات بهذا المنصب .

وخلال الفترة الأولى ١٥٤٤ – ١٥٥١ ركز حسن باشا اهتمامه على

---

(1) Delphin : Histoire des Pachas d'Alger de 1515 a 1745 Journal Asiatique 1922 P. 162 - 233.

تحصين مدينة الجزائر التي كشف هجوم شارلكان عام ١٥٤١ ضعف تحصيناتها . وانصرف الى معالجة مشكلة تلمسان . وكان خير الدين قد أوصى ابنه ان يعمل بحزم وقوة في الغرب حيث تعرض النفوذ التركي للضعف . وصل حسن باشا الجزائر سنة ١٥٤٤ وشرع على الفور يتخذ الاستعدادات للحرب ولكن كان عليه اولاً ان يوطد النظام في الجزائر نفسها وفي صفوف الجيش الذي استطاع في عهد الخليفتين (حسن اغا والحاج بشير) أن يتحرر من كل سلطة . تبين لحسن باشا ان بقاء الاسرة الزيانية ووجود الاسبان في وهران يعيقان حل مشكلة تلمسان . كانت المنافسات بين سلاطين بني زيان قد كثرت ، واعتمد المتنافسون في نزاعهم على القوتين المسيطرتين على القطر الجزائري : الأتراك في الجزائر والاسبان في وهران. وكان الامير الزياني عبد الله مايزال يحلم بعرش تلمسان بمساعدة الاسبان وبعض القبائل العربية كبني راشد ولكن مناوراته انتهت بالفشل وتوفي بالأسر . الا ان حاكم وهران بعد أن عاد من اسبانية برفقة قوة اسبانية قرر مهاجمة تلمسان سنة ١٥٤٦ بعد ان ضمن مساعدة عدد من القبائل . وفي الوقت نفسه قرر حسن باشا التحرك نحو الغرب . وقبل ان يلتقي الترك والاسبان علم حسن باشا بموت والده فآثر العودة الى الجزائر . واستغل حاكم وهران الفرصة فاحتل مازغران واتجه نحو مستغانم ولكنه اضطر الى التوقف فترة بسبب نقص الذخيرة . واستغل الاتراك هذه الفرصة فقووا موقفهم . وعندما عاود حاكم وهران الهجوم اصيب بالفشل واضطر الى الانسحاب الى وهران بعد أن تكبد خسائر فادحة .

وفي اواخر الأربعينات كان نجم السعديين قد علا في سماء المغرب ودخل محمد الشيخ (المهدي) فاس ١٥٤٩ . فسعى حسن باشا الى التفاهم معه لتكوين جبهة موحدة ضد الاسبان . وفي سنة ١٥٥٠ وجه حسن باشا قوة مؤلفة من ١٤ الف جندي من الأتراك ورجال القبائل بقيادة حسن كورسو توجهت نحو مستغانم . وكان من المتفق ان يلتقي الأتراك

بالسعديين في عين تيموشنت ليتوجها معاً نحو وهران ومن ثم يشرعان في توجيه حملة ضد اسبانية • ولكن المغاربة استغلوا هذا التحالف واستولوا على تلمسان سنة ١٥٥٠ ثم على مستغانم ، وتقدموا في وادي شلف • وظهر ان التوسع السعدي موجه ضد الأتراك وليس ضد الاسبان • وكان هذا بداية الصراع التركي المغربي الذي سيمتد فترة طويلة • سارع حسن باشا على الفور الى العمل ونجح جيش تركي في استرجاع مستغانم وتلمسان وطارد السعديين حتى نهر ملوية • ومع ذلك لم يعمل حسن باشا على القضاء على الأسرة الزيانية واكتفى بتنصيب امير زياني موال (الحسن بن عبد الله الثاني) سنة ١٥٥٠ •

عمل حسن باشا على تحصين مدينة الجزائر وتجميلها فبنى برج مولاي حسن الذي عرف باسم حصن الامبراطور ، وأنشأ مشفى للانكشارية ، وحمامات فخمة عامة ومجانية •

صالح ريس

وفي سنة ١٥٥١ استدعى حسن باشا من الجزائر لأسباب غير واضحة[1]

---

(١) يعزو دوغرامون اعتماداً على الوثائق الفرنسية استدعاء حسن باشا أنه كان بناء على مساعي سفير فرنسة في استنبول دارامون الذي تأكد منذ زمن سوء نية حسن باشا ازاء الفرنسيين• ويرى دوغرامون أنه في حين كانت علاقات فرنسة مع الباب العالي تتوثق يوماً بعد يوم وفي الوقت الذي كان فيه طرغوت يعمل لحساب هنري الثاني ملك فرنسة الذي كان يعتمد عليه ضد الاسبان مقدماً له هدايا ثمينة ليهاجم نابولي حيناً وجزيرتي البا وكورسيكة حيناً آخر ملحقاً بالاسبان هزائم كبيرة ، في هذا الوقت كان حسن باشا يظهر لمبعوثي فرنسة نية سيئة متأثراً بموقف ابيه في السنين الأخيرة من حياته وكان مسيو دارامون قد أرسل الى الجزائر أثناء حملة حسن باشا ضد وهران ليعرض عليه مساعدة الاسطول الفرنسي على أساس الهجوم على وهران ثم انزال حملة في اسبانية لكن دارامون رأى عروضه تقابل استقبالا سيئاً عند حسن باشا • وعندما عاد دارامون الى استنبول عرض بمهارة على الديوان المخاطر التي يمكن أن تتعرض لها وحدة الدولة العثمانية من جراء تزايد قوة البلكلربكوات ونجح في اثارة شكوك الديوان وهكذا تقرر استدعاء حسن باشا •

وخلفه صالح ريس أحد قباطنة خير الدين[1] ، الذي نجح في توسيع سلطة العثمانيين داخل البلاد واخضع تقرت وورقلة •

تهيأت لصالح ريس فرصة مواتية للتخلص من الزيانيين ومن الخطر المغربي الجديد ، وذلك عندما طلب منه الأمير الوطاسي ابو حسون مساعدته بعد أن دخل السعديون فاس للمرة الثانية عام ١٥٥٣ • وكان ابو حسون قد وقع في يد الجزائريين عندما كان عائداً من البرتغال على سفينة برتغالية أسرها الاسطول الجزائري وقد وعد ابو حسون انه سيكون تابعاً للأتراك •

وجه صالح ريس مع ابي حسون قوة جزائرية نجحت في دخول فاس وتنصيب ابي حسون سلطانا فيها • ويبدو أن الأتراك كانوا يودون الاحتفاظ بفاس والعمل باسم السلطان الوطاسي ، ولكن ثورة سكان فاس اجبرت ابا حسون على ان يطلب من الأتراك مغادرة المدينة • ومهما يكن من أمر فقد نجح صالح ريس في القضاء على الاسرة الزيانية في تلمسان التي دخلت نهائيا سنة ١٥٥٤ في اطار الحكم التركي في الجزائر • كما نجح صالح ريس في انتزاع بنون دي فيليز (حجر باديس) المغربية من الاسبان ، وسلمها لأحد قباطنته يحيى ريس الذي بدأ يشن الغارات من هذا المركز ضد الشواطىء الاسبانية •

وفي عام ١٥٥٥ نجح صالح ريس في انتزاع بجاية من الاسبان ولم يستطع حاكم نابولي نجدة حاكمها في الوقت المناسب • ولما لم يكن بامكان فيليب الثاني ملك اسبانية القيام بحملة على الجزائر بسبب افلاس خزينته فقد اكتفى باعدام حاكم بجاية الاسباني ككبش فداء لتهدئة خاطر الرأي العام الذي اثاره فقدان هذا الميناء الهام• وعلم صالح ريس اثناء الحملة على بجاية ان

---

(١) ولد في الاسكندرية وتدرب في مدرسة خير الدين البحرية وعين بكلربك في الجزائر سنة ١٥٥٢ •

السعديين قد دخلوا فاس من جديد وقتلوا أبا حسون ، وانهم يسعون للتفاهم مع الاسبان ضد الاتراك • وقيل ان السعديين عرضوا على الاسبان التعاون لطرد الأتراك من الجزائر • ولم يضع صالح ريس وقته فوضح للسلطان ضرورة العمل بسرعة وقوة ضد وهران والمغرب ، ووافق السلطان وارسل قوة بحرية كبيرة • رغب صالح ريس في العمل بسرعة قبل ان يعلم الاسبان بوصول هذه النجدات ، وفي الوقت الذي كان يستعد فيه لاصدار الأوامر بالتحرك نحو وهران ، توفي فجأة وتسلم القيادة حسن كورسو بمبادرته الخاصة دون انتظار أوامر استنبول وشرع على الفور في الزحف على وهران • واثناء الحصار الذي ضايق الاسبان وصلت أوامر استنبول برفع الحصار واعادة الاسطول الى البوسفور لمجابهة اسطول اندريه دوريا الذي كان يعمل في الأرخبيل ويهدد البوسفور • ويرى دوجرامون أن السلطان استاء من اغتصاب حسن كورسو للسلطة ، وانه لم يكن يرغب ان يُبقي تحت أوامر المغتصب مثل هذه القوة الكبيرة[1] • عين السلطان باشا جديداً « تيكلري » على الجزائر • ولكن حسن كورسو خشية من العقاب ووثوقاً من تأييد الجيش كشف عن وجهه وأعلن رفضه لأوامر السلطان ، وأعطى الأوامر لقادة المدن الساحلية بمنع نزول الباشا الجديد • وفشل تيكلري باشا في النزول في عنابة وبجاية والجزائر ، وهدد قادة هذه المدن باطلاق النار على سفينة الباشا إذا ما حاول الاقتراب • لجأ تيكلري باشا إلى رأس ماتيفو وشرع بالاتصال سراً بزعماء الطايفة الذين كانوا مستائين مما حصل • كان زعماء الطايفة من رفاق خير الدين القدامى ، وكانت العادة حتى الآن ان يختار السلطان منهم الحكام والقادة • وكان الجند ينفسون عليهم ذلك لأن رواتبهم قليلة ، ويرغبون في مشاركة الطايفة مغانم القرصنة • وكان الرؤساء يشعرون بطمع الجند في ثرواتهم التي جمعوها فيما لو نجح الجند

---

(1) De Grammont P. 83

باستلام السلطة » وهكذا تم التفاهم بسرعة بين الرؤساء وتيكلري وشرعوا في العمل فوراً • وكان قباطنة السفن يتولون على الدوام مهمة حراسة الميناء والمرسى وابواب البحرية • وقد نجحوا في الليل في احتلال الشوارع المجاورة وفاجأوا حراس القصر والأسوار ووضعوا بدلاً منهم افراداً من جماعتهم ، واستيقظت المدينة على أصوات مدافع الرؤساء ، واعتقل زعماء المتمردين من الجند واعدموا • واصدر تيكلري الذي دخل المدينة ليلاً أوامره بقتل حسن كورسو وقواد عنابة وبجاية • خضع الجند موقتاً أمام المفاجأة ولكنهم أضمروا الانتقام وباتوا يترقبون فرصة مناسبة • وفي أواخر نيسان استغلوا انتشار الطاعون وغياب الرؤساء في البحر فقتلوا الباشا وعينوا أحد زعمائهم • اثار مقتل تيكلري غضباً عظيماً في استنبول واضطر السلطان الى الاستعانة بنفوذ حسن باشا المحبوب من سكان الجزائر والأثير لدى الرؤساء الذين نشأ بينهم ، واعادته من جديد الى الجزائر •

عودة حسن باشا

وصل حسن باشا الى الجزائر سنة ١٥٥٧ مع عشرين سفينة حربية كون بحارتها مع بحارة الجزائر قوة كافية لوضع حد لتمرد الجند الذين خضعوا دون مقاومة •

وكان الموقف قد تعقد من جديد على الحدود الجزائرية المغربية • فقد استولى المغاربة الذين كانوا يعملون بتفاهم مع الاسبان على تلمسان وحاصروا الحامية التركية في المشور • سارع حسن باشا الى العمل فور وصوله ونجح في طرد المغاربة من تلمسان وتوغل في الأراضي المغربية ، ولكنه لم يجرؤ على التقدم نحو فاس خوفاً من أن يقطع الاسبان طريق مواصلاته ويهاجموه من الخلف • وقد علمت هذه الحملة حسن باشا أنه من الصعب عليه القيام بعمل جدي في المغرب ما دام الاسبان في وهران ولهذا عزم على طردهم من وهران قبل اجتياز الملوية • وعمد حسن باشا الى

المؤامرة لتخلص من خصمه العنيد محمد الشيخ فأرسل جماعة من الجند التركي دخلوا المغرب مدعين أنهم هاربون من الجيش التركي ونجحوا في كسب ثقة محمد الشيخ ثم قاموا باغتياله ونجح بعضهم في العودة الى الجزائر يحملون معهم رأسه عام ١٥٥٧ .

ولما أطمأن حسن باشا من جهة المغرب شرع في العمل ضد الاسبان الذين كانوا يحاولون الاستيلاء على مستغانم ، التي أصبحت قاعدة الاسطول التركي يهدد منها وهران . كان حاكم وهران دالكوديت ناقماً لفوات فرصة ضرب حسن باشا من الخلف حين كن يهاجم المغرب ، وذلك بسبب نقص قواته . وكان دالكوديت يدرك أن استرجاع الاتراك لتلمسان يهدد الوجود الاسباني تهديداً خطيراً . فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها الأتراك قاعدة لهم للهجوم على وهران ، وكان يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر .

اعتمد دالكوديت على تأييد بعض القبائل ، كما اتفق مع المغاربة على أن يهاجموا الأراضي الجزائرية باتجاه مليانة عندما يشرع الاسبان في العمل وذلك للحيلولة دون وصول نجدات من الجزائر الى مستغانم. كان المشروع خطيراً ، ولكن المغاربة لم يستطيعوا تنفيذه لنقص استعدادهم وأدى تغيبهم إلى كارثة نزلت بالاسبان .

اتجه دالكوديت نحو مستغانم بقوة مؤلفة من اثني عشر الف جندي مع عدد من رجال القبائل ، واصطحب معه مدفعية ممتازة ، وأربع سفن ضخمة محملة بالمؤن والذخائر .

استولت السفن الجزائرية على سفن التموين امام انظار الجيش الاسباني ، وقد ادت هذه الخسارة الاولى الى اضعاف معنوية الجيش الذي بدأ يعاني من نقص التموين . وخرج العلج علي قائد تلمسان مع حاميتها التركية وانقض على ميمنة الجيش الاسباني ليحول دون وصول المؤن إليه.

هاجم دالكوديت مازغران واستولى عليها ووصل إلى مستغانم ، ودارت معارك رهيبة ابدت فيها مستغانم مقاومة ضارية . ووصلت قوات حسن باشا في الوقت المناسب واطبقت مع قوات العلج علي على الجيش الاسباني ، وانزل الاسطول الجزائري قواته الى البر لتهاجم ميسرة الاسبان. وشارك الاسطول الجزائري بنيرانه القوات البرية ، وحاقت الهزيمة بالاسبان الذين هوجموا من كل صوب ، وقتل دالكوديت وجرح ابنه دون مارتن وأسر ، وابيد معظم الجيش الاسباني واسر الباقون . أدت هذه الهزيمة الساحقة الى امتناع الاسبان عن القيام بعمل هجومي في الغرب واكتفوا بالدفاع عن وهران التي أصبحت منطقة محاصرة .

شرع حسن باشا فور عودته الى الجزائر في انشاء قوة يستطيع الاعتماد عليها في ضبط الانكشارية والحلول محلهم عند اللزوم ولاستخدامها في الهجوم على المغرب من جهة اخرى . فانشأ قوة من العلوج ووضع على رأسها أحد اعوان والده القدامى . وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد قوة محلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضي . وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى في الاستعانة بقوة ابن القاضي لمواجهة قوة زعيم قبائلي آخر « عبد العزيز بن عباس » الذي أعلن استقلاله في بجاية . وخلال عامين شغل حسن باشا بصراع مرير مع ابن عباس ثم مع خلفه أخيه المقراني ، ولما شعر حسن باشا أنه عاجز عن القضاء على خصمه بالقوة فضل سياسة التفاهم ، وكان حسن باشا قد علم أن سلطان المغرب يستعد للاغارة على تلمسان وأن ملك اسبانية يجمع ارمادا قوية . وكانت المعلومات التي وصلت الى حسن باشا صحيحة حيث كانت قوة بحرية كبيرة تعد في موانى اسبانية وايطالية وصقلية . وكان هدف هذه القوة استعادة طرابلس وابقاء قوة بحرية فيها تعمل مع بحرية صقلية ومالطة في منع السفن العثمانية من دخول المتوسط الغربي وذلك لعزل الجزائر وجعلها مضطرة للاعتماد على قواها الخاصة في مواجهة الهجوم الاسباني - الايطالي . ولكن اعداد هذه

الحملة كان سيئاً واستغرقت عملية تجمع السفن، التي لم تجرِ وفقاً للخطة، وقتاً طويلاً . وأضاعت الحملة وقتاً ثميناً في الهجوم على جزيرة جربة، واثناء ذلك وصلت قوة بحرية عثمانية كبيرة بقيادة الأميرال بيالي باشا انضمت الى قوات طرغوت والحقت بالحملة هزيمة قاسية .

أزاحت هذه الهزيمة عن كاهل حسن باشا عبئاً ثقيلا وصار بامكانه الآن متابعة استعداداته لمهاجمة المغرب فشرع في تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوي أن يوكل اليها حراسة الجزائر اثناء غيابه لعدم ثقته بالانكشارية . أحس الانكشارية بالخطر فقاموا في صيف سنة ١٥٦١ باعتقال حسن باشا واعوانه وارسلوه مقيداً إلى استنبول . رافق حسن باشا عدد من زعماء الجند كانت مهمتهم ان يوضحوا للديوان والسلطان الأسباب التي دفعتهم الى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوي القضاء على الأوجاق والاعتماد على جيش محلي بغرض الاستقلال عن السلطان . وتولى زعماء الجند الثائرين حسن اغا وكوسا محمد علي السلطة . ولكن السلطان ارسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح أحمد باشا في اعتقال زعماء التمرد وارسلهم الى استنبول حيث اعدموا .

ولما توفي أحمد باشا سنة ١٥٦٢ اعاد السلطان حسن باشا مرة أخرى، فشرع في الحال في متابعة خططه لتحرير وهران من الاسبان، وفرض الحصار عليها وعلى المرسى الكبير سنة ١٥٦٣ . الا أن مقاومة الحامية الاسبانية أتاحت الفرصة لاسطول نجدة اسباني يقوده أمير البحر اندريه دوريا، فنجح في انقاذ المرسى الكبير واستولى على حجر باديس على ساحل المغرب الشمالي، واضطر الاتراك الى الانسحاب بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة . ولم تتح الفرصة لحسن باشا للقيام بهجوم جديد فقد تلقى أوامر السلطان بالاستعداد للاشتراك باسطوله مع الاسطول العثماني في مهاجمة جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥ . وبالرغم من أن هذا الهجوم قد فشل فقد ابلى فيه حسن باشا بلاء حسنا فعينه السلطان قبطان باشا الاسطول العثماني .

وقيل ان حسن باشا عين سنة ١٥٧١ من جديد بكلربك في الجزائر ولكنه لم يلتحق بمنصبه بسبب مرضه الذي انتهى بوفاته سنة ١٥٧٢ .

وبين ١٥٦٧ - ١٥٦٨ عين محمد باشا ابن صالح ريس بكلربك، وقد واجه لدى تسلمه السلطة مشاكل حادة فقد كان الطاعون يعصف في المدينة منذ أربعة اعوام، وكانت المجاعة تشارك الوباء الفتك بالسكان، وانتشرت اللصوصية والفوضى في ضواحي المدينة وقد تصرف محمد بحزم فأمن تموين السكان بواسطة البحر، وقضى على اللصوصية، وحل الخلاف بين الجند والطايفة بسماحه للجند بالاشتراك في العمليات البحرية كمحاربين ليحصلوا على نصيب من الغنائم، ولم يكن هذا الحل موفقاً فقد ظل رجال البحر حريصين على الانفراد بعملياتهم وسمحوا لعدد محدود من الجند بمشاركتهم، وعمل محمد على تحصين المدينة من الناحية الغربية فبنى برجين هامين . وسحق محمد ثورة قسنطينة بوحشية واعدم أو باع كعبيد كل من وقع بيده . وقيل ان هذا كان سبب عزله وتعيين العلج علي بدلاً منه .

العلج علي :

يعتبر العلج علي مع خير الدين من أعظم ممثلي السلطنة العثمانية في الجزائر . يقول برنار « ما من أحد عمل أكثر مما عمل العلج علي على توطيد السيطرة العثمانية في حوض المتوسط الغربي كله »(1) والعلج علي من كالابر، وقد عمل في البحر منذ حداثة سنه، وقد أسره قرصان جزائري واستخدمه مجدفا على سفينته . وكان أقرعاً وتعرض بسبب عاهته الى سخرية رفاقه المجدفين من الأسرى المسيحيين واهانتهم، حتى انهم كانوا يتجنبون الأكل الى جانبه ويمنعونه من الجلوس معهم . وربما كان هذا أحد العوامل التي دفعته الى اعتناق الاسلام ليتخلص من هذه المضايقات المزعجة، وان قيل أن السبب الرئيسي في تغيير دينه هو الرغبة في الانتقام من أحد الأتراك الذي اشتد في معاملته وضربه .

(1) Bernard : P. 356

لفتت مهارة العلج علي في أمور البحر نظر رؤسائه فعينوه ضابطا لاحدى السفن ، وقد لبث مدة يقوم بالقرصنة لحسابه الشخصي وبرز بصفة خاصة أثناء حصار مالطة ، وفي سنة ١٥٦٨ عين بكلربك في الجزائر .

يشير المؤرخون الغربيون الى أن الحزن كان يسيطر على العلج علي بالرغم مما بلغه من جاه وثراء ، وفسروا ذلك أنه لم يكن بسبب عاهته وانما ندما على تخليه عن دينه الأصلي ، ويستشهدون بشهادة سفير فرنسة في استنبول وكان من اصدقاء العلج علي ،ويؤكد هذا السفير ان العلج علياً كان يمارس سرا الديانة المسيحية ، كما يفسر المؤرخون تشاحنه معانكشارية الجزائر بأنهم كانوا يشكون في صدق اسلامه وانهم لذلكسعوا لدى السلطان لاستدعائه من الجزائر ، وكان العلج علي رفيقا ازاء أسرى الحرب من المسيحين ، وكان يمتنع عن عرضهم للبيع ولا يفرض عليهم اشغالا شاقة .

ولكن خدمات العلج علي البارزه في كل المجالات التي عمل فيها ، وتقدير السلطان له الذي تجلى بمنحه لقب بكلربك الجزائر وقبطان باشا وقليج (سيف السلطنة) ورفضه عروض فيلب الثاني الساعية الى كسبه الى صفه كل ذلك يدل على اخلاص العلج علي للسلطان والاسلام .

الصراع التركي الاسباني على تونس

تأثر العلج علي من فشل العثمانيين أمام مالطة ، وكان كخير الدين يحلم أن تشمل السيطرة العثمانية شمال افريقية كله . وقد سعى لتحقيق هذا الحلم وركز اهتمامه في بادىء الأمر على تونس . كانت الظروف في ذلك الوقت أفضل بكثير مما كانت عليه ايام محاولة خير الدين الأولى ضد تونس سنة ١٥٣٤ : فقد كان القرصان طرغوت ، الذي بدأ العمل في مياه تونس وطرابلس لحسابه الخاص ، ثم ربط نفسه ـ كخير الدين ـ بالدولة العثمانية ، قد نجح في الاستيلاء على طرابلس وأصبح واليا عليها سنة ١٥٥١ ،

وبدأ يتوغل في الأراضي التونسية على حساب الحفصيين . كما كان يعمل في الوقت نفسه ضد الاسبان ، ونجح سنة ١٥٦٠ بمساعدة اسطول عثماني في الحاق هزيمة بالاسبان الذين احتلوا جزيرة جربة سنة ١٥٥٩ . وهكذا اصبحت تونس محصورة بين ممتلكات العثمانيين في الجزائر وطرابلس وكأنها بين طرفي كماشة . وكان الحفصيون في غاية الضعف ،وكان الاسبان يحتلون حلق الوادي وكان أهل تونس يلاقون منهم الشدائد .

وفي سنة ١٥٦٩ سنحت للعلج علي فرصة ملائمة : فاسبانية تواجه صعوبات داخلية من جراء ثورة المسلمين في غرناطة ، وثورة هولندة، وحدث خلاف بين السلطان الحفصي ابي العباس أحمد وبين وزيره ابي الطيب الخضار ، وأحس الوزير بالخطر فاتصل بالعلج علي يحرضه على احتلال تونس ويهون عليه أمرها ، ويتعهد له بتقديم العون . وفي سنة ١٥٦٩ هاجم العلج علي تونس وهزم الحفصيين في سهل باجة ، ولم يجد صعوبة تذكر في احتلال تونس بعد أن فر السلطان ابو العباس أحمد لاجئا الى الاسبان في حلق الوادي . أخذ العلج علي من أهل تونس البيعة للسلطان العثماني ونصب عليها أحد قواده (رمضان) وابقى معه حامية عثمانية . ثم عاد الى الجزائر ليعيد تنظيم اسطوله ويهيء حملة لانتزاع حلق الوادي من الاسبان .

اثار سقوط تونس رد فعل شديد في اسبانية وايطالية ، فقد أصبح باستطاعة العثمانيين التحكم في المضيق الصقلي وتهديد ايطالية ومواصلاتها مع اسبانية . ورافق هذا الحدث الخطير هجوم العثمانيين على قبرص التابعة للبندقية ، وثورة المسلمين في الأندلس بتشجيع من الجزائر . وقد قربت هذه الأحداث بين البندقية واسبانية . وبالرغم من صعوبة الاتفاق بين الطرفين بسبب العداء التقليدي بينهما ، وبالرغم من مساعي فرنسة لمنع قيام هذا الاتفاق ، فقد نجح البابا في تذليل جميع الصعوبات ، وتحالفت الدولتان وانضم اليهما البابا وعدد من الامارات الايطالية . كان فيلب الثاني يرغب في أن يوجه هذا التحالف لاسترداد تونس ، وبالرغم من أن الحلفاء وافقوا

على العمل معا ضد العثمانيين في شمال افريقية فان البابا والبندقية أصرتا أن يبدأ الحلفاء أولا ضد العثمانيين في المتوسط الشرقي لانقاذ قبرص .

وفي سنة ١٥٧١ جرت معركة ليبانت الفاصلة (قرب خليج كورنت)، واحرز الحلفاء نصرا باهرا الا أنه جاء متأخرا وبثمن غال ، فقد منع الطقس الحلفاء من استغلال هذا النصر وسقطت قبرص بيد العثمانيين . وقد لعب العلج علي دورا بارزا في هذه المعركة . فقد انقذ (٤٠) سفينة بمناورة بارعة جريئة وحصل نتيجة لذلك على لقب قليج وعينه السلطان قبطان باشا الاسطول العثماني مع احتفاظه بمنصب بكلربك الجزائر .

انهار الحلف بعد انسحاب البندقية ، الا أن هذا لم يثن فيليب الثاني عن مشاريعه الافريقية ، فشرع في اعداد حملة كبيرة اوكل قيادتها الى أخيه الأمير دون جوان النمساوي ، وهو ابن غير شرعي لشارلكان . وكان مما شجع فيليب الثاني لجوء السلطان الحفصي اليه وطلبه مساعدته ، الا أن شروط الاسبان كانت قاسية : فقد طالبوا باقتسام المملكة بينهم وبين الحفصيين، فرفض أبو العباس الشروط وآثر الانسحاب . ولكن أخاه محمد بن الحسن قبل الشروط الاسبانية . وفي سنة ١٥٧٣ باغت دون جوان تونس واستولى عليها دون قتال يذكر وانسحب الحاكم العثماني الى القيروان . كان دون جوان يطمع في أن يحكم تونس باسم أخيه فيليب الثاني ، ولكنه اضطر امام الحاح فيليب الثاني الى مغادرة تونس واكتفى بترك حامية وحاكم اسباني يشارك السلطان الحفصي في حكم تونس .

لم يكن بامكان الدولة العثمانية أن تسكت على ضربة تونس ، وكان العلج علي قد اصبح قبطان باشا فعمل بسرعة على اعادة بناء الاسطول العثماني وتنظيمه وإزالة آثار معركة ليبانت . فاستقدم جميع الرؤساء الى استنبول ووزعهم على ورشات صناعة السفن وكلفهم بالاشراف على مدارس التدريب. ونجح بفضل ذلك خلال عامين في اعادة بناء الاسطول وقدم للسلطان مئتي سفينة حربية جيدة الصنع والتجهيز وافضل من السفن التي فقدت في ليبانت.

واهتم العلج علي بتسليح البحارة وتدريبهم على الأسلحة النارية . وقد لفت هذا النشاط البحري انظار كل المقيمين الأجانب ، وازدادت مكانة العلج علي حتى ان البابا نصح فيليب الثاني ان يسعى لاغرائه بمنحه منصباً كبيراً في اسبانية أو صقلية . وكان البابا يرى أن هذه المحاولة ان لم تنجح فانها على الأقل ستثير شكوك السلطان بالأميرال وهو الشخص الوحيد القادر على دعم امور السلطنة . ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة انها اثارت غضب العلج علي بدلاً من ان تغريه[1] .

وفي سنة ١٥٧٤ توجهت قوات عثمانية من طرابلس والجزائر والقيروان وانضمت اليها قوات عثمانية من تركية بقيادة سنان باشا والعلج علي . ونجح العلج علي في الاستيلاء على حلق الوادي بعد أن فرض عليها حصارا محكما ونجح سنان باشا في احتلال تونس . وتلا ذلك اخضاع القطر التونسي كله. واعلن سنان باشا انهاء الحكم الحفصي ونقل السلطان الحفصي الى القسطنطينية.

كان لسقوط تونس دوي هائل في اوربة ، وتوقع الجميع رد فعل اسباني اقوى ، ولكن فيليب الثاني خيب ظن الجميع، ويعود هذا الى شخصية فيليب التي تختلف عن شخصية والده شارلكان . ذلك أن فيليب الثاني لم يكن ابدا (ملكا جنديا) ولم يمارس قط قيادة جيش ولم يظهر في ساحة معركة ، كان ملكا اداريا وكان يعاني آنذاك من ضائقة مالية ، ومن مشاكل ثورية في ايطالية والبلاد المنخفضة ، ومشاكل سياسية مع انكلترة وفرنسة ، وكانت انظاره تتجه نحو عرش فرنسة وبريطانية ، وقد عوضه ضم البرتغال وامبراطوريتها الواسعة سنة ١٥٨٠ عن خسارته تونس . كل هذا يفسر انصراف فيليب الثاني عن البحر المتوسط وشمال افريقية ، ورغبته في وضع حد للصراع مع العثمانيين ، ولم يدخر وسعاً لذلك سواء بالمال أو بالوعود . ولكن العلج علي كان يقاوم ذلك وكان على الدوام يجيب « لن نصغ لأي اقتراح للسلم قبل اخلاء الأراضي الافريقية من الكفار »[2] .

(1) De Grammont : P. 110

(2) De Grammont : P. 118

لم يؤثر ابتعاد العلج علي عن الجزائر في متابعته لتطور الأحوال في شمال افريقية ، فبعد سقوط تونس بدأت انظاره تتطلع الى المغرب الذي كان حكامه السعديون يشايعون الاسبان ضد العثمانيين •

وجد العلج علي في لجوء الأميرين السعديين عبد الملك وأحمد الى الجزائر ثم الى القسطنطينية عونا على اقناع السلطان بتبني مشروعه في الاعداد لاحتلال المغرب • وكان الأميران السعديان قد نالا حظوة لدى السلطان باشتراكهما في حملة تونس وقد ساعدهما الحظ في أن يكونا أول من ابلغ السلطان نبأ هذا الظفر الكبير قبل وصول الخبر الرسمي اليه واستغلا فرحة السلطان بهذا النبأ فطلبا منه المساعدة على العودة الى المغرب وخلع ابن إخيهما المتوكل ، وقد دعمهما العلج علي ونجح في اقناع السلطان باصدار أوامره الى حاكم الجزائر رمضان[1] ليضع تحت تصرف الأميرين السعديين كل ما يلزمهما ، وتعهد الأميران السعديان بدفع تكاليف الحملة التركية ووعدا أن يكون المغرب تابعا للسلطان العثماني •

نجح عبد الملك بدخول فاس بمساعدة العثمانيين سنة ١٥٧٧ • ولكنه سرعان ما تنكر للأتراك بعد عودة الحملة التركية الى الجزائر • وبينما كان

(١) اثناء وجود العلج علي في استنبول كقبطان باشا أناب عنه في حكم الجزائر عدة خلفاء : عرب أحمد ١٥٧١ ـ ١٥٧٤ رمضان باشا ١٥٧٤ ـ ١٥٧٦ وحسن فينيزيانو ١٥٧٦ ـ ١٥٨٠ جعفر باشا ١٥٨٠ ـ ١٥٨٢ رمضان باشا (مرة ثانية) ١٥٨٢ اطاحت به ثورة الطايفة برئاسة مامي ارنوط الذي تولى حكم الجزائر ريثما أعيد حسن فينيزيانو الذي استمر بحكم الجزائر حتى موت العلج علي سنة ١٥٨٧ حين عين بدلا منه قبطان باشا • وقد عرفت هذه الفترة حالات متعاقبة من الفوضى قام بها الجند والطايفة بالاضافة الى ثورات الأهالي •

الأتراك يعدون حملة جديدة ضد المغرب فاجأهم نبأ الانتصار الصاعق الذي احرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخزن سنة ١٥٧٨ • فتخلوا عن مشروعهم • وارسل حاكم الجزائر وفد تهنئة ، وارسل السلطان العثماني وفدا مماثلا • ولكن استقبال السلطان السعدي الجديد ، المنصور للوفد العثماني كان فاتراً ، وتشاغل عنه وتأخر في الرد على السلطان• استغل العلج علي موقف المنصور فعاد الى تحريض السلطان لارسال حملة الى المغرب • وقاد العلج علي بنفسه اسطولا توجه به لهذا الغرض الى الجزائر في صيف ١٥٨٠ • ولكن المنصور السعدي الذي علم بنبأ هذه الحملة عن طريق الانكليز أرسل وفدا مغربيا لاسترضاء السلطان ونجح الوفد المغربي في تطييب خطر السلطان الذي أصدر أمرا الى العلج علي بالتوقف • فتوقف ولكنه لم يفقد امله وتابع استعداداته ، محاولاً ان يثني السلطان عن سياسة التفاهم مع السعديين • ولكن السلطان استدعى العلج علي من الجزائر سنة ١٥٨٢ • وشغلت الدولة العثمانية بعد ذلك في اوربة والبلاد العربية •

اهتم العلج علي في أواخر أيامه بالحرب في بلاد الفرس وفي المياه العربية ، واولى الصراع ضد البرتغاليين اهتماماً كبيراً • وقد لقي صعوبات كبيرة في انشاء قوة بحرية في البحر الأحمر وتزويدها بما يلزم ، وفكر بمشروع فتح قناة السويس وبدأ بتنفيذه ، وكان بامكانه انجازه لو استمر السلطان في منحه عائدات مصر التي طلبها لاتمام المشروع[1] •

وكان موت العلج علي سنة ١٥٨٧ نهاية مرحلة البكلربكوات العظام ونهاية المشاريع العظيمة العثمانية في شمال افريقية •

(1) De Grammont : P. 123

الفصل الثاني

الجزائر العثمانية

حكومة الجزائر العثمانية :

لم يكن للعثمانيين خطة عامة واحدة لادارة حكم البلاد التي خضعت لهم او دخلت في طاعتهم ، بل تأثرت سياستهم الادارية بصورة عامة بالأوضاع الداخلية التي كانت قائمة في كل بلد قبل احتلالهـا ، وبتطور الأحـداث الداخلية في البلاد بعد احتلالها ، وبالظروف التي تم فيهـا الفتح • وكان التنظيم الاداري العثماني يرتكز في البلاد المفتوحة على قبولها وجود ممثل السلطان أو نائبه (الباشا) ، وحامية تركية تكون محدودة العدد في الأحوال العادية ، ودفع الضرائب ، وجبايتها هي المهمة الاساسية للباشا والحامية • وفيما عدا ذلك تبقى السلطة العثمانية بعيدة عن الحياة العامة للبلاد المحكومة، فلم يكن للدولة العثمانية سياسة عامة مرسومة في الاقتصاد والتعليم الخ .. تحاول فرضها في كل انحاء السلطنة ، بل تترك للناس حرية التصرف في مثل هذه الشؤون ، وتترك لممثليها حرية المبادرة ليتصرفوا على نحو يسمح لهم بتأدية التزاماتهم المادية (الضرائب) والسياسية (الأمن والتبعية) ازاء الدولة • ولقد وصفت الدولة العثمانيـة بحق انهـا كانت اداة استهلاك لا اداة انتاج • فالحكم العثماني يحاول قدر الامكان التخفيف من أعباء الحكم والادارة ، واصطناع أقل ما يمكن من الأدوات • وهكذا ترك سكان البلاد المفتوحة يتابعون حياتهم المألوفة محتفظين بلغتهم وعقائدهم وقومياتهم وطرقهم في الانتاج • لهذا كان الحكم التركي ظاهريا أكثر منه حقيقياً ولاسيما في المناطق النائية حيث يتضاءل تدخل السلطة المركزية الى درجة العدم •

كانت الجزائر في اوائل القرن السادس عشر تعاني من التمزق الداخلي ومن الخطر الاسباني الخارجي ، وقد وضع عروج ، وتابع أخوه خير الدين عمله ، أسس الدولة الجزائرية الحديثة التي تقوم على القضاء على الفوضى الداخلية وتوحيد القوى الجزائرية لمجابهة ودفع الخطر الأجنبي • وبسبب ضعف امكانات الأخوة بربروسا وعجزهم عن مجابهة الفوضى الداخليـة والخطر الأجنبي بادر خير الدين الى الاستعانة بالقوة الاسلاميـة الكبيرة ، الدولة العثمانية ، لتحقيق هذين الهدفين • وهكذا دخلت الجزائر في طاعة العثمانيين بمبادرة خير الدين دون ان تكلفهم كبير مجهود • ولهذا السبب اعتبرت ولاية ممتازة ومنح خير الدين أول حاكم عثماني لها لقبا عظيما : بكلربك ، وكان بمثابة نائب عن السلطان • ولعل هذا سبب تسمية الجزائر (نيابة) •

كانت نيابة الجزائر اذن من صنع رجال البحر الذين ظلوا يتعاقبون على حكم الجزائر أكثر من نصف قرن ، وطبعوا تاريخ الجزائر العثمانيـة بطابعهم ، وظلت طيلة الحكم العثماني قوة بحرية يتركز نشاطها ومواردها الرئيسيان على البحر •

أعطى الحكم العثماني للجزائر اسمها الحديث الذي بدأت تعرف به والذي كان يقتصر على اسم المدينة التي صارت مقر الحاكم العثماني • كما أدخل العثمانيون مفهوم الحدود السياسية في شمال افريقيـة ، ورسـموا للجزائر حدودها الحالية التي لم تتغير تقريبا منذ ذلك الوقت •

مر الحكم العثماني في الجزائر بتقلبات وتغيرات عديدة لانعرف الا القليل عنها بسبب ندرة المصادر وقلة المعلومات • ومعظم هذه المعلومات القليلة التي وصلتنا يعود الى عصر الدايات ، ولا سيما الفترة المتأخرة منه • ويمكن ان نميز في تاريخ الحكم العثماني للجزائر اربع مراحل :

مرحلة البكلربكوات ١٥١٨ - ١٥٨٧

مرحلة الباشوات ١٥٨٧ - ١٦٥٩

مرحلة الأغوات ١٦٥٩ - ١٦٧١

مرحلة الدايات ١٦٧١ - ١٨٣٠

عهد البكلربكوات :

ويعاصر عهدهم عهد السلاطين العظام ، وعصر القوة العثماني ، ولهم نصيب كبير فيما بلغته الدولة من قوة في هذا العصر .

وكلمة « بكلربك » تعني بك البكوات وتعتبر برتبة (ميرميران) أي أمير الأمراء، وهو من المناصب الرفيعة في الدولة، وعندما منح السلطان خيرالدين هذا اللقب لم يكن يتمتع به سوى عدد محدود من كبار الشخصيات العثمانية. وكان هذا المنح دلالة امتياز لخير الدين وللولاية التي يحكمها كنائب للسلطان، فقد اعتبرت الجزائر ولاية ممتازة ، واعتبرت قاعدة الحكم العثماني والنشاط العثماني في شمال افريقية وفي غرب البحر المتوسط ، وأشرفت على اخضاع باقي شمال افريقية للسلطة العثمانية ، وظلت المسؤولة عن توجيهات الحكم في طرابلس وتونس حتى نهاية عصر البكلربكوات سنة ١٥٨٧ .

* كان البكلربكوات من كبار رجال البحر الذين يعود الفضل اليهم في تنظيم القوة البحرية العثمانية وفي التفوق البحري العثماني في المتوسط ، وفي ادخال الجزائر وتونس وطرابلس في دائرة الحكم العثماني .

وبالرغم من أن السلطان هو الذي كان يعين هؤلاء البكلربكوات ، فان علاقتهم به لم تكن علاقة تبعية مثل غيرهم من الولاة العثمانيين ، بل كانت ان صح القول ، علاقة تحالف : فهم الذين وضعوا او رسموا السياسة (الشمال افريقية) ، وهم الذين كانوا يخططون للعمل العثماني في غرب المتوسط وهم الذين يشرفون على تنفيذ هذه المخططات .

وقد جمع معظم البكلربكوات بين وظيفة البكلربك ومنصب قبطان باشا ، ولعله لهذا السبب ، ولأن البحر كان طريق الاتصال الوحيد بين استنبول وشمال افريقية ، كان قبطان باشا هو الذي يتولى امر الاتصال بين السلطان ونيابات الجزائر وتونس وطرابلس[1] .

وكان البكلربكوات يحكمون النيابة مباشرة أو بواسطة نوابهم(خليفة) ولم يكونوا يتقيدون كثيراً بآراء الديوان[2] الذي سيصبح فيما بعد الحاكم الفعلي للجزائر ، وكانوا يمارسون سلطتهم على باشوات طرابلس وتونس، وسلطاتهم مطلقة وكلمتهم نافذة يتصرفون (كملوك الجزائر) على حد تعبير هايدر ، وكانت سيطرة البكلربكوات على القوتين العسكريتين الأساسيتين في الجزائر ، الانكشارية (القوات البرية) وطائفة الرؤساء (القوات البحرية) قوية بصورة عامة وان لم يخل الأمر من تشويش صادر عن هذه او تلك .

---

(١) ابن ابي الضياف ج ٢ ص ٢ .

(٢) وفي هذا العصر وجد ديوانان : ديوان الباشا وكان يضم بعض الضباط كممثلين للجند وهو بمثابة هيئة استشارية فقط للبكلربكوات ، وهم الذين يقررون ، وديوان الجند وكان يهتم فقط بأمور الجند ولاسيما مسألة الترقيات وقد شاع خلط بين ديوان الباشا وديولن الجند . والحق كما يرى دوجرامون أن ديوان الجند الغى ديوان الباشا منذ اوائل القرن السابع عشر ، وكان هذا اغتصاباً وليس قاعدة . وليس هناك اية وثيقة أو كتابة تسمح بالاعتقاد أن آل بربروسا كانوا يأخذون رأي الجند في تصرفاتهم . وقد حدث اكثر من مرة أن حاول ديوان الجند أن يستولي على السلطة ولكن هذه المحاولات لم تثمر حتى عصر الباشوات ذلك لأن القباطنة الكبار الذين خلفوا خير الدين حافظوا على هذه التقاليد وعارضوا بقوة كل محاولة اغتصاب . وكان كل البكلربكوات بدون استثناء يشعرون بخطر الجند على النيابة لعدم انضباطهم وكثرة مطالبهم ، وكانوا يتوقعون ان يكونوا سبباً لفوضى دائمة ، وان غرائز السلب والعنف لديهم ستثير عداوة السكان ، وان السكان المسحوقين من الضرائب والمعاملة القاسية سيظلون في حالة ثورة دائمة ولن يكون بالامكان حكمهم الا بالعنف والارهاب . ولم تكن هذه هي غاية البكلربكوات الذين كانوا يرغبون في اقامة امبراطورية محلية . ولهذا كانوا يسعون للتخلص من هذا العنصر الخطر ليحل محله جيش يتألف من جند محليين من القبائل الموالية . ولكن هذه المحاولات كانت تثير شكوك الدولة العثمانية التي كانت تخشى ان يؤدي ذلك الى استقلال البكلربكوات .

وفي هذا العهد امتد الحكم العثماني في الجزائر الى الحدود المغربية والتونسية وتوغل الأتراك في عهد صالح ريس الى واحات ورقلة وتقرت .

كانت الأحداث في غربي البحر المتوسط تتطلب وجود شخصية قوية في الجزائر ، ومن رجال البحر بالذات . كما كانت تقتضي وجود تعاون وثيق وصادق بين السلطة ونوابها في الجزائر ، ذلك أن ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية جرى في الوقت الذي اتحدت فيه مملكة اسبانية مع الامبراطورية الجرمانية المقدسة بتاج واحد حمله ملك اسبانية باسم شارلكان ، فكان معنى هذا ارتباط موقف اسبانية بموقف الامبراطورية المعادي للدولة العثمانية . ولهذا كان على الجزائر أن تنسق عملها مع عمل الدولة العثمانية ضد العدو المشترك . وقد تأثرت علاقة الدولة العثمانية بالجزائر بتطور هذا الصراع .

بدأت نقطة التحول منذ سنة ١٥٦٥ حيث فشل الأتراك في حصار مالطة ، هذا الفشل الذي يشبهه بعض الكتاب الغربيين بمعركة فردون أو معركة ستالينجراد ، اذ سجل بداية الانطواء التركي وتراجع البحرية العثمانية كما كان مقدمة لهزيمة ليبانت الحاسمة التي وضعت حدا للتفوق البحري التركي . ومنذ أواخر السبعينات بدأت المفاوضات بين العثمانيين والاسبان لوضع حد للصراع الدائر بينهما في المتوسط . وشهدت هذه الفترة انحطاط البحرية العثمانية ، واشتغال الأتراك مع الفرس ، في الوقت الذي انشغلت فيه اسبانية في المحيط الأطلسي وغرب اوربة في صراع مع هولندة وفرنسة وانكلترة ، فقل خطرها على الجزائر . ولما مات العلج علي سنة ١٥٨٧ قدرت الدولة العثمانية أن الوقت قد حان لادخال الولايات الثلاث في شمال افريقية في اطار التنظيمات العثمانية العادية ، فألغت بكلربكوية الجزائر وحولت الولايات الثلاث الى نيابات يديرها باشا يعين لمدة ثلاث سنوات . ولم تعد الجزائر الحصن الأمامي للسلطنة العثمانية بل صارت ولاية مثل غيرها .

ويفسر مارسيل كولومب هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان

من أن يتجه البكلربكوات ، بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية ، نحو الاستقلال . ولهذا اخرج تونس وطرابلس عن نفوذهم وعين باشا موقتا بدل البكلربك الذي لم يكن لحكمه حد زمني . فيقوي بذلك تبعية الجزائر للسلطان من جهة ، ويهدىء من شكوك الانكشارية ويقلل من خوفهم من سياسة تجنيد الأهالي التي حاولها عدد من البكلربكوات . ويعتبر هذا الاجراء جزءا من سياسة عامة اتبعها العثمانيون في كل ولاياتهم . ولكن هذه السياسة لم تحل دون اضعاف العلاقة بين السلطنة والنيابة بل اسهمت في تزايد الفوضى في الولايات .

عهد الباشوات ١٥٨٧ - ١٦٥٩ :

ويعتبر هذا العهد عهد الموظفين الذين كانت استنبول ترسلهم دون أن يكون لهم أساس أو سند محلي بين القوى التي كانت تسيطر على مقدرات الجزائر ، كما كان الحال في عهد البكلربكوات الذين كانوا من رجال البحر ويعتمدون على رجال الاسطول ، كما يعتمدون على شخصياتهم القوية ومآثرهم الحربية في الداخل أو في البحر ، وعلى علاقاتهم الوثيقة بالسلطان في فترة تميزت بالجهاد ضد اعداء الدولة والاسلام . وبالرغم من هذا فان شغب الانكشارية أو الطائفة بدأ في الظهور منذ عهد البكلربكوات . وقد أثار هذا الشغب متاعب لحسن باشا وللعلج علي . وتميزت الفترة التي ابتعد فيها العلج علي عن الجزائر لتسلم منصب قبطان باشا بكثرة هذا الشغب . فلما بدأ عهد الباشوات الغريبين عن هذه البيئة المضطربة لم يلقوا من رجال الطائفة والانكشارية دعما ولا احتراما ، ذلك أن الأوجاق ورجال الطائفة ما كانوا ليقبلوا توجيهات موظفين موقتين لا سند لهم في النيابة .

وفي حين انصرف رجال الطائفة الى البحر ليمارسوا القرصنة على نطاق واسع ، ازداد تطاول الانكشارية على الباشوات والأهالي معا . وقد حاول خضر باشا ١٥٩٦ أن يتحرر من وصاية الانكشارية بمساعدة القولوغلي

الذين ابعدوا عن الحياة العامة ، وبمساعدة القبائل المستعدة للثورة على الدوام ، ولكن المحاولة ظلت دون نتيجة • واضطر الباشا أن يتقبل مشاركة الديوان (المؤلف من رؤساء الجند) له في السلطة • وكان الباشا يعلن القرارات الرسمية على النحو التالي : « نحن باشا وديوان ميليشيا الجزائر التي لاتغلب »[1] • ولكي يبقى الباشا في منصبه كان عليه أن يساير الديوان ويقر قراراته •

ان تسلط الجند على امور الباشوات خلق حالة فوضى واضطراب عمت القطر الجزائري بكامله • وقد ظهرت اثار هذا التسلط بمظاهر ثلاث :

١ ـ ثورات القولوغلي •

٢ ـ ثورات القبائل •

٣ ـ الصراع بين الجند والطائفة •

كان عدد القولوغلي في ازدياد مستمر ، وكان الأتراك يخشون ان ينضم هؤلاء الى جانب الأهالي ـ أخوالهم ـ وأن يؤدي تزايدهم المستمر وتعاونهم مع الأهالي الى انتزاع السلطة من الاتراك والحلول محلهم ،فكانوا حريصين على ابعادهم عن المناصب العامة ، مكتفين بمنحهم دوراً عسكرياً خاصاً بقيادة ضباط أتراك مع اخضاعهم لمراقبة دقيقةدائمة• ولكن القولوغلي لم يرضوا عن هذا الحرمان وكانوا على الدوام يطالبون بحقوق مماثلة للاتراك والسلاح في أيديهم معتمدين على مساعدة (البلديين) أي أهل المدينة تارة ، وعلى (البرانيين) أي القبائليين تارة أخرى ، كما كانوا يحظون بتشجيع الباشوات أحياناً ورؤساء الطائفة أحياناً أخرى ، في محاولة للتخلص من تسلط الانكشارية أو كسر شوكتهم • وفي سنة ١٥٩٦ ثار القولوغلي بتشجيع من خضر باشا وتأييد من (البلديين والبرانيين) وغرقت مدينة

(1) De Grammont : P. 125

الجزائر بالدم طيلة أشهر • وبالرغم من أن هذه الثورة لم تحقق أهدافها فانها اجبرت الجند على التخفيف من غلوائهم ازاء القولوغلي • وقد اسهم البرانيون في هذه الثورة اسهاماً كبيراً وبدأ منذ ذلك الوقت التحالف الطويل بين القبائليين والقولوغلي•ويرى دوغرامون أنه لو أظهر خضر باشا مزيداً من الجرأة والحزم لاستطاع آنذاك التخلص بضربة واحدة من فوضى الانكشارية ولاقام سلطة الباشوات على جيش وطني[1] •

وتحرك القولوغلي من جديد سنة١٦٣٣ ذلك أن الديوان ـ خوفاً من تزايد عددهم ـ قرر طردهم من مدينة الجزائر مع اعطائهم مهلة شهر لمغادرة نيابة الجزائر كلها • ولم يكن من السهل تنفيذ هذا القرار ، وتجمع المنفيون في ضواحي الجزائر وعادوا سنة ١٦٣٣ بمجموعات صغيرة متزيين بزي فلاحين يحملون اسلحتهم خفية ، وانقضوا فجأة على الانكشارية واستولوا على عدد من المراكز في المدينة ، واعلن الأهالي تأييدهم لهم•ولكن القولوغلي اختاروا وقتاً غير مناسب لثورتهم ، اذ كان الرؤساء في البحر آنذاك فحرم القولوغلي من تأييدهم القوي • وافاق الاتراك بسرعة من المفاجأة فأسرعوا باغلاق ابواب المدينة وشرعوا في مطاردة القولوغلي الذين لجأوا الى القصبة في محاولة للاستيلاء على مستودعات السلاح فيها أو لتأمين مخرج الى الأرياف وحدث اثناء ذلك انفجار مستودع بارود نسف القلعة وعدداً كبيراً من المنازل وقضى على بضعة آلاف شخص ، وفتك الجند بمعظم الثوار ولجأ الناجون الى بلاد القبائل •

ثورة بلاد القبائل :

كانت بلاد القبائل تحرص على الدوام على التمسك باستقلالها بقيادة زعمائها المحليين من آل القاضي وبني عباس • وقد سببت الكثير من المتاعب للبكلربكوات • وقد استخدم البكلربكوات القوة والدبلوماسية

(1) De Grammont : P. 140

لاخضاع هذه المناطق ، فخضعت موقتاً • وفي عهد الباشوات ظهرت أسباب اخرى أدت الى قيام ثورة في بلاد القبائل استمرت بصورة متقطعة طيلة هذا العهد • كان الباشوات يطمعون في ان يجمعوا مزيداً من الثروة في اقصر وقت ، ففرضوا على بلاد القبائل ضريبة سنوية كبيرة لم يكن الأهالي مستعدين للقبول بها • وقام الانكشارية بطرد عدد كبير من (البرانيين) من مدينة الجزائر • وقد غذى هؤلاء اثر عودتهم الى موطنهم الأصلي نار الحقد ضد الأتراك • وعندما وطد الديوان سيطرته على جهاز الحكم حل كتائب الزواوة الذين بلغ عددهم ١٥٠٠ رجل سنة ١٥٨٠ • وقد عمل هؤلاء المدربون على استخدام الأسلحة النارية على تدريب مواطنيهم على استخدام هذه الأسلحة التي كانوا يحصلون عليها عن طريق المبادلات التجارية غير المشروعة مع الأجانب وتعلم القبائليون بسرعة صنع هذه الأسلحة محلياً • وكان القبائليون يجدون على الدوام حلفاء مفيدين ضد الأتراك ولا سيما من القولوغلي ورجال الطائفة ، فقد تزوج أحد زعماء الطائفة علي بتشنين ابنة سلطان كوكو وأحاط نفسه بحرس من الزواوة ، وقد ساعده هذا التحالف على الاستيلاء على السلطة سنة ١٦٤٣ وكاد ان يؤدي ذلك الى تبديل كبير في القوة العسكرية الجزائرية ، لولا أن علي بتشنين توفى قبل ان يتاح له فرصة هذا التبديل ، وقيل انه مات مسموماً • وقد سعى الاسبان لتشجيع القبائليين آملين الاستيلاء بمساعدتهم على بعض النقاط الساحلية ، ولكن هذا التعاون لم يكن مثمراً • وقد الحق القبائليون الهزيمة اكثر من مرة بالأتراك واجتاحوا سهل المتيجة وقطعوا طرق الاتصال الرئيسية مع بيلكية المشرق وفرضوا الحصار اكثر من مرة على مدينة الجزائر • وشجعت ثورة بلاد القبائل المناطق الاخرى في شرقي الجزائر وغربيها • وهكذا عمت الفوضى خارج مدينة الجزائر كما في داخلها • وتناقصت عائدات الضرائب التي كانت تجبى من الداخل الى درجة أنه بالرغم من تضخم واردات القرصنة فان واردات سنة ١٦٣٤ لم تكن اكثر من واردات سنة ١٥٨٠ • واذا ما تعرض

(الرؤساء) لفشل يصبح الباشا عاجزاً عن دفع رواتب الجند وحينئذ يتعرض للعزل والسجن •

٢ كان تكوين الطائفة يختلف عن تكوين الجند كما كان مجال عمل كل منهما مختلفاً ، وكانت مصالحهما مختلفة من جهة ومتكاملة من جهة أخرى • كان كل منهما لازماً للآخر ولكن أياً منهما لم يكن مستعداً برضائه لقبول تسلط الفريق الآخر ولهذا كان التصادم مألوفاً بين الفريقين ولكنه كان ينتهي في كثير من الأحيان الى حل وسط يكفل للطرفين حريتهما ومصالحهما • كانت القيادة السياسية والعسكرية في عهد البكلربكوات للطائفة فقد كان حكام النيابة من رجالها وبالرغم من التفاهم التام بين البكلربكوات والسلطان فان طاعة الجند لم تكن دائمة ويبدو أن الدولة قد وجدت في ارسال باشوات من استنبول لا ينتمون لأحد الفريقين حلاً لهذا الخلاف • ولكن ظهر ان هذا الحل زاد الأمر سوءاً فقد رفض الطرفان الخضوع للباشا ، وحاول كل منهما التسلط على الباشوات •

وكان الجند هم الفريق الأقوى في المدينة لأنهم كانوا يتولون مسؤولية الأمن في المدينة وفي النيابة كلها • وكان فريق منهم على الأقل يبقى في الجزائر بينما يقوم الفريق الآخر بمهام موقتة ، مالية وعسكرية ، خارج المدينة • اما الرؤساء فكانوا منصرفين الى شؤون البحر ومضطرين للتغيب عن الجزائر في الأوقات الملائمة للنشاط البحري • ولهذا كان تأثير الجند أكبر على الشؤون الداخلية في حين كان تأثير الطائفة أشد على الشؤون الخارجية ، ولاسيما علاقات الجزائر مع اوروبة والدولة العثمانية • وكانت الطائفة تسعى لايجاد قوى داخلية توازن قوة الجند لتمنعهم من الانفراد بالسلطة اثناء انشغال الرؤساء ولهذا كانوا يؤيدون القولوغلي أحياناً والقبائل احياناً أخرى وكان للطائفة كلمة مسموعة في الديوان وخاصة فيما يتعلق بنشاطهم البحري ٢ واتيحت للطائفة سنة ١٦٤٤ فرصة الاستيلاء على السلطة • ففي ١٦٤٤ رفضت البحرية الجزائرية الاسهام مع البحرية العثمانية في

مهاجمة جزيرة مالطة وذلك بسبب خلاف نشأ سنة ١٦٣٨ اثناء الحرب مع البندقية ، أرسل السلطان مبعوثين الى الجزائر مكلفين باعدام علي بتشنين ابرز زعماء الطائفة واربعة من الرؤساء البارزين ، وما أن وصل المبعوثون الى الجزائر وكشف امر مهمتهم حتى ثارت الطائفة بقيادة علي بتشنين واستولوا على السلطة ، لم يدعم الجند الباشا المعزول ولكنهم طالبوا علي بتشنين باعتباره حل محل الباشا أن يدفع لهم مرتباتهم ولما كان علي بتشنين عاجزاً عن ارضاء مطالب الجند ولم تكن لديه القوة الكافية لاخضاعهم فقد غادر الجزائر سراً الى بلاد القبائل ، وكان يرتبط مع سلطان كوكو برباط المصاهرة، ونجح علي بتشنين في العودة الى الجزائر على رأس جيش من بلاد القبائل ، وبسبب حاجة السلطان الى البحرية الجزائرية سعى الى استرضاء علي بتشنين بالمال ولكن لم يمنحه لقب الباشا وعين باشا جديداً ، وبعد وصول هذا الباشا توفي علي بتشنين فجأة وقيل انه مات مسموماً واقيمت له جنازة رسمية ملكية وحل أخوه رمضان محله في زعامة الطائفة[1] .

كان الباشا يعين لمدة ثلاث سنوات ولكن من النادر أن يكمل مدته ، وقد تعاقب على الجزائر خلال هذه المدة أكثر من اربعين باشا تجدد تعيين بعضهم أكثر من مرة ، وتعرض الكثير منهم للعزل والسجن على يد الأوجاق ، وكان عهد معظمهم قصيرا ، فقد استمر حكم يوسف باشا سنة ١٦٤٠ اربعين يوما ثم اعيد للمرة الثانية في العام نفسه ، ثم عزل وسجن سنة ١٦٤٢ بسبب تأخره عن دفع رواتب الجند ثم عاد للمرة الثالثة سنة ١٦٤٧ وبين ١٦٥٥ - ١٦٥٩ تعاقب على الحكم أكثر من مرة كل من أحمد باشا وابراهيم باشا ، وكانت هذه الفترة مليئة بالاضطراب والفوضى مما دفع الأوجاق الى انهاء حكم الباشوات .

كان باشوات الجزائر مثل غيرهم من الباشوات العثمانيين يشترون

(1) De Grammont : P. 192 - 193 - 194

مناصبهم بالمال ، ولهذا كان همهم الوحيد جمع الثروة ، وكانت واجبات الباشا والتزاماته تسمح له بأن يقوم بأوسع عمليات النهب ، فمهمته الأساسية جمع الضرائب التي تسمح له بدفع رواتب الجند وتجهيزهم ، وهي النفقة الالزامية الوحيدة « ... ذلك لأن الاشغال العامة والتعليم ورواتب الموظفين كلها لم تكن تعتبر من واجبات الدولة ... »[1]، وقد استغل الباشوات هذه الوظيفة المالية كما استغلها اعوانهم ، حكام الاقاليم ، الذين يساعدونهم في هذه الوظيفة ، فكانوا يتلاعبون أو يتأخرون في دفع رواتب الجند ويفرضون دفع مبلغ محدد على العلماء وعلى عدول المحكمة وغيرهم من الأعيان ، ولما كان الباشوات يتعاقبون على السلطة بكثرة وفي فترات متقاربة فقد ارهقوا سكان الجزائر بجشعهم ونهبهم ولعل هذا كان سبب تجريدهم من كل سلطة عام ١٦٥٩ .

منذ هذا العهد أدارت الجزائر ظهرها لاستنبول وصار لها سياسة خاصة لم تكن على الدوام مطابقة لسياسة الدولة العثمانية وكان هذا ناجماً عن تسلط ديوان الجند على الباشوات وبسبب تمرد البحرية الجزائرية على أوامر السلطان ورغبتها في اتباع سياسة مستقلة ، كان الديوان يعقد جلسة اسبوعية خاصة لبحث الأمور الخارجية ، وهو الذي يبت في أمور الحرب والسلم والمحالفات والمعاهدات ، وكان قليل الاكتراث فيما اذا كانت ملائمة لسياسة الدولة العثمانية ام لا ، وكان هذا بمثابة عصيان مكشوف ، وعبثاً كان السلطان يرسل مبعوثين لتسوية هذا الأمر فقد كان هؤلاء المبعوثون يتعرضون للمعاملة السيئة المهينة ، ولم يكن بالامكان معاقبة المسيئين لان هذا قد يؤدي الى ثورة .

وفي سنة ١٦٣٨ ، اصيبت علاقة الجزائر بالدولة العثمانية ، كانت الدولة العثمانية في حالة حرب مع البندقية وطلبت مساعدة البحرية الجزائرية ، وتعرضت البحرية الجزائرية في الأرخبيل لعاصفة اجبرتها على

(1) Ch. A. Julien : Histoire de l'Algerie Contemporaine

المجوه الى تولون في الأرخبيل . استغل البنادقة الفرصة فهاجموا السفن الجزائرية والحقوا بها خسائر فادحة كان لها أثر كبير في اضعاف البحرية الجزائرية . وحدث ان السلطان العثماني قبل التفاهم مع البنادقة مما أثار سخط الجزائريين الذين قرروا عدم الأشتراك مع العثمانيين في الاعمال البحرية .

وفي سنة ١٦٤٤ عندما قرر السلطان مهاجمة جزيرة مالطة طلب اسهام البحرية الجزائرية فرفض الجزائريون وشاركهم موقفهم هذا التونسيون والطرابلسيون مما أدى الى فشل الهجوم . ويبدو أن السلطان اشترى رضاء البحرية الجزائرية بتخصيص مبلغ سنوي مقابل اشتراكهم في العمليات القادمة .

عهد الأغوات ١٦٥٩ - ١٦٧١ :

يعتبر هذا العهد عهد تسلط الجيش على الحكم ، ويمثل أحلك فترة في تاريخ الحكم العثماني في الجزائر وفي تاريخ الجزائر . ويعود السبب في قيام حكم الأغوات الى سياسة الباشوات المالية ، فقد اتهم الجند ابراهيم باشا بنهب المعاشات والضرائب . وكان السبب المباشر في تجريد الباشا من سلطاته هو محاولة ابراهيم باشا أن يستوفي العشر على المنح التي كان السلطان يرسلها لمساعدة الأسطول الجزائري ، مما أثار رد فعل شديد دفع الديوان الى اتخاذ قرار بالغاء امتيازات الباشا ، وهي : دفع المعاشات ، تعيين القواد ، ممارسة القضاء على أهل البلد . ولم يترك للباشا سوى اللقب الشرفي . وأخذ الأغوات منذ سنة ١٦٥٩ يمارسون السلطة التنفيذية .

ومن الغريب أن هذه الثورة التي قامت للدفاع عن حقوق الطائفة انتهت لصالح الجند حتى سنة ١٦٧١ . ويبدو أن تجريد الباشا من سلطاته لم يحدث دفعة واحدة ففي بادىء الأمر جرد الباشا من مهمة جباية الضرائب ودفع الرواتب ، وكلف بها خليل بلوكباشي وظل الباشا يرأس حكومة

الجزائر والمناطق التابعة لها في حين تمتع خليل بلوكباشي بكل امتيازات السلطة . ولكن في عهد علي أغا ١٦٦٥ - ١٦٧١ جرد الباشا من كل سلطاته بما فيها حكومة مدينة الجزائر . ومنذ ذلك الوقت ظل الجمع بين وظيفة الحاكم ودفع رواتب الجند ساريا ، وكان علي أغا أول من حمل لقب حاكم لأنه كان يتمتع بالسلطة دون أية مشاركة . وكانت أوامره اوامر حاكم ، ويقيم حيث يقيم حكام الجزائر . وقد جمع حوله كل الأجهزة والموظفين الذين كانوا حول الباشا من قبل . ويشيد مؤرخ جزائري من كتاب القرن الثامن عشر بحكم علي أغا « ... الذي اتخذ قرارات حكيمة فأثرى التجار وعاش الجميع بالرفاه ... » وعني علي أغا بأمر السفن اللازمة للقرصنة وكثر بناء البيوت الجميلة وشيدت القصور الضخمة وسط البساتين وازدهرت الزراعة وقامت صناعات جديدة[1] .

ولكن نظام الأغوات كان ينطوي على نقاط ضعف خطيرة . فقد كان الجند يتخبون كل شهرين أغا جديدا بحسب الأقدمية وعلى الأغا أن يخضع لهذا التغيير . فاذا رغب في الاحتفاظ بالسلطة تعرض لثورة الجند والقتل كما حدث للبلوكباشي خليل مما أدى الى ضعف السلطة والفوضى الكاملة . واصبح القتل الاجراء الوحيد لتبديل الأغوات . وقد قتل الأغوات الأربع الذين تعاقبوا على السلطة بين ١٦٥٩ - ١٦٧١ .

خيل للمقيمين الأجانب أن استلام الجيش السلطة سيجلب لهم الأمن وان القرصنة ستلقى ضربة مميتة وكانت الدلائل الاولى تشير الى شيء من هذا . فقد استمع الديوان الى شكاوى التجار الأجانب ومطالبهم ومنحهم تسهيلات عديدة (تعرفة جمركية جديدة ، انقاص الرسوم) ويبدو أن الأغوات كانوا يميلون الى تشجيع التجارة في موانىء القطر ولكن عوامل عديدة تدخلت لوقف السير في هذا الاتجاه :

(1) Delplin : Journal Asiatique 1922 P. 162 - 233

١ ـ لم يكن بامكان الأغوات وقف نشاط القرصنة الجزائرية لعجزهم عن فرض سيطرتهم على الطائفة القوية من جهة ولأن القرصنة كانت ضرورية لوجود الأوجاق، ولأن موارد القرصنة كانت ضرورية لحكومة كالحكومة التركية في الجزائر لها جيش كبير وليس لها تجارة أو صناعة أو زراعة لأسباب تتعلق بطبيعة هذه الحكومة وبمفهومها عن الحكم، وبسبب عجزها عن تحقيق السيطرة الكاملة على النيابة وتوفيرها الوسائل اللازمة للتنمية .

٢ ـ لأن الدول الاوربية نفسها لم تساعد هذه السياسة الجديدة، فقد كانت السفن الأوربية عامة والفرنسية خاصة (لأن علاقات فرنسة التجارية مع الجزائر كانت أقدم وأوسع، ولأن الأغوات ابدوا استعدادات طيبة ازاء فرنسة بصورة خاصة) ما فتئت تهاجم السفن الجزائرية في عرض البحر بدون سابق انذار سواء كان هناك معاهدات صلح مع الجزائر أولا، ولأن التجار الاجانب لم يكونوا مستعدين للالتزام بتعليمات الحكومة الجزائرية والقيود التي كانت تفرضها على أنواع من التجارة بسبب حاجات البلاد واوضاعها الداخلية . وكانت هذه الاعتداءات والمخالفات تسبب الكثير من المشاكل لحكام الجزائر، وتضعف من موقفهم الداخلي ازاء الطائفة والجيش والأهالي .

٣ ـ لأن الأغوات كانوا عاجزين عن توفير الاستقرار الداخلي وكانوا عرضة في كل حين لمجابهة تمرد الطائفة او الجند أو القبائل، فقد دفع البلوكباشي حياته ثمناً لرغبته بالاحتفاظ بمنصبه بعد انقضاء مدته مخالفاً بذلك تقاليد الاوجاق، وقتل خلفه رمضان سنة ١٦٦١ بالرغم من نجاحه في التفاهم مع الجند على تمديد فترة حكمه وذلك لأنه رغب في ان يستأثر بجانب كبير من الغنائم . وقتل شعبان أغا سنة ١٦٦٥ الذي تميز عهده بكوارث طبيعية (زلازل وطاعون) وتعرض البحرية والمواني الجزائرية للهجمات الأوربية التي كان اخطرها نزول الفرنسيين في جيجل سنة ١٦٦٤ مما أزال كل مبرر لبقائه مدة أطول . وقتل علي أغا سنة ١٦٧١ بالرغم من سياسته الحكيمة

بسبب ما أبداه من تساهل ازاء فرنسة تجاوز حدود المعاهدات والتسهيلات التجارية الى معاقبة عدد من زعماء الطائفة بالاعدام علناً وبحضور ممثل فرنسة الذي تقدم بشكايات ضدهم بالرغم من ان الفرنسيين استمروا في مهاجمة السفن الجزائرية وتهريب الأسرى من الجزائر . وقد بلغ الضيق أشده بالطائفة حين تعرضت السواحل الجزائرية لهجمات البحرية الانكليزية التي ألحقت أضراراً كبيرة بالسفن والمواني الجزائرية . وقد حملت الطائفة علي أغا مسؤولية هذه الاضرار واتهمته أنه لا يهتم بأمور البحر كما اتهمه الجند بتكديس ثروته الشخصية .

وتلا مقتل علي غا انتشار الفوضى الكاملة في الجزائر . فخلال ثلاثة أيام عين الجند خمسة او ستة اغوات، ولكن هؤلاء امتنعوا عن قبول هذا المنصب الخطير . وسارعت الطائفة التي كانت تترقب الفرصة السانحة لانتزاع السلطة من الجيش فأنهت عهد الأغوات وفرضت احد زعمائها سنة ١٦٧١ حاكماً للجزائر لتبدأ بذلك عهداً جديداً هو عهد الدايات .

عهد الدايات سنة ١٦٧١ ـ ١٨٣٠ :

الداي كلمة تركية تعني (خال) ولكنها فيما يبدو لم تستخدم للدلالة على عمل وظيفي الا في الجزائر وتونس . وكانت في بادىء الأمر لقبا شرفيا مثل كلمة أب عند الأتراك القدامى يتطلب الحصول عليه اثبات جدارة في البحر والحرب في المتوسط ثم استخدم هذا اللقب الشرفي لوظيفة عسكرية في الجيش الانكشاري في الجزائر وتونس، ويشير ابن ابي الضياف الى أن سنان باشا نظم الانكشارية في تونس «.... وجعل على كل مئة منهم أميرا يسمى (الداي) لقب مشعر بالتعظيم ....»[1] وقد بدأ الدايات في تونس يمارسون السلطة منذ سنة ١٥٩١ . أما في الجزائر فقد تسلم الدايات السلطة منذ سنة ١٦٧١ عندما حلت سلطة زعماء الطائفة محل الأغوات وقد أطلق على

(١) ابن ابي الضياف : ج ٢ ص ١٧ .

أول داي من الرؤساء وهو حسين ريس الطريقي لقب « دولتلي » وسمي خلفه بابا حسن « الحاكم » و « دولتلي » وبالرغم من أن حج حسين ميزومورتو قد جمع بين وظيفتي الداي والباشا فان هذا الجمع لم يتم بصفة نهائية الا في عهد الداي علي ١٧١٠ - ١٧١٨ • رأى الداي علي الذي استلم منصبه بعد فترة اضطرابات دامية ان الباشوات الذين كانت استنبول ترسلهم كانوا - بالرغم من كونهم مجردين من أية سلطة - سبباً دائماً للاضطرابات سواء بسبب تآمرهم المستمر لاسترجاع سلطتهم أو لأن مثيري الاضطرابات كانوا يستخدمونهم كستار • وفي سنة ١٧١١ رفض الداي علي السماح للباشا الجديد بدخول الجزائر وارسل سفارة الى استنبول عرضت على الحكومة العثمانية المصاعب الحادة الناجمة عن تعدد السلطات ونجحت حجج السفارة وهداياها في اقناع المسؤولين العثمانيين ، وتقرر جمع وظيفتي الباشا والداي لشخص واحد[1] • وقد حاولت الدولة أن ترسل باشا من استانبول في عهد الداي عدي باشا ١٧٢٤ - ١٧٣٤ ولكنه رد على نفس السفينة التي وصل عليها سنة ١٧٢٩[2] • استمر انتخاب الدايات من قبل الطائفة حتى سنة ١٦٨٩ • كان الدايات الأربع الذين حكموا بين ١٦٧١ - ١٦٨٩ من زعماء الطائفة وقد عملوا على تقليص نفوذ الديوان ولم يدعوه للانعقاد الا محافظة على الشكل ، ولم يكونوا يتقيدون بقراراته الا حينما تكون هذه القرارات مفيدة لهم • وفي عهدهم نشطت البحرية الجزائرية مما أدى الى قيام عمليات انتقامية اوربية ولا سيما فرنسية قاسية سنة ١٦٨٢ - ١٦٨٣ وسنة ١٦٨٨ وقد الحقت هذه العمليات اضراراً كبيرة في البحرية الجزائرية وفي مدينة الجزائر ، واضعفت الطائفة وقللت رصيدها بين السكان مما سمح للجند باستعادة مركزهم سنة ١٦٨٩ • الا أن الأوجاق لم يعد كما كان متحداً متماسكاً ، فقد قل عدده وصارت عملية التجنيد اكثر صعوبة وانحط مستوى

(1) De Grammont : P. 276

(2) Delplin : Journal Asiatique 1922 P. 162 - 233

المجندين الاجتماعي ، اذ اقتصر التجنيد تقريباً على قطاع الطرق في موانئ آسية الصغرى والمعدمين في اريافها • وصار هؤلاء أقل اهتماماً بالمحافظة على الامتيازات السياسية وبادلوا عليها بارادتهم مقابل زيادة الرواتب والعطايا التي يهيؤها لهم مجيء حاكم جديد وكان هذا مدعاة للتآمر والثورات لتبديل الحكام ، لأنه مناسبة لمكسب جديد • ومنذ ذلك الحين صار من العبث أن يحاول الدايات حماية اشخاصهم بحصانة قفطان الباشا الذين كانوا يدفعون ثمنه للباب العالي وأصبحت حياتهم تحت رحمة مزاج الجند المتقلب والوحشي وكان هذا كما يقول دوجرامون تغيراً في الطباع وذلك أنه حتى الآن وبفضل نوع من الاحترام الديني كان التعيين الذي يمنحه السلطان يحفظ حياة اولئك الذين يعتبرون كممثلين لشخصه المقدس[1] • ففي الماضي قتل باشا واحد من بين ٣٠ باشا حكموا من ١٥١٨ - ١٦٥٩ في حين ان كل الأغوات قتلوا وكذلك اكثر من نصف الدايات •

وظل الديوان من الناحية النظرية ينتخب الدايات ولكن الأمور كانت في الواقع تجري على نحو آخر • فعندما يتنازل الداي بارادته أو حين يموت موتاً طبيعياً - وهذا نادر - فان خلفه المعين سلفاً يتخذ الاحتياطات اللازمة ويتم التغيير دون معارضة • ولكن عندما يسقط الحاكم بواسطة التمرد يعلن المتمردون من يختارونه من بينهم ويصاحب ذلك معارك رهيبة • وكان السكان يراقبون هذه الأحداث بقلق وخوف وتقفر الشوارع وتغلق الأبواب وتقام المتاريس حولها ذلك لأن الجند يستغلون فترة الفوضى هذه فينتشرون في الشوارع وينصرفون الى النهب • وعندما يتسلم الداي الجديد الحكم يطلق اعوانه في المدينة لتهدئة الحالة • وليس هناك شروط ينبغي توافرها فيمن ينصب داياً • وكانت الطائفة تختار الدايات من زعمائها ، في حين كان الجند يختارونهم حسب الظروف ، وان كان اغلب الدايات من كبار

(1) De Grammont : P. 227

أول داي من الرؤساء وهو حسين ريس الطربقي لقب « دولتلي » وسمي خلفه بابا حسن « الحاكم » و « دولتلي » وبالرغم من أن حج حسين ميزومورتو قد جمع بين وظيفتي الداي والباشا فان هذا الجمع لم يتم بصفة نهائية الا في عهد الداي علي ١٧١٠ - ١٧١٨ م رأى الداي علي الذي استلم منصبه بعد فترة اضطرابات دامية أن البشوات الذين كانت استنبول ترسلهم كانوا - بالرغم من كونهم مجردين من أية سلطة - سبباً دائماً للاضطرابات سواء بسبب تآمرهم المستمر لاسترجاع سلطتهم أو لأن مثيري الاضطرابات كانوا يستخدمونهم كستار . وفي سنة ١٧١١ رفض الداي علي السماح للباشا الجديد بدخول الجزائر وارسل سفارة الى استنبول عرضت على الحكومة العثمانية المصاعب الحادة الناجمة عن تعدد السلطات ونجحت حجج السفارة وهداياها في اقناع المسؤولين العثمانيين ، وتقرر جمع وظيفتي الباشا والداي لشخص واحد[1] . وقد حاولت الدولة أن ترسل باشا من استانبول في عهد الداي عبدي باشا ١٧٢٤ - ١٧٣٤ ولكنه رد على نفس السفينة التي وصل عليها سنة ١٧٢٩[2] . استمر انتخاب الدايات من قبل الطائفة حتى سنة ١٦٨٩ . كان الدايات الأربع الذين حكموا بين ١٦٧١ - ١٦٨٩ من زعماء الطائفة وقد عملوا على تقليص نفوذ الديوان ولم يدعوه للانعقاد الا محافظة على الشكل ، ولم يكونوا يتقيدون بقراراته الا حينما تكون هذه القرارات مفيدة لهم . وفي عهدهم نشطت البحرية الجزائرية مما أدى الى قيام عمليات انتقامية اوربية ولا سيما فرنسية قاسية سنة ١٦٨٢ - ١٦٨٣ وسنة ١٦٨٨ وقد الحقت هذه العمليات اضراراً كبيرة في البحرية الجزائرية وفي مدينة الجزائر ، واضعفت الطائفة وقللت رصيدها بين السكان مما سمح للجند باستعادة مركزهم سنة ١٦٨٩ . الا أن الأوجاق لم يعد كما كان متحداً متماسكاً ، فقد قل عدده وصارت عملية التجنيد اكثر صعوبة وانحط مستوى

(1) De Grammont : P. 276

(2) Delplin : Journal Asiatique 1922 P. 162 - 233

المجندين الاجتماعي ، اذ اقتصر التجنيد تقريباً على قطاع الطرق في موانئ آسية الصغرى والمعدمين في اريافها . وصار هؤلاء أقل اهتماماً بالمحافظة على الامتيازات السياسية وبادلوا عليها بارادتهم مقابل زيادة الرواتب والعطايا التي يهبها لهم مجيء حاكم جديد وكان هذا مدعاة للتآمر والثورات لتبديل الحكام ، لأنه مناسبة لمكسب جديد . ومنذ ذلك الحين صار من العبث أن يحاول الدايات حماية اشخاصهم بحصانة قفطان الباشا الذين كانوا يدفعون ثمنه للباب العالي وأصبحت حياتهم تحت رحمة مزاج الجند المتقلب والوحشي وكان هذا كما يقول دوجرامون تغيراً في الطباع وذلك أنه حتى الآن وبفضل نوع من الاحترام الديني كان التعيين الذي يمنحه السلطان يحفظ حياة اولئك الذين يعتبرون كممثلين لشخصه المقدس[1] . ففي الماضي قتل باشا واحد من بين ٣٠ باشا حكموا من ١٥١٨ - ١٦٥٩ في حين ان كل الأغوات قتلوا وكذلك اكثر من نصف الدايات .

وظل الديوان من الناحية النظرية ينتخب الدايات ولكن الأمور كانت في الواقع تجري على نحو آخر . فعندما يتنازل الداي بارادته أو حين يموت موتاً طبيعياً - وهذا نادر - فان خلفه المعين سلفاً يتخذ الاحتياطات اللازمة ويتم التغيير دون معارضة . ولكن عندما يسقط الحاكم بواسطة التمرد يعلن المتمردون من يختارونه من بينهم ويصاحب ذلك معارك رهيبة . وكان السكان يراقبون هذه الأحداث بقلق وخوف وتقفر الشوارع وتغلق الأبواب وتقام المتاريس حولها ذلك لأن الجند يستغلون فترة الفوضى هذه فينتشرون في الشوارع وينصرفون الى النهب . وعندما يتسلم الداي الجديد الحكم يطلق اعوانه في المدينة لتهدئة الحالة . وليس هناك شروط ينبغي توافرها فيمن ينصب داياً . وكانت الطائفة تختار الدايات من زعمائها ، في حين كان الجند يختارونهم حسب الظروف ، وان كان اغلب الدايات من كبار

(1) De Grammont : P. 227

ا موظفي الدولة كالبكوات (وهذا نادر) والأغوات ، ومن كانوا بمثابة
وزراء كخوجة الخيل والخزنجي .

ويسجل حلول الدايات المنتخبين محليا محل الباشوات الذين كان
السلطان يرسلهم من استنبول ضعف الصلات بين الجزائر واستنبول وإن
لم يلغها ، ذلك أن الدايات لم يتنكروا لسيادة السلطان ما دامت السيادة اسمية
لاتقيد حريتهم في التصرف . فقد كان الأمر يقتصر على أن يرسل سفيرا
يبلغ السلطان انتخابه لهذا المنصب ، ويتلقى منه قفطان الشرف وفرماناً بتسميته
باشا . كما كان الدايات يرسلون وفود تهنئة لدى تولي سلطان جديد ،
والسلاطين يقبلون بالأمر الواقع ماداموا لايملكون القوة اللازمة لفرض
كلمتهم . وعلى أي حال كانت الجزائر تشترك في حروب الدولة العثمانية
فترسل قوة بحرية الى شرقي البحر المتوسط تنضم الى الاسطول العثماني
كما حدث في الحرب الروسية التركية سنة ١٧٦٨ - ١٧٧٤ ، وكما حدث
في معركة نافارين سنة ١٨٢٧ ، أو تقطع علاقاتها مع اعداء الدولة العثمانية ،
كما حدث اثناء حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ . وكانت الجزائر تتلقى
من تركية جنودا انكشاريين كان الدايات بحاجة اليهم للمحافظة على سلطتهم
كما كان السلاطين يرسلون معونات مالية لتقوية البحرية الجزائرية .

كانت سلطة الداي مطلقة ، وان كانت - نظريا - مقيدة بالديوان ، فهو
الذي يبت في مسائل الحرب والصلح ، وهو الذي يختار وزراءه بنفسه ،
وكانت الوزارة تتألف على النحو التالي : الخزنجي وهو المكلف بالشؤون
الداخلية والمالية ، ويسير مباشرة بعد الداي ويخلفه في حال غيابه أو مرضه .
ووكيل الخرج ويشرف على البحرية ودور صناعة السفن والموانى
والمجدفين ، وكان بحكم وظيفته يتلقى الكثير من الهدايا من القناصل والتجار ،
وخوجة الخيل وهو بمثابة مدير املاك الدولة ، والبيت مالجي وهو
مسؤول عن تسجيل العقود والمواريث التي بدون وريث ، ولم يكن يسمح

بدفن اي انسان دون موافقته منعاً للتلاعب . والأغا وهو قائد الجيش والشيخ
الاسلام وهو بمثابة وزير العدل والشؤون الدينية ، والباشكاتب وهو بمثابة
امين عام . ويتألف من هؤلاء مجلس الداي الخاص وان كان الدايات
يتجنبون جمعهم ، وفي أغلب الأحيان كانوا يتجنبون لقاءهم مفضلين الاتصال
بهم بواسطة ترجمان القصر . ويقيم الداي في قصر الجنينة ، وهو قصر
الشتاء الحالي وقد اتخذته الحكومة الوطنية بعد الاستقلال مقرا لوزارة
الأوقاف بعض الوقت . وفي سنة ١٨١٦ نقل الداي علي خوجه مقره الى
قلعة القصبة في أعلى المدينة ليتقي خطر الجند . ويتقاضى الداي مبدئيا راتب
اكبر رتبة في الأوجاق ، وله في الوقت نفسه موارد اضافية ، كالرسوم التي
يتقاضاها على تعيين الموظفين ولا سيما البكوات ، وهدايا القناصل ورؤساء الدول ،
وكان له حصة من اسلاب القراصنة ، ويحصل على مرابح من بعض الأعمال
التي كان يسهم فيها . وكانت ثروة الداي تؤول بعد مقتله الى خزينة الدولة .

وبالرغم مما كان الداي يتمتع به من قوة وسلطة فانه كان يعيش في
ظل خطر الموت من جراء قيام فتنة عسكرية ، ويخضع في حياته لبروتوكول
خاص . فقد كان منذ انتخابه ينفصل عن أهله ، ويحظر عليه أن يحيا حياة
عائلية في منزله الخاص سوى ليلة واحدة في الأسبوع . ولأن حياة الدايات
كانت على الدوام عرضة للخطر كانوا يتصفون بالشك والحذر والقسوة مع
خصومهم ومنافسيهم أو مع من كانوا يتوجسون منهم شرا . وقد وصف
الكاتب الاسباني جوان كانو الداي انه « ... رجل غني ولكنه ليس سيد
خزينته ، اب بدون اطفال ، زوج بدون امرأة ، طاغية بدون حرية ، ملك
العبيد ، عبد أتباعه ... » .

ادارة الجزائر :

كانت الجزائر مقسمة الى اربع بيلكيات (ولايات) وعلى
رأس كل بيلكية باي يعينه الداي ، وغالباً ما كان اختياره يقع

على من يدفع أكثر . وكانت مهمة الباي الأساسية جباية الضرائب ويعتمد في ذلك على جند من الأوجاق ومن قبائل المخزن . وبالرغم من أن البايات كانوا حكاما مطلقين في بيلكياتهم ، الا أنهم كانوا تحت رقابة الداي الدائمــة . وكانوا عرضة للعزل أو القتل عند ظهور اول بادرة طموح . وكان عليهم أن يدفعوا كل عام مبلغا كبيرا من المال يحدد في مدينة الجزائر . وكانت هذه الأموال تدفع على عدة دفعات أو يدفعها الباي بواسطة وكيله الذي يحضر الى الجزائر مرتين في العام - في الربيع والخريف - أو بواسطة موظف آخر اسمه وكيل السباهية ، كن عليه أن يحضر الى الجزائر كل شهر أو شهرين أو ثلاثة أشهر . وكان على الباي أن يحضر بنفسه الى العاصمة في الربيع الذي يلي تعيينه ، ثم مرة كل ثلاثة أعوام . وكان الغرض من ذلك أن يمارس الداي على البايات رقابة مستمرة ودقيقة. وكان حضور الباي الى العاصمة مغامرة خطرة فقد كان عليه أن يدفع مبلغا كبيرا من المال أو أن يتخلى عن وظيفته أو عن حياته أحيانا . وبين ١٧٩٠ - ١٨٢٥ عزل ٨ بكوات واعدم ستة عشر .

اما بيكليات الجزائر ، فهي :

١ - الجزائـر وكانت تسمى دار السـلطان ، وتشمل مدينــة الجزائر وضواحيها وسهل المتيجة ، وترتبط بالداي مباشرة ويديرها بواسطة آغا السباهية (أو الصباحية كما يسميهم ابن ابي الضياف) ، وترك لمدينة الجزائر تنظيم خاص تحت رقابة الخزنجي. وكن لكل مجموعة عرقية ، ما عدا أهل بلاد القبائل ، ولكن مهنة رئيس « أمين » يشـرف على مجموعة ، ويتبع هؤلاء الأمناء عمدة المدينة (شيخ البلد) .

٢ - بيلكية الغرب وقد تبدلت عاصمتها أكثر من مرة ، فنقلت من مازونه الى معسكر سنة ١٧١٠ ثم الى وهران سنة ١٧٩٢ بعد تحريرها من الاسبان وكانت تمتد حتى حدود المغرب .

٣ - بيلكية الشرق ومقرها قسنطينة وتمتد حتى حدود تونس .

٤ - بيلكية تيطري وكانت أصغر البيلكيات ، ومقرها المدية . وكان حاكمها أقل استقلالا وأكثر خطرا من بايات وهران وقسنطينة بسبب قربها من العاصمة . وكان الداي يراقب باي تيطري عن كثب . ولاضعاف هذا الباي وتقليل خطره سحبت منه ادارة مدينة المدية واوكل أمرها الى رئيس يعينه الأغا . مما أوجد تعقيدا في ادارة هذه البيلكية .

وتقسم البيلكية الى عدة أوطان ، تشمل بصورة عامة عدة قبـائل أو دواير (جمع دوار) على رأسها قواد يعينهم البك ، وكان معظمهم من الأتراك ويزودون بسلطات مدنية وعسكرية وقضائية . وكان القائد بدوره يعين الشيوخ المكلفين بادارة القبيلة أو أحد بطونها أو الدوار . ويختارهم بصورة عامة من اعيان القبيلة . ويرافق هذه التعيينات هدايا يحددها العرف بصورة عامة وكان طبيعياً أن يسترد من اشترى وظيفته ما دفع من جيوب الفلاحين . ويصدف في بعض المناطق أن يتكون الوطن من قبيلة قوية واحدة وفي هذه الحالة يمنح الباي ادارتها لواحد من المتنفذين يتأكد من ولائه .

لم تكن سلطة الأتراك تشمل في الواقع كل القبائل في الجزائر . فهناك قبائل قوية ، أو اتحاد قبائل ، على رأسها أسر متنفذة بقيت تحتفظ بقدر كبير من الاستقلال الذاتي . وهناك مجموعات قبلية يحميها بعدها في الأنجاد أو في مناطق الجنوب أو في الجبال الوعرة كانت في أغلب الأحيان مستقلة . كما كان هناك اتحادات قبليـة على أساس ديني كأولاد سيدي الشيخ . وبصورة عامة لم تكن السلطة التركية الفعلية تشمل سوى ١/٦ الجزائر في حين ظلت سلطتهم في مناطق القبائل رجراجة . وكي يتقي الأتراك خطر هذه القبائل كانوا يتبعون معها سياسة فرق تسد فيثيرون المنافسات بينها . واصطنع الأتراك بعض القبائل عرفت باسم قبـائل المخـزن ، اعفوها من الضرائب واطلقوا يدها في اضطهاد أو (أكل قبائل الرعية) ، كما أقاموا على

طرق المواصلات مستعمرات عسكرية (زمالة جمع زمول) وأحاطوا جبال القبائل الخطرة بحزام من المراكز العسكرية ، واستخدموا تدابير اقتصادية فعالة ضد القبائل التي لاتطالها السلطة . ومن حسن حظ الأتراك أن المناطق غير الخاضعة (جبال القبائل والجنوب) كانت مناطق لاتستطيع العيش في اقتصاد مغلق ، فقد كانت بلاد القبائل كثيفة السكان وعليها - لتحصل على الحبوب اللازمة - أن تبادل فائض انتاجها من الزيت والتين وبعض مصنوعاتها المحلية . وكان عدد من أبناء هذه المناطق يضطر للهجرة والعمل في الحقول والبساتين ، أو كجنود في خدمة البيلكية . وقد اشتهر من هؤلاء الجنود أفراد قبيلة زواوة .

كانت اوضاع قبائل الجنوب الاقتصادية متشابهة ، ولهذا كان لابد لها من ارتياد الأسواق التي كان الأتراك يخضعونها لاشراف دقيـــق . وكان الأتراك يستغلون هذه الأوضاع للضغط على هذه القبائل وانزال العقاب بها أو إجبارها على دفع الضرائب. وعندما تسوء علاقات الأتراك مع قبيلة ما كانوا يعتقلون ابناءها الموجودين في الأسواق ولا يطلقون سراحهم الا بعد تسوية الخلاف . وعندما يطبق الحصار الاقتصادي ازاء قبيلة يمنع التعامل معها تحت طائلة اقسى العقوبات . ففي سنة ١٨٢٥ باعت احدى القبائل في بيلكية تيطري حبوبا لأولاد نايل مباشرة دون علم السلطات فعوقبت عقابا قاسيا[1] . وسعى الأتراك الى كسب عدد من الأعيان المتنفذين الى جانبهم فأطلقوا لهم العنان في استغلال الفلاحين مقابل ولاء اسمي ومبلغ من المال وتوطيد النظام .

وحاول الأتراك كسب العناصر الدينية التي كانت ذات نفوذ كبير ، فقد قيل ان اكثر من ثلثي الجزائر كان تحت اشراف المرابطين المباشر[2] .

---

(1) P. Boyer : l'evolution de l'Algerie Mediane P. 52

(2) P. Boyer : Contribution à l'étude de la politique religieuse des turcs dans la regence d'Alger (XVI - XIX siecles). Revue de l'Occident Musulman et de la Mediterranée P. 16

وقد طرأت على علاقات الأتراك بهذه العناصر المتنفذة عدة تبدلات بتأثير عوامل خارجية وداخلية فقد بدأ التعاون التركي مع المرابطين منذ ايام عروج وخير الدين اللذين كانا يتمتعا بثقة المرابطين لأنهما كانا يمثلان ابطال الجهاد بسبب هجماتهم على السفن المسيحية ومخاطراتهم في نقل المسلمين من اسبانية الى شمال افريقية . وقد ساعد تأييد المرابطين على توطيد مركز عروج وخير الدين وتوغلهم في الداخل وان كان هذا التوغل قد سبب ردود فعل لدى بعض المرابطين المتنفذين في الداخل . وقد حرص خلفاء خير الدين على كسب هذه العناصر الدينية عن طريق اعفاءات ضريبية وهدايا تقدم لهم في المناسبات الدينية ، وعن طريق الحبوس ، ومنح الزوايا والأضرحة حرمـة خاصة وحظر ملاحقة اللاجئين اليها ، ومنح عدد كبير من المرابطين نصيباً من غنائم القرصنة[1] . ولاشك ان هذه السياسة كانت لاستغلال مركـز هؤلاء المرابطين لصالح الحكم التركي وليس بدافع احترام مركزهم الديني، اذ يجب الا ننسى ان الانكشارية كانوا هم انفسهم ينتمون الى طريقة خاصة بهم وهي البكتاشية ، كما أن الكثير من رجال الطائفة المتنفذين كانوا من المرتدين الذين لايقيمون كبير وزن للاعتبارات الدينيـة . ولهـذا كانت الحكومـة تبطش بالمرابطين الـذين يحاولون التـدخل في شـؤونها ، وكان الأتراك يستغلون الخلافات بين المرابطين والطرق الصوفية .

وبصورة عامة كان المرابطون في الأرياف يلعبون دور وسيط الخير بين الأتراك بوصفهم حماة الاسلام ، وبين القبائل نصف المستقلة . ولكن الصلات بدأت تتراخى لتتحول بصورة تدريجية الى حالة عداء ولعل السبب الاهم في ذلك هو التطور الذي حدث في سياسة الأتراك الداخلية في القرن الثامن عشر . فحتى ذلك الوقت كانت نيابة الجزائر تعتمد بصورة رئيسية عـلى موارد القرصنة ، وبالرغم من أهمية الضرائب كمورد هام الا أن حملات

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٨ .

الجباية لم تكن لتأخذ الطابع الواسع والوحشي الذي بدأت تأخذه في هذا القرن . ويعود السبب في ذلك الى انحطاط البحرية الجزائرية وتضاؤل وارد القرصنة ، مما دفع النيابة الى زيادة الاعتماد على الموارد الضرائبية ، فأخذت قبضة البايات تشتد في الداخل في منتصف القرن الثامن عشر ، وسعوا الى اخضاع المزيد من القبائل(١) . وقد ادت هذه السياسة الى وضع المرابطين في موقف حرج ، وسرعان ما تحولوا من وسطاء خير الى مدافعين عن السكان ثم الى متزعمين للثورات التي بدأت بصورة خطيرة منذ بداية القرن التاسع عشر في شمال قسنطينة وغربي بيلكية الجزائر وفي جميع انحاء بيلكية وهران .

كانت بيلكية وهران اخطر المناطق لقوة نفوذ المرابطين والطرق فيها . وتكمن هذه الخطورة في ان زعامة الطرق في هذه المنطقة كانت من أصل شريفي مما يجعلها تتأثر بالأسرة الحاكمة في المغرب ، كما كان مركز زعامة هذه الطرق كالدرقاوية والتيجانية والطيبية في المغرب وليس في الجزائر . وكان هذا يعتبر تهديداً خطيراً بسبب العلاقات العدائية بين المغرب والجزائر ، وبسبب الصلات القبلية والاقتصادية بين سكان هذه البيلكية وسكان المغرب . وكان مما يخفف من هذا الخطر حتى اواخر القرن الثامن عشر وجود الاسبان في وهران ، الذي أعطى الوجود التركي طابعاً دينياً ، وجعله ضرورة سياسية ، واضطراب الاحوال الداخلية في المغرب وعجزه عن استغلال هذا الوضع الملائم في بيلكية وهران . ولكن استرداد الاتراك وهران ، وسياسة الأتراك الضرائبية ، حول الموقف في هذه البيلكية الى وضع المجابهة بين الأتراك والمرابطين .

كانت الدرقاوية والتيجانية أقوى الطرق في الجزائر . وكان مركز الدرقاوية الرئيسي في الورسنيس وجنوب تيطري ، ولها اتباع في غربي

(١) المصدر السابق ص ٣٧ .

الجزائر ، وعلاقات بسلطان المغرب . وكان شيخ الطريقة يقيم في فاس . ابدى الدرقاويون مقاومة عنيفة للأتراك حتى صار تعبير « عاصي » يوازي تعبير « درقاوي »(١) . وفي بداية القرن التاسع عشر أشعلت الدرقاوية ثورة خطيرة في منطقتي قسنطينة ووهران . بدأت الثورة سنة ١٨٠٤ في بيلكية قسنطينة بزعامة أحد زعماء الدرقاوية محمد بن عبد الله بن الحرش ، وهو من أصل مغربي اشترك في محاربة الفرنسيين في مصر اثناء عودته من الحج ، ثم غادر مصر الى عنابة على سفينة انكليزية واستقر في جيجل حيث نجح في كسب انصار كثيرين . وهناك من يعتبر حركة الحرش رداً مغربياً على الصعوبات التي اثارها اتباع الطريقة الخلوتية بتحريض من الجزائر ، ويرى آخرون أن حركة الحرش قامت بتحريض من الانكليز الذين كانوا يريدون خلق المتاعب أمام الداي مصطفى الذي كان يتبع سياسة مشايعة لفرنسة ، في حين كان البعض الاخر يعتبرها انفجاراً عنيفاً لاستياء عام شجعه المرابطون الذين لعبوا دوراً بارزاً في قيادة العمليات(٢) .

نجح ابن الحرش في اثارة القبائل في بيلكية قسنطينة ، وحاول عبثاً الاستيلاء على المدينة . واتسع نطاق الثورة واستمرت حتى سنة ١٨٠٧ حيث نجح الأتراك في القضاء عليها بمساعدة آل القراني(٣) وقام اتباع الدرقاوية بثورة أخرى في بيلكية وهران بسبب تشدد باي وهران معهم وقتله عدداً منهم . وقد تزعم الثورة مقدم الدرقاوية ابو محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي . ونجح الثوار في الاستيلاء على المدن الداخلية بما فيها تلمسان عدا المشور ، كما حاصروا وهران . طلب الباي تدخل سلطان المغرب مولاي سليمان لدى شيخ الطريقة مولاي العربي الدرقاوي المقيم في المغرب ليقوم بتهدئة أتباعه . ولكن شيخ الدرقاوية بعد ان زار تلمسان وسمع شكاوى

(1) P. Boyer : l'evolution de l'Algerie Mediane P. 58
(2) P. Boyer : Revue de l'Occident Musulman et de la Mediterranée 1966 P. 42
(3) De Grammont : P. 365

اتباعه أيد موقفهم ، ويبدو أنه دعاهم الى مبايعة سلطان المغرب . وفي بادئ الأمر ، وفي رسالة له الى شيخ الدرقاوية في ايلول سنة ١٨٠٥ ، لم يرفض مولاي سليمان البيعة ولكنه ترك قراره النهائي الى حين عودة الشيخ الدرقاوي الى المغرب ليعرف رأيه ويعمل بموجب مشورته . وفي رسالة ثانية تشرين الثاني سنة ١٨٠٥ أعلن مولاي سليمان أنه قد يحضر بنفسه الى تلمسان بعد انتهاء فصل الشتاء[١] . واثناء ذلك أرسل اهل تلمسان وفداً الى السلطان ، ولكن السلطان المغربي لم يكن في وضع يسمح له بالدخول في حرب مع الاتراك ، فآثر التخلي عن مشروعه ، ونصح الشيخ الدرقاوي بصرف النظر عنه . واضطر الشيخ الدرقاوي الى التنصل من موقف تابعه مقدم تلمسان . ونجح الاتراك في سحق هذه الثورة بعد جهد كبير . وكانت منطقة تلمسان قد اصيبت باضرار كبيرة ، وهجر قسم كبير من أهلها الجزائر الى المغرب ، وحين طلب باي وهران من مولاي سليمان اعادتهم رفضوا العودة مجيبين « ... نذهب الى بلاد النصارى ولا نجاور الترك فجمع علينا الجوع والقتل ... »[٢] .

كذلك وقفت التيجانية التي كان مركزها في « عين ماضي » ضد الأتراك ، وقد ثاروا بعد انتهاء ثورة الدرقاوية بزعامة محمد الكبير الابن البكر للشيخ احمد التيجاني مؤسس التيجانية الذي هجر الجزائر الى المغرب بسبب ضغط الأتراك عليه، وقيل إن الثورة حظيت بتأييد مولاي عبد الرحمن سلطان المغرب . وفشل باي وهران وتيطري في الاستيلاء على مقر التيجانية في عين ماضي ، كما فشل التيجانيون في الاستيلاء على معسكر سنة ١٨٢٧ ، وفي ذلك الوقت بدأت الأزمة مع فرنسة ، وتوجه نشاط التيجانية بعد هذا الفشل نحو الصحراء والسودان .

(1) G. Dragué : Esquisse d'Histoire Religieuse du Maroc P. 353 - 354

(٢) الناصري : الاستقصا ج ٨ ص ١١٠ - ١١١ .

الجيش :

تعتمد الادارة العثمانية في الجزائر على قوة أساسية من الجند التركي تؤلف (الأوجاق) . وقد وجدت نواة هذه القوة سنة ١٥١٨ عندما أرسل السلطان (٢٠٠٠) انكشاري الى خير الدين ، وسمح له أن يجمع متطوعين آخرين على أن يمنحهم السلطان امتيازات الانكشارية . فبلغ عدد الجميع (٤٠٠٠) . وفي سنة ١٥٥٦ ارسل السلطان سليمان ٤٠ سفينة عليها (٦٠٠٠) جندي الى صالح ريس ليساعده في الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير . ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة أو التجنيد الطوعي من مختلف أنحاء الامبراطورية العثمانية هي التي تغذي الأوجاق الذي كان تبعا لذلك يتجدد على الدوام . ويشير كتاب القرن الثامن عشر الى أن الجزائر وتونس كانتا على الدوام تأخذان حاجتهما من الجنود من الامبراطورية العثمانية . ولكن هذه الكتابات لاتوضح المناطق التي كان يتم فيها التجنيد ، أو الهيئات التي تشرف على هذه العملية ، ودور الحكومة العثمانية فيها . ولكن دراسات مارسيل كولومب في السجلات التركية الجزائرية[١] دلت أن عملية التجنيد كانت تجري في كل انحاء الامبراطورية العثمانية الأوربية والآسيوية من شواطىء ايجه حتى جبال ارمينية ، ومن جبال كيليكية حتى شواطىء البحر الأسود . وما من مدينة لها شيء من الأهمية الا وهي ممثلة في الأوجاق ، ولكن الأناضول كان أكبر مصدر للجنود الى الجزائر . وتجري عملية التجنيد على يد بعثات جزائرية مؤلفة من عناصر من الأوجاق تزور المدن التركية وتقوم بالدعاية اللازمة مبينة المزايا والمرابح الوفيرة التي سيحظى بها المجندون في الجزائر . ويشير فانتورا دي باراديس الى أن المشرفين على هذه

(١) بالرغم من أن هذه السجلات الخاصة بالأوجاق تتناول فقط مرحلة متأخرة من ١٧٨٦ الى ١٨٢٤ فهي تسهم في القاء ايضاحات تتمم ما جاء في كتابات السواح حول هذا الموضوع . انظر
M. Colombe : Initiation a Alger et Revue Africaine 1943 P. 160 - 183

العملية كانوا يرسمون لوحة رائعة للمصير الذي ينتظر هؤلاء الجنود في الجزائر ، أو المرابح التي لا حصر لها التي ستدرها عليهم القرصنة ضد المسيحيين ، والامتيازات والثروات المرتبطة بالمناصب البارزة التي سينالها هؤلاء المجندون . وكانت هذه البعثات تدفع بعض المال لهؤلاء المجندين وتقوم باعالتهم حتى وقت الابحار . ويذكر الانكليزي شو الذي غادر الجزائر سنة ١٧٣٢ أن الجزائريين كانوا يرسلون كل خمس أو ست سنوات سفنا الى المشرق لجلب الجنود . وبالاضافة الى هذه البعثات كان للجزائر وكلاء دائمون يقيمون في المدن والموانى والجزر الخاضعة للدولة للقيام بهذه المهمة .

ولم تكن السلطات العثمانية بعيدة عن هذه العملية ، فقد كان على الجزائريين أن يرضوا السلطات التركية العليا أو المحلية ، ولا سيما قبطان باشا ، وهو المسؤول عن شؤون الجزائر في الحكومة العثمانية . وكان على الجزائريين أن يقدموا الهدايا له ولأعوانه من مختلف الرتب . ومقابل ذلك كانت السلطات العثمانية لا تكتفي فقط بالسماح بالتجنيد وتسهيل أو تأييد الدعاية الجزائرية له ، بل تقوم بدور فعال في هذا المضمار . فقد كان موظفون عثمانيون كبار بينهم حكام المدن يقومون بهذه المهمة لحساب الجزائريين[1] .

وكانت حاجة الجزائر الى هؤلاء الجنود ، وموافقة السلطات العثمانية ومساعدتها الضرورية لتنفيذ هذه العملية ، تؤثر في العلاقات العثمانية الجزائرية . فهي من العوامل التي منعت الجزائر أن تقطع نهائيا كل الجسور التي تصلها بالسلطة ، كما كانت السلطة تستغل هذه الحاجة كأداة للضغط على الجزائر .

(1) M. Colombe : Initiation A Alger et Revue Africaine 1943 P. 160 - 183

تشير كتابات السواح الأجانب الى أن هؤلاء الجنود كانوا يؤخذون من أحط الطبقات الاجتماعية . يصفهم الأب هايدو أنهم « ... أولاد أوباش وأراذل ... » ويصفهم الأب دان في كتابه تاريخ بربريا وقراصنتها « ... رعاة فقراء أو أناس من هذا القبيل ... » ويصفهم لوجيه دي تاس في كتابه تاريخ مملكة الجزائر « ... أنهم من الأشقياء والمحكوم عليهم بأحكام قاسية ... » ويصفهم الانكليزي شو أنهم أشقياء أو رعاة ، ويصفهم رينال أنهم قطاع طرق يجمعون من شوارع ازمير واستنبول . ويبدو أن في أقوال هؤلاء شيء كثير من الحقيقة لأن الفقراء وحدهم كانت تغريهم دعاية الجزائر عن الثراء الذي ينتظرهم في الجزائر . ويذكر هايدو أن هذه العناصر كانت تتوافد كل عام على الجزائر مدفوعة باحلام الأثراء السريع ، على نحو هجرة الاسبانيين الى جزر الهند . كما أن حكام الولايات والمدن العثمانية عندما كانوا يقومون بهذه المهمة لحساب الجزائريين كان من مصلحتهم أن يبعدوا العناصر المشاغبة والأشقياء بارسالهم الى الجزائر .
وكانت السفن الجزائرية تتولى نقل هؤلاء الجنود ، وليس هناك وقت محدد لمجيء السفن ، بل كان هذا يحدث صدفة أو عند الحاجة : عندما تقوم هذه السفن بعمليات قرصنة في شرقي المتوسط ، أو عندما كانت تأتي الى المنطقة للاشتراك في عمليات مع الأسطول العثماني ، أو عندما تكون قادمة للتجارة فتعود محملة بالجنود . وأحيانا كانت بعض السفن الأوربية تقوم بهذه المهمة .

ويشير مارسيل كولومب الى أن عدد المجندين المتطوعين كان كبيرا طيلة فترة ازدهار القرصنة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ومنذ أوائل القرن الثامن عشر ، عندما تضاءلت مرابح القراصنة ، قل عدد المجندين المتطوعين . فاضطرت الجزائر الى مضاعفة دعايتها واحتاجت أكثر الى الاعتماد على مساعدة السلطات العثمانية ، ولهذا بدأ ارسال البعثات الجزائرية

واقيم وكلاء جزائريون للاشراف على عمليات التجنيد والدعاية . ومن هنا ايضاً زادت أهمية الدور الذي تلعبه السلطات العثمانية في هذه العملية .

وكان بعض هؤلاء الجنود يعودون الى بلادهم الأصلية ، وبعضهم يتخطفه الموت ، فيعوضون بعناصر جديدة . لذلك لم يكن عدد هذه القوة ثابتا ويراوح بين ٦٠٠٠ – ٢٢٠٠٠ ، ويخضع تنظيمها الى قواعد مشابهة للتنظيمات العسكرية العثمانية ، فيتجمعون في الأوجاق ويتوزعون الى عدة اورطات . ويتم التقدم في المراتب العسكرية على مبدأ المساواة والأقدمية : من مرتبة الجندي العادي (يولداش) حتى مرتبة الأغــا ذو القمريس Ikiay Agasi ، أي الذي يحتفظ برتبته شهرين فقط ، وبعد انقضاء شهرين يتخلى الأغا عن منصبه ليصبح أغا شرفي (منصور أغا أو معزول أغا) يقود فرقة السباهية (الخيالة) . (ويبدو أن الأغوات الحكام ، في عهد الأغوات، كانوا من هؤلاء . وهذا وحده يفسر وجود ٤ أغوات في هذا العهد الذي امتد حوالي ١٢ عاما) . وسرعان ما سلك الأوجاق الجزائري المسلك العنيف والفوضوي نفسه الذي سلكه انكشاريو الجزائر ، وتألف منهم ارستقراطية عسكرية وادارية تتمتع بامتيازات واسعة واعفاءات ضرائبية ، حيث كانوا يحصلون على المواد الغذائية والحاجيات الضرورية بأسعار مخفضة بالنسبة لباقي عناصر السكان . وكانت الوظائف الادارية العالية تقتصر عليهم في أغلب الأحيان ، ويختار لها – عادة – اقلهم جهلا ، ممن تتوفر لديهم القابلية للوظائف الادارية . فيمرون بمرحلة تعليم ويقضون قبل ان يعينوا بصفة نهائية فترة تمرين في ثكنة داخل البلاد أو في احدى الفرق المرسلة لجباية الضرائب .

وكما هو الأمر في كل انحاء السلطنة ، لم تقتصر هذه القوة على دورها العسكري في الدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن ، بل أخذت تتدخل بصورة متزايدة ومكشوفة في سياسة البلاد وفي ادارتها وفي حياة السكان

بوساطة رؤسائها الذين كانوا يؤلفون الديوان ، الذي لم يعد يكتفي بدور المدافع عن مصالح الجند ، ومساعدة الحاكم في تصريف شؤون النيابة ، بل أصبح بؤرة للتآمر على السلطة فانقلب بذلك الى أداة للفوضى أضعفت الحكومة والجيش معا . وفي لعبة السلطة هذه كانت مناصب الولاة ورؤساء الجند أنفسهم ، واحياناً حياتهم عرضة للخطر . وكثيرا ما كان الجند ينقسمون الى فريقين يؤيد كل منهما زعيما ، ويبدأ الصدام والمطاردة . والويل للمغلوب . وخلال هذا الصراع كانت مصالح السكان وأرواحهم عرضة لشتى أنواع الاعتداءات . وفي الأحوال الاعتيادية كانت روح التضامن والتعاون تقوى بين الجند ولا سيما حين تبدو مصالحهم عرضة للخطر : من الوالي أو الديوان ، أو من القوة المنافسة لهم أي رجال البحر .

وكان مقتل تركي واحد – أيا كانت الظروف – دافعا لحدوث مجزرة، فاذا لم يعثر على القاتل كانت السلطة تطبق المسؤولية الجماعية .

ولم تكن الاقامة في الثكنات لكل الجنود ، فالمتزوجون منهم يعيشون في بيوتهم ، وكان الكثيرون منهم يتزوجون من الأهالي . وكان هذا سهلا لأن الأهالي كانوا يلتمسون من وراء هذه المصاهرة الحماية الفعالة .

وفي الأحوال العادية كان عدد من الجند يمارس مهنا مختلفة ولا سيما التجارة ، ويستخدمون ثرواتهم في بناء بيوت جميلة في المدينة وفي الريف يعمل فيها عبيد وفلاحون . ويبدو أن الأمور قد استقرت على نحو ما في منتصف القرن الثامن عشر فقد استمر حكم الداي عثمان من سنة ١٧٦٦ الى سنة ١٧٩١ ، ويشير مؤلف جزائري عاش في منتصف القرن الثامن عشر الى ان الانكشارية كانوا في عصره في غاية الهدوء ، يعيشون حياة وادعة بصورة لم يعرفوها من قبل[1] . ويفسر مارسيل كولومب هذا الهدوء والاستقرار بأن الأوجاق فقد حيويته القديمة وافقدته الحروب المستمرة

(1) Delpin : J. A. 1922

عددا من افراده لم يعد من اليسير تعويضه • ذلك أن عملية التجنيد من الأناضول لم تعد مجدية ، ولا تأتي الا بعدد يسير ، ولسد هذا النقص كان لابد من الاعتماد على جند من الأهالي ، وسيؤدي هذا – في حال تزايدهم – الى تغيير شكل الدولة التقليدي • ولمواجهة هذا الخطر الذي نجحوا حتى الآن في ابعاده تعقلوا وهدأوا[1] • وكان في صفوف الجند فريق من العقلاء ، اغلبهم من المتزوجين واصحاب الأملاك ، كان في كثير من الأحيان يقف حائلاً ضد فريق الشغب ولا سيما في الحالات التي يتحول فيها الشغب الى محاولة لنهب المدينة اشباعاً لتعطش الجند الى المال كما حدث سنة ١٨٠٨[2] • وقد أدى اشتراك الجند في المؤامرات السياسية وفي شؤون الحياة العادية التي كانت تبعدهم عن حياة الجندية الى ضعف الروح العسكرية لديهم •

وبدأ تجنيد الانكشارية يلقى منذ أوائل القرن التاسع عشر صعوبات وقل عدد الأوجاق ، فقد دل الاحصاء الذي قام به الداي محمد الخزنجي سنة ١٨١٥ – هذا الاحصاء الذي كلف الداي حياته – ان عدد الأوجاق يقتصر على ٤ آلاف جندي بينهم ٧٠٠ عاجزين عن القيام بأية خدمة • وفي عهد الداي عمر ، الذي كان على صلة وثيقة بالسلطان ، وصل الى الجزائر (١٢٩٠) جندياً انكشارياً خلال عامين وقد اشار الداي عمر الى المتاعب التي كانت الخزينة تعانيها لدفع مرتباتهم[3] • وتعرض الأوجاق لكارثة هدت قواه وجعلته شبه مشلول ، ففي سنة ١٨١٧ قتل الجند الداي عمر ونادوا بعلي خوجا خلفاً له • كان الداي الجديد يضمر التحرر من نير الجند والتخلص من هذه الفرق غير الانضباطية فغادر قصر الجنينة واستقر في القصبة التي عمل على تسليحها ونقل اليها الخزينة واوكل حراستها الى ٢٠٠٠ من جند القبائل واعدم عدداً من زعماء الجند الذين اشتركوا في

(1) M. Colombe : Initiation à Alger P. 112
(2) De Grammont : P. 371
(3) Revue de l'Occident Musulman 1968 P. 115

التآمر على سلفه ودعا القولوغلي الى التسلح والالتفاف حوله واعلن للأتراك أنه يريد أن يكون السيد وأنه سيحسن معاملة المطيعين وترك للآخرين حرية مغادرة الجزائر الى المشرق الذي قرر ألا يعتمد عليه في عملية التجنيد • وحاول بعض الجنود الثورة ولكن حرس الداي سحقهم وهرب الآخرون الى شرقي الجزائر حيث تجمعوا وزحفوا نحو الجزائر • أرسل الداي علي رسله إلى القبائل يدعوها لقطع طريق (ممر البيضان) على الثوار • ولكن الثوار كانوا قد اجتازوا الممر ووصلوا الى أبواب الجزائر مطالبين برأس الداي • كان الداي قد اتخذ كل الاحتياطات اللازمة فهيأ قوة من القولوغلي بقيادة ضباط أتراك من اعوانه ونجحت قوات الداي في سحق الثورة وفقد الثوار ١٢٠٠ جندي و ١٥٠ زعيماً • وطلب الباقون الأمان ومنح لهم وفضل الكثيرون مغادرة الجزائر إلى ازمير واستنبول[1] •

وتوقف منذ ذلك الوقت مجيء الجند من آسية الصغرى ، ووضع قضاء السلطان محمود على الانكشارية حداً نهائياً لذلك • وقد حاول الداي حسين حين بدأت الأزمة مع فرنسة أن يحصل على موافقة السلطان على استئناف عملية التجنيد في آسية الصغرى لحساب الجزائر • وبالرغم من موافقة السلطات العثمانية على طلب الداي فان حصار الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٢٧ حال دون ذلك[2] •

وبسبب قلة عدد افراد هذه القوة وروح التمرد المتفشية في صفوفها ، كان لابد من الاعتماد على عناصر اخرى من الجند • وقد سعى خير الدين الى خلق قوة جديدة الى جانب الاوجاق فكون فرقة من الحرس من (٥٠٠) من العلوج ، وجند قوات مختلطة من يونان والبان ومن رجال القبائل بلغ عددها (٨) آلاف جندي ، أوكل قيادتها الى قباطنة من رجاله القدامى

(1) De Grammont : P. 381 - 382
(2) Revue Africaine 1952 P. 189 - 194

الموثوقين • وتابع خلفاء خير الدين سياسة الاعتماد على قوات اضافية ، من المرتزقة أو من عناصر محلية ، لاستخدامها خارج المدن الرئيسية • وقد لقيت هذه السياسة في بادىء الامر معارضة ومقاومة من الأوجاق ، امتد صداها الى استنبول ، اذ رأت الدولة فيها بذور محاولة انفصالية • ولكن الضرورات المحلية ومتاعب الدولة ، وضعف البحرية ورقابة الأوجاق ، كل ذلك سمح باستمرار هذه السياسة •

ولجأت السلطات الجزائرية الى استخدام بعض القبائل التي عرفت باسم قبائل المخزن في اخضاع القبائل الأخرى « قبائل الرعية » مقابل اعفاءات ضرائبية وبعض الامتيازات • ومن أشهر قبائل المخزن قبيلة الزواوة • وقد أطلق الفرنسيون فيما بعد على الفرق الجزائرية التي استخدموها اسم « الزواف » المشتق من اسم هذه القبيلة •

ومن بين الفرق العسكرية الشهيرة في الجزائر القولوغلي[1] ، وهم المولدون من زواج الانكشارية بنساء من الأهالي ، ولم يكن يسمح لهم بدخول صفوف الأوجاق ويستخدمون في القلاع العسكرية تحت قيادة ضباط أتراك ، ويثيرون الاعترضات والمشاكل بسبب حرمانهم من امتيازات الأوجاق • وقد قاموا بعدة ثورات • وصدر قرار نفيهم من مدينة الجزائر اثر قيامهم بحركة تمرد في النصف الأول من القرن السابع عشر • الا أنهم دخلوا مؤخرا في صفوف الأوجاق عندما ضعفت حركة التجنيد من أراضي السلطنة • وكان القولوغلي يستخدمون بكثرة في الوظائف المساعدة،ووصل بعضهم الى مراتب عالية كوظيفة المفتي والباي • وبفضل معرفتهم التركية كانوا واسطة اتصال بين الحكومة والأهالي • وبالرغم من ارتباط القولوغلي العائلي بالأهالي فقد كانوا يعتبرون انفسهم في مرتبة أعلى ويحتقرون الأهالي ويتعالون عليهم ، فكرهم الأهالي • وقد انضم القولوغلي سنة ١٨٣٠

(1) وتلفظ احيانا قرغلي وقلغلي وقلقاز وقلقلان وهي كلمة تركية مركبة من قول ومعناها جندي واوغل ومعناها ابن •

بسرعة الى الادارة الفرنسية التي أفادت منهم في تصفية ارث الحكومة الجزائرية الذي لم يكن واضحا

طائفة الرؤساء :

وهم رجال البحر الذين كانوا طليعة التدخل العثماني في الجزائر ولعبوا دورا حاسما في خلق النيابات العثمانية في شمال افريقية • ويطلق على نشاط رجال البحر وصف القرصنة ، ويطلق عليهم اسم القراصنة • وسلط الكثير من المؤرخين الغربيين الأضواء على قرصنة شمال افريقية ولا سيما الجزائر ، ليس لأن قراصنة الجزائر كانوا أنشط وأبرع القراصنة فحسب ، بل لأن نشاطهم كان موجها ضد السفن الأوروبية وسببوا الكثير من المتاعب لاوربة المتوسطة ، ونقلوا معهم الكثير من الأسرى الى مواني شمال افريقية ، ولأن موضوع افتكاك الأسرى الأوربين كان شاغل الكثير من المؤسسات الدينية والديبلوماسية • وما كان يسمى لدى هؤلاء الكتاب والمؤرخين ، قرصنة في شمال افريقية ، كان يسمى بطولة وحربا مقدسة بالنسبة لفرسان القديس يوحنا ، وفرسان سانت اتيين المتمركزين في بيزا برعاية كوزمو دو مديتشي • وكما يقول برودل كان هناك اكثر من جزائر مسيحية : كمالطة وبيزا وليفورن[1] • وكما كانت الجزائر تعج بالأسرى المسيحيين والسفن الجزائرية تعج بالمجدفين من هؤلاء الأسرى ، كان الامر نفسه في مواني القرصنة المسيحية وعلى سفنها • وقد عثر نابوليون لدى احتلاله مالطة سنة ١٧٩٨ في طريقه الى مصر على عدد من الاسرى المسلمين لدى فرسان القديس يوحنا •

ولايمكن فهم دور القرصنة الجزائرية بدون القاء ضوء على تاريخ القرصنة وعلى تطور أهدافها ، وعلاقتها بدول البحر المتوسط •

(1) F. Braudel : P. 694

يرى برودل أن القرصنة في المتوسط مهنة قديمة قدم التاريخ . وقد مارستها كل الشعوب التي عاشت على ضفاف هذا البحر . وكان لكل ميناء قراصنته حتى قيل أن القرصنة بنت البحر المتوسط[1] .

وتعود أصول القرصنة الجزائرية الحديثة الى منتصف القرن الرابع عشر بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية التي عصفت بالمغرب الأوسط ، وتدفق المهاجرين الأندلسيين عليه ، ولهذا أخذت مظهرا اقتصاديا ودينيا . ويرى ابن خلدون أن القرصنة بدأت سنة ١٣٦٠ في بجاية وبدأت تهاجم الجزر والسفن المسيحية وتعود محملة بالأسرى والغنائم .

وقوي الطابع الديني للقرصنة في القرن السادس عشر ، وغلب على القرصنة المسيحية والاسلامية على السواء . ولا سيما اثر سقوط الأندلس وتعرض سواحل شمال افريقية للغزو البرتغالي والاسباني ، واشتداد الصراع بين الدولة العثمانية والدول الأوربية ، وارتباط الجزائر بهذا الصراع اثر دخولها في طاعة الدولة العثمانية .

كانت عملية القرصنة اذن تحمل طابع الحرب المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين . ولكن الطابع الديني بدأ يضعف ويفسح المجال للطابع الاقتصادي بعد توقف الصراع الكبير بين الدول الكبرى ، حيث افسح انتهاء « حرب الارمادات » المجال « لحرب المغامرات » المربحة ، وبسبب ازدياد العلوج في البحرية الجزائرية .

ومنذ ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية كلفت البحرية الجزائرية بالاهتمام بالقطاع الغربي من البحر المتوسط بصفة خاصة، وتركزت جهودها ضد « عدو الاسلام التقليدي » اسبانية ، وكانت غاراتها على الجزر والسواحل الاسبانية مستمرة . ولم تستطع الوسائل العديدة التي اتخذتها الحكومة

(1) F. Braudel : P. 694

الاسبانية (ابراج مراقبة ، منظمات دفاع) أن تحول دون هجمات القراصنة . وبدأ سكان سواحل اسبانية المتوسطية يهجرون المناطق الساحلية الى الداخل ، واوقفت هذه الغارات ازدهار هذه المناطق التجاري . وهاجم القراصنة الجزائريون سواحل سردينية وصقلية ونابولي وهددوا المواصلات البحرية بين الممتلكات الامبراطورية في اسبانية وايطالية . ويصف هايدو نشاط هؤلاء القراصنة « ... كان القراصنة يبحرون أثناء الشتاء والربيع ويطوفون في البحر من الشروق الى الغروب ساخرين من سفننا التي كان بحارتها في ذلك الوقت يتسلون باللهو والقصف في الموانى وكان القراصنة يعرفون ان السفن المسيحية الثقيلة هذه لاتستطيع أن تحلم بمطاردة سفنهم الخفيفة وان تمنعها من النهب والسرقة ... »[1] .

ولا يعود تفوق القرصنة الجزائرية الى مهارة البحارة في قيادة السفن فحسب ، بل الى سرعة السفن وخفتها وانضباط المجدفين القاسي . وكان القباطنة الجزائريون شديدي الاهتمام بالنظام وبنظافة ورعاية سفنهم وانضباط بحارتهم « ... وكانوا لايسمحوا لأي شخص، ولو كان الباشا نفسه، أن يغير مكانه أو أن يتحرك من المكان الذي يكون فيه ... » ، وكان الكثير من رجال البحر الجزائريين من العلوج من مختلف مناطق البحر المتوسط ويعرفون شواطىء بلادهم الأصلية ويحملون معهم معلومات هامة .

اقتصر نشاط القرصنة الجزائرية في القرن السادس عشر على البحر المتوسط وارتبط نشاطهم ارتباطا وثيقا في عصر البكلربكوات بنشاط الدولة العثمانية وبلغ ذروته في الستينات « ... حتى لكأن البحر خلا الا من سفنهم وكانت الموانى الايطالية ولا سيما جنوه ونابولي وصقلية ، والموانى الاسبانية تعاني متاعب اقتصادية شديدة . وتدفق الأسرى المسيحيون كالمطر ... » .

ولكن منذ أن تخلت الدولة العثمانية عن الصراع في البحر المتوسط ،

(1) De Grammont : P. 51

ومنذ نهاية عصر البكلربكوات بدأت الجزائر تدير ظهرها لاستنبول وتتصرف على مسؤوليتها، ولم يعد نشاطها مقتصراً على البحر المتوسط، وذلك بتأثير عوامل جديدة : ففي حين كانت عناصر البحرية الجزائرية، حتى ذلك الوقت، من سكان البحر المتوسط، بدأت تتسرب اليها عناصر شمالية، ادخلت معها الى البحرية الجزائرية تكتيكا جديدا واشرعة جديدة، مما ساعدها على اجتياز البحر المتوسط ودخول المحيط .

ويعتبر القرن السابع عشر عصر القرصنة الجزائرية الذهبي فقد شمل نشاطهم البحر المتوسط كله وامتد الى سواحل اوربة الشمالية والبرازيل وايسلندة والأرض الجديدة . ويذكر مراقب برتغالي أنه في الفترة بين ١٦٢١ - ١٦٢٧ كان في الجزائر ٢٥ الف اسير منهم فلامنديون وايقوسيون وانكليز ودانمركيون وايرلنديون وهنغاريون واسبان وفرنسيون وايطاليون وسوريون ومصريون ويابانيون وصينيون واناس من اسبانية الجديدة واثيوبية(1) . وتجاوزت قيمة الغنائم في اوائل هذا القرن ما قيمته (٣) ملايين جنيه . وقامت البحريات الأوربية النظامية بمحاولات للرد على هجمات البحرية الجزائرية وقصفت الموانئ الجزائرية أكثر من مرة دون ان تحقق نتائج مجدية . واضطرت الدول الأوربية بما فيها الدول الكبرى الى دفع اتاوات وهدايا الى حكومة الداي لتشترى بذلك أمن سفنها . ولكن عمليات البحرية الأوربية النظامية بدأت تؤثر على الجزائر منذ أواخر القرن السابع عشر . وفي القرن الثامن عشر بدأ انحطاط البحرية الجزائرية . فقد تزايدت قوة البحرية الأوربية وصارت عمليات الانتقام أوسع وأكثر جدوى، وحدت المعاهدات مع الدول من نشاط البحرية الجزائرية وقلت الغنائم، وهبط مستوى البحارة الجزائريين، وهبط عدد السفن الجزائرية هبوطا كبيرا . ولكنها انتعشت من جديد في اوائل القرن التاسع عشر بفضل الريس

(1) F. Braudel : P. 714 - 715

حميدو ، وذلك بسبب انشغال الدول الأوربية بحروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية .

وكان نشاط القرصنة الجزائرية يتأثر بوضع الحكومة الجزائرية . ففي فترات الاستقرار وقوة الحكام كانت السفن الجزائرية تتقيد بسياسة الحكومة وتعليماتها فلا تهاجم الا السفن العدوة ، وتمارس حق الزيارة والتفتيش على السفن المحايدة للتأكد من حقيقة جنسيتها ، أو من أنها لاتحمل بضائع لدول معادية . فقد كانت بعض السفن العدوة ، ولاسيما سفن القراصنة المسيحيين ، تستتر تحت راية دولة صديقة كفرنسة للتخلص من هجمات السفن الجزائرية ، ولتنقض عليها بصورة مفاجئة . وكانت القرصنة المسيحية واسعة الانتشار في البحر المتوسط ، حتى ان البحريات النظامية لم تكن تتورع عن القيام بعمليات قرصنة ضد السفن الاسلامية . ولم يكن هناك ، في تلك الأوقات ، قواعد تميز بين الحرب النظامية وغير النظامية وبين حالات الحرب والسلام ، وكان عدد كبير من الموانئ الأوربية يستخدم كقواعد للقرصنة المسيحية : لافاليت ،ليفورن، بيزا، سينا ، باليرم ، تراباني ، مالطه ، بالما ، ماجورقة ، المرية ، فلانس ، سيجنا ، فيوم .(1)

كان البحارة الجزائريون من أجناس متعددة، ولكن الشرط الضروري للانخراط في سلك البحرية الجزائرية هو اعتناق الاسلام . وكان يطلق على اولئك الذين يغيرون دينهم ويعتنقون الاسلام – ومعظمهم من الأسرى – اسم « العلوج » . وكان هؤلاء العلوج يحصلون على ارقى المناصب في النيابة التي كانت محظورة على العرب والقولوغلي بما فيها منصب الحاكم . وقد ادت كثرة هؤلاء العلوج في البحرية الجزائرية ، ومعظمهم قد اعتنق الاسلام طمعا في الانخراط في البحرية الجزائرية والافادة من مغانم القرصنة ، بدلا من أن يبقى أسيرا يعمل في التجديف أو في الحقول أو في خدمة بيوت

(1) F. Braudel : P. 697

الأتراك ، الى تغلب العامل المادي في نشاط القرصنة الجزائرية على العامل الديني ، فقد كان هؤلاء لايهتمون بالجهاد بل بالغنائم المجدية • وقد تزايد عدد العلوج بصورة خاصة منذ أواخر القرن السادس عشر ويذكر هايدو أن العلوج كانوا سنة ١٥٨٠ يؤلفون مع اولادهم اكثر من نصف سكان مدينة الجزائر [1] • ومنهم يؤخذ بناة السفن والمهندسين والعمال والمهرة من كل نوع • إن تزايد عدد العلوج في البحرية الجزائرية أسهم في تطوير سلوك الطائفة في الداخل والخارج • ويظهر هذا التطور في عدة نواح : ان هؤلاء القادمين الجدد ، وقسم من قراصنة الأمم الأخرى ممن جذبتهم شهرة الجزائر والتسهيلات المتوافرة لهذا النشاط ، بدلوا من اهداف القرصنة التي تحولت اكثر فأكثر من الجهاد الى النهب •

ومن جهة أخرى لم يكن هؤلاء الحديثو العهد بالاسلام يكنون للسلطان الاحترام الذي كان يضمره له اسلافهم ، الامر الذي أضعف ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية • وهنك ظاهرة هامة أخرى أشار اليها اشيل ريجيو [2] تتناول الأصول الاجتماعية لهؤلاء العلوج • فكما كان للأصول الاجتماعية لطبقة الجند القادمين من آسية الصغرى أثر في سلوك الجند ، فقد لعبت اصول هؤلاء العلوج كذلك دوراً هاماً أيضاً في سلوكهم • يذكر أشيل ريجيو أن أصل اغلب هؤلاء العلوج من طبقات اجتماعية اوربية كانت معادية للاقطاع والملكية المركزية • وكان لذلك أثر هام في نشاط هؤلاء القراصنة وردود الفعل الأوربيةضد هذا النشاطوالمخاوف من ان يرتبط نشاطهؤلاءالقراصنة مع حركات المقاومة الداخلية في اوربة •

وكان لرجال البحرية مكانة كبيرة في الجزائر ، ذلك لأن مغانم القرصنة كانت أهم مورد في البلاد • كتب هايدو يصف عودة البحارة

(1) De Grammont : P. 128
(2) Revue Africaine 1949 P. 40 - 43

الجزائريين ومغامراتهم « ••• لدى عودتهم كان كل جزائري مغتبطا لأن التجار يبيعون الى البحارة العائدين كل ما في مخازنهم من ثياب ومؤن ولم يكن القراصنة يعملون سوى الشراب والطعام واللهو ••• » •

كان رجال البحر الجزائريون يتدخلون في المسائل السياسية ، وهم أشبه بتنظيم سياسي يقابل تنظيم الأوجاق • وكان رجال الأوجاق يحسدون رجال الطائفة بسبب الأرباح الطائلة التي يدرها عليهم عملهم • وكان القراصنة بدورهم يحتقرون « بقر الأناضول » •

ويصور الكثير من المؤرخين تطور تاريخ الجزائر العثمانية على انه خاضع لهذه المنافسات بين هاتين القوتين • وعلى هذا يبدو تتابع الأحداث السياسية وقيام حكم الأغوات ثم الدايات نتيجة لانتصار الانكشارية على الطائفة أو العكس • وفي هذا الاتجاه كثير من المبالغة • والحق انه لايمكن انكار وجود تنافس بين هاتين الفئتين ، ذلك ان غنى رجال الطائفةوقصورهم الجميلة على شاطىء البحر كانت تثير حسد الانكشارية القادمين من مناطق بعيدة وأوساط فقيرة معدمة يدفعهم حلم الاثراء السريع ، والذين لم تكن الحملات البرية التي يقومون بها ضد الأهالي تجلب لهم ما كانت الحملات البحرية تجلب للطائفة •

كانت هذه المنافسة قوية في عصر البكلربكوات الذين كانوا من رجال البحر ويعتمدون على رجال الطائفة ضد شغب الانكشارية • ولكن هذه المنافسة بدأت تخف منذ أن سمح للانكشارية سنة ١٥٦٨ في الانخراط في عداد رجال الاسطول ، والمشاركة مباشرة في مرابح القرصنة •

وفي الواقع كان للفريقين مصالح متكاملة تشدهم الى بعضهم البعض في أغلب الأحيان • فمهما بلغ ثراء رجال البحر فليس بامكانهم الاستغناء عن مساعدة الجند الذين كانوا يقومون بالمحافظة على الأمن في الداخل والدفاع عن الجزائر فيتيحون بذلك للقراصنة التفرغ للنشاط البحري • والأمر

نفسه بالنسبة للجند فمهما بلغت قوة الجند وكثرتهم ، فليس بامكانهم ان يحلموا بفرض ارادتهم على القراصنة ، لأن غنائم هؤلاء كانت تسد حاجة الخزينة وتسمح لها بدفع مرتبات الجند بصورة منتظمة . ويلاحظ مارسيل كولومب أن مصير هذين الفريقين كان يسير خلال التاريخ في خطوط متوازية . فقد زادت قوة الطرفين بالنسبة نفسها حتى اواخر القرن السابع عشر ، لتهبط بعد ذلك بصورة متماثلة حتى التدخل الفرنسي . وقد تتصارع الطائفتان ولكنهما تتحدان وتتعاونان لتأكيد امتيازاتهما وحقوقهما . وما دامت قوى الفريقين متكافئة فان أية محاولة للحكم بالاعتماد على هذه القوة أو تلك مصيرها الفشل . لقد انتهت محاولات الحكام في اخضاع الجند الى قتل الحكم الذي يقدم على هذه المحاولة أو عزله ، والامر نفسه حين يحاول الحكام اخضاع الطائفة ومنعها من التعرض لسفن هذه أو تلك من الدول . فيثور رجال الطائفة ، ويدعمهم الجند في أغلب الأحيان .

ونتيجة لعجز الحكام عن فرض كلمتهم كانوا مضطرين – اذا رغبوا في البقاء حكاماً – الى الانحناء أمام رغبات الطائفة ، وان يصبحوا ألعوبة بأيدي الجند .

الموارد المالية :

تؤلف الموارد المالية – مع المحافظة على الامن – اهم واجبات الادارة العثمانية . وكلا الامرين مرتبط بالآخر . فالادارة العثمانية بصورة عامة اداة استهلاك وليست أداة تنمية . فهي تعيش على موارد البلاد دون اي مسعى من جانبها لتنمية هذه الموارد . وما تجبيه يستهلك في دفع رواتب الموظفين والجند .

وكان فرض الضرائب وجبايتها يتم بصورة تعسفية ترهق السكان في المدن والريف وتثير ردود فعل عنيفة . ومعظم الثورات في الجزائر يمكن ردها الى قضايا تتعلق بالضرائب .

كانت الادارة المالية المركزية تابعة للخزنجي ، يساعده خوجا هو رئيس السكرتارية ، و ٣ محاسبين يختارون بصورة عامة من اليهود .

وكانت الضرائب على نوعين : الضرائب الشرعية : الزكاة والعشور على المحاصيل وتحدد بحسب الافدنة المزروعة (الزويجة) وكل زويجة تعادل ٨ – ١٠ هكتار . وفي البلاد الخاضعة مباشرة للاتراك يذهب موظف او وكيل الحاكم فيطوف في الارياف ليحدد عدد الافدنة المزروعة . وهناك ضريبة تحل محل العشور في المناطق نصف البدوية في الانجاد وهي غير محددة وتؤخذ عينا او نقدا ، وتسمى المؤونة والغرامة .

وهناك ضرائب اخرى متعددة : كالعوايد وهي بمثابة هدايا اجبارية تقدم في المناسبات كالاعياد مثلا . وهناك « اللزمة » وهي ضريبة تؤخذلتموين الجند في الارياف . وهناك ضرائب المكوس على الاسواق . ويدفع سكان المدن ضرائب متنوعة تنوع المهن ، يحددها امين كل مهنة . وهناك « الحكر » اي كراء املاك الدولة .

ويجري تقدير كميات الضرائب بصورة اعتباطية لتأمين حاجات الادارات المركزية والمحلية . وكانت كل الوظائف التي لها علاقة بالضرائب او الرسوم او الغرامات تُلزَم من قبل الدولة بمبالغ مقطوعة . واذا كان لنظام الالتزام ميزة تأمين موارد محددة للخزينة فانه كان بؤرة لكثير من المفاسد والعيوب والمصادرات والنهب تقع جميعها على عاتق الاهالي . كانت الضرائب ثقيلة على المكلفين قليلة الفائدة على الدولة ، لان الجباة على اختلاف مراتبهم كانوا يعوضون انفسهم عن المبالغ التي دفعوها ثمنا لمناصبهم ويعملون في الوقت نفسه لتأمين مبلغ يساعدهم على الاحتفاظ بهذا المنصب او تأمين مستقبلهم اذا ما عزلوا . وهكذا كان الفلاح يدفع مثلي او ثلاثة امثال الضريبة المقررة عليه .

ولم تكن جباية هذه الضرائب تجري بصورة اعتيادية حتى في الاحوال

الطبيعية حين لا يكون هناك عصيان ، فقد كانت قوة عسكرية صغيرة او كبيرة – حسب الظروف – ترافق الجباة وتساعدهم ، وكانت الجباية بصورة عامة اشبه بالغارة ، والامتناع عن الدفع يعتبر عصيانا خطيرا ويقمع بقسوة شديدة ، ففي سنة ١٥٥٢ قمع صالح ريس ثورة من هذا النوع ، فقام بمجزرة ووضع رئيس الثورة على فوهة مدفع واطلقه فتناثرت اشلاؤه(١).

ولم تكن موارد الضرائب بصورة عامة كبيرة ولا ثابتة وتتفاوت تبعاً لاوضاع البلاد الاقتصادية المتخلفة والمتقلبة حسب المواسم ، ولهذا كانت خزينة الدولة تعتمد على موارد اخرى : كان لها حصة من مرابح القرصنة، وتفرض على الدول الاوربية أتاوات مقابل حرية مرور سفن هذه الدول • وكانت الدول كلها مضطرة الى دفع هذه الاتاوة السنوية ، وتختلف مقاديرها من دولة لاخرى تبعاً للظروف في الجزائر او في هذه الدول • وكانت الهدايا التي يقدمها القاصل للداي اشبه بجزية مقنعة • وكانت هذه الدول تلجأ احيانا الى استخدام القوة لتحرر نفسها من هذه الاتاوات ولتفرض على الجزائر بالقوة احترام سفنها • وقد تعرضت الجزائر في سبيل ذلك لاكثر من هجوم ، ولكن هذه الهجمات كانت في أغلب الاحيان غير مجدية ، وتقابلها السفن الجزائرية بهجمات عنيفة فتضطر هذه الدول الى قبول الامر الواقع • وهذه المعارك البحرية هي الوجه الآخر للمعارك البرية المتعلقة بمسائل الضرائب ، وقد لوحظ ان موارد القرصنة بدأت تقل منذ القرن الثامن عشر ، وان الدول الاوربية صارت اكثر قوة ، وبالتالي اكثر امتناعا عن الدفع •

الحالة الاقتصادية :

لم يكن للدولة اي اسهام في النشاط الاقتصادي للبلاد ، فرغم اهتمام الجزائر بالبحر لا نجد للدولة اثراً في انشاء الموانى

(1) M. Colombe : Initiation A Alger.

الصالحة للتجارة ، وكان ميناء الجزائر هو الميناء الوحيد الصالح للتجارة في حين كانت باقي الموانى مهملة • وقد بدأ اهتمام الحكومة بميناء الجزائر منذ ايام خير الدين ولكن هذا الاهتمام لم يكن بقصد التجارة بل لايجاد مرسى آمن لسفن القرصنة • ولم يكن هناك اي اهتمام من جانب الدولة بالسدود المائية في بلد يعيش في طقس غير منتظم ، وكان هذا الامر منوطا بمبادرة الاهالي انفسهم ، الذين كانوا يكتفون بانشاء سدود ترابية او خشبية بسيطة كانت عرضة للانهيار في اوقات الفيضانات • واكتفى الاتراك بالاهتمام بتوفير مياه الشرب للمدن التي كانوا يقيمون فيها •

وكانت الطرق سيئة ، ولا يوجد طرق ممهدة ، وطرق المواصلات التي كانت موضع اهتمام السلطات هي تلك التي تؤمن الاتصال بين الجزائر وبين وهران وقسنطينة وتسمى « طريق السلطان » • ولم تكن العربات مستخدمة ويجري النقل بواسطة الجمال او البغال على طرق وعرة لا يهتم بها احد • وقد افاد الجزائريون من ذلك في مقاومتهم الفرنسيين الذين اعوزتهم الطرق للعربات والمدافع(١) •

ولم تتدخل الدولة لتحسين وسائل الزراعة البدائية ، ولم تسهم في الوقاية من الاضرار الطبيعية ، او الآفات الزراعية التي كانت تتعرض لها البلاد بصورة مستمرة • أو في التعويض او المشاركة في تحمل الاضرار الناجمة عن الكوارث الطبيعية والاوبئة والمجاعات المتتالية • كذلك عجزت الدولة عن القيام بواجبها الاساسي وهو توفير الامن • وكان الاسهام الوحيد للدولة سلبيا ومدمرا ، فقد احتكرت شراء المحاصيل وبيعها كما بالغت في فرض الضرائب وجبايتها •

وبسبب هذا كله لم تكن الجزائر سوقا اقتصادية واحدة متكاملة • كما انها لم تعرف خلال العهد العثماني التوازن الاقتصادي ، فقد كان الاقتصاد

(1) Claude Martin : Histoire de l'Algerie Française P. 69

الجزائري يمر بدورات متتالية من الراحة – ولا نقول الازدهار – في حالات المواسم الخصبة ، كان ينتقص من قيمتها كثرة الضرائب والفوضى وانعدام الامن ، وبدورات من الازمات الخانقة بسبب القحط والكوارث الطبيعية (فيضانات – زلازل) والبشرية (اوبئة ، غارات القبائل ونهب المحلات الحكومية) •

ويمكن تقسيم الجزائر الى ثلاث قطاعات اقتصادية واجتماعية : قطاع المدن ، قطاع المناطق نصف المتحضرة ، قطاع المناطق الصحراوية والبدوية •

وبالرغم من ان قطاع المدن كان من أرقى القطاعات الا انه كان اقلها اهمية • اذ انه لم يكن يضم الا حوالي ٥ – ٦٪ من السكان • وقد تأثر وضع المدن بتقلب الاحوال السياسية وبامكانات المنطقة الاقتصادية المحلية ، وبالعلاقات الاقتصادية الداخلية والخارجية • ولهذا فقد عدد من المدن اهميته السابقة وازدهرت مدن جديدة • فقد اضاعت مدينة تلمسان اهميتها السياسية والاقتصادية والثقافية التي كانت لها ولا سيما في العصر الزياني ، وتأثرت وهران بالاحتلال الاسباني الذي استمر حتى سنة ١٧٩٢ ، فتوقفت تجارتها مع تلمسان والداخل ، وطبق الاسبان فيها نظام الاحتكار الذي كانوا يفرضونه في مستعمراتهم ، واقتصرت التجارة على استيراد العائدات الضرورية لتموين الحامية الاسبانية[1] • وبالرغم من ان وهران اصبحت مركز بيلكية الغرب بعد تحريرها فانها لم تفد من مركزها الجديد • وقد لاحظ الفرنسيون الذين نزلوا وهران سنة ١٨٣١ ان عدد سكانها مع ضواحيها لايتجاوز ٩ آلاف نسمة ، وان قسما من المدينة كان مخربا • وفقدت بجاية ازدهارها خلال الاحتلال الاسباني ١٥٠٩ – ١٥٥٥ ولم تستعده ابدا • وتردى وضع تنيس التي كانت مقر امارة قضى عليها الاتراك وتأثرت تأثراً شديدا بسبب الغاء

(1) Revue Africaine 1942 P. 222

تجارة الحبوب في بداية القرن السابع عشر • وظلت قسنطينة سوقا داخلية ناشطة لها علاقات تجارية واسعة مع تونس والجنوب الصحراوي وباقي بيلكيات الجزائر •

وافادت عنابة من وجود مراكز تجارية اجنبية فيها كانت تشتري الجلود والاصواف والحبوب • وكانت مدينة الجزائر والمناطق التابعة لها مباشرة افضل المناطق من النواحي السياسية والاقتصادية •

بنى الامير الزيري بولوجوين في النصف الثاني من القرن العاشر ميلادي مدينة الجزائر على انقاض مدينة رومانية قديمة (ايكوزيوم) وصف البكرى بعض آثارها الباقية • وسميت المدينة الجديدة « الجزائر » بسبب جزرها الصخرية الاربع • ويشير الرحالة المسلمون الى ازدهار الجزائر ونشاطها التجاري بين القرن العاشر والثاني عشر ميلاديين • يذكر البكري ان مرسى الجزائر مأمون تقصد اليه السفن من افريقية والاندلس وغيرها[1] • ويلاحظ الادريسي ان الجزائر كانت عامرة آهلة وتجارتها رابحة واسواقها قائمة وصناعاتها نافقة[2] • وكان ميناؤها يستقبل التجار المسلمين وغير المسلمين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر • وقد نشطت فيها القرصنة ولاسيما أثر تدفق الاندلسيين بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ • وخضعت منذ القرن الرابع عشر لقبيلة ثعلبة العربية التي كان رؤساؤها يتقلبون بمهارة بين بني عبد الواد والحفصيين والمرينيين • وتغير مصير الجزائر عندما بنى الاسبان قلعة على احدى الجزر الصخرية المواجهة لها ، فلجأوا الى طلب مساعدة القرصان عروج ، هذه المساعدة التي كانت بداية السيادة التركية • وفي سنة ١٥٢٩ تخلص خير الدين من القلعة الاسبانية واستخدم الاسرى المسيحيين في انشاء مرسى جديد بطول ٢٠٠ م وعرض ٢٥ م وارتفاع ٤ م يصل الجزيرة الصغيرة بمدينة الجزائر ، فاوجد بذلك ميناء الجزائر الحديث

(١) البكري المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٦٦ •
(٢) عبد الرحمن بن محمد الجيلاني : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٢٣٣ •

ليكون قاعدة الاسطول الجزائري الرئيسية • وكان الخشب اللازم لبـ
السفن يجلب من بلاد القبائل الصغرى او من السويد والنرويج كهـ
مفروضة ، وكذلك الحال بالنسبة لباقي الأدوات والأشرعة اللازمة لصنا
السفن • واصبحت الجزائر منذ عصر خير الدين من اهم مراكز القرص
في البحر المتوسط ، والمركز الرئيسي للتجـارة في المغـرب الاوسـ
بسبب سياسة الاحتكار • فقد كانت الحكومة تحتكر تصدير المنتجات المحلي
مما كان يؤثر تأثيرا شديدا على نشاط جميع الموانئ الاخرى •

وعرفت مدينة الجزائر في القرنين السادس عشر والسابع عشر ازدهار
اقتصاديا واسعا • وقد ذكر مؤلف جزائري من القرن الثامن عشر ان مدين
الجزائر ازدهرت في اواخر القرن السابع عشر وتنوعت فيهـا المسـرا
وازدادت الارباح الى درجة يمكن مقارنتها بسورية ، وكان كل شيء فيه
جداً ورخيصا[1] • وقد انعكس هذا الثراء على حركـة العمران الجميـ
ضمن المدينة وفي ضواحيها حيث عني الأثرياء ببناء دارات جميلة وسط بساتين
اعتبرت اجمل بساتين العالم[2] ولكن المدينة بدأت تتأثر بضعف القرصنة
وازدياد عمليات القصف ولا سيما عمليات القصف الفرنسيـة في اواخر
القرن السابع عشر •

وكان سكان الجزائر خليطاً من عناصر متعددة : اتراك ، قولوغلي
اندلسيين ، عرب ، بربر ، علوج ، تجار واسرى اجانب ، قبائليين واناس من
الجنوب الصحراوي يكونون الطبقـة العاملة في البيـوت والحقول وفي
الحرف الصغيرة • وكان في المدينة جالية يهودية محليـة قديمة بائسة ،
وأخرى جديدة هاجرت الى الجزائر منذ اواخر العصور الوسطى من اسبانيا
وايطاليا وفرنسا وانكلترة • وكان خير الدين قد سمح لليهود بالاقامـ

(1) Delplin J. A. 1922 P. 162 - 233
(2) F. Braudel P. 698

الدائمة في الجزائر وما لبثوا ان حصلوا بسرعة على نفوذ كبير في الميادين
التجارية ولا سيما في تصريف اسلاب القرصنة التي لم يكن بالامكـان
استهلاكها في الجزائر • واعتبارا من القرن الثامن عشر كان يهود ليفورن
يحتلون المركز الاول واشتهرت منهم عائلتا بكرى وبوشناخ اللتان حصلتا
بفضل مهارتهما في القضايا المالية والتجارية وخبرتهما بأحوال دول البحر
المتوسط وعلاقاتهما الخارجية ، على نفوذ كبير في الاوسـاط الحكوميـة
الجزائريـة • كان كوهين بكرى المكنى بن زاهوت رئيس بيت تجاري
ليفورني وقد افتتح حوالي سنة ١٧٧٠ مستودعاً في الجزائر • وبعد بدايـة
متواضعة ازدهرت المؤسسـة حين اشترك فيهـا الابن البـكر جوزيف
سنة ١٧٨٣ مع اخوته الثلاثة مردوش وسليمان ويعقوب كما اشترك فيها
ابنه دافيد وصهره الليفورني نفتالي بوجناح أو بوشناخ •

وكان نفتالي بوشناخ من اسـرة تجاريـة جاءت الى الجزائـر سـنة
١٧٢٣ • وهو مدين بثروته لخدمات قدمها لباي تيطري مصطفى وزنجي •
فخلال زيارة مصطفى الى الجزائر ولخوفه من ان يعزله الداي أو ان يقتله
عمد الى الاختفاء في مكان ما في الجزائر ولم يجرؤ أحد من أصدقائه عـلى
رؤيته • وكان بوشناخ الوحيد الذي ظل على اتصال به يشجعه ويمده بما
يلزمه • وأقرضه مبلغاً كبيراً من المال كان لديه أمل ضعيف باسترداده ،
وحصل له على رضى الداي وساعد على تعيينه باياً على قسنطينة • وكثمن لهذه
المساعدة سلم مصطفى لبوشناخ تجارة بيلكية قسنطينة كلها وجعله امين سره
ومستشاره فأصبح اقوى رجل في البيلكية لايمكن شراء شيء الا بموافقته •

ويروي حمدان بن عثمان خوجا كيف وصل بوشناخ بسرعة الى الثراء
الفاحش فيقول ان مصطفى رغب ان يقدم هدية الى امرأة الداي فكتب الى
بوشناخ بذلك فقدم بوشناخ حلية طلب ثمنها ٣٠٠ الف فرنك في حين انها
كلفته في باريس ٣٠ الف فرنك • ولما لم يكن الباي مصطفى يملك المال

اللازم فقد سدد ثمنها مقداراً من القمح بسعر ٤ فرنكات للوزنة الواحدة ، وهكذا حصل بوشناخ على ٧٥ الف وزنة قمح باعها الى فرنسة بسعر ٥٠ فرنكاً للوزنة فحصل على ربح ٣٫٥ ملايين فرنك(1) .

واستغل هؤلاء اليهود ثراءهم ومصاعب الدايات المالية، واطلاعهم الواسع على أحوال الدول الأوربية بواسطة أعوانهم المثبثين في كل موانىء البحر المتوسط ، واطلاعهم الواسع على أحوال الجزائر الداخلية بواسطة اعوانهم من التجار الصغار الذين كانوا يطوفون المدينة بيتاً بيتاً ، الامر الذي اتاح لهم تقديم معلومات هامة خارجية وداخلية للدايات وقد منحهم ذلك نفوذاً لاحد له على الدايات ، ولا سيما الداي حسن باشا ، ومصطفى باشا الذي كان يدين بمنصبه لنفتالي بوشناخ الذي رفعه من كناس على باب وكيـل الخرج الى خزنجي ثم ساعده على تسلم منصب الداي سـنة ١٧٩٨ . واستحق بوشناخ على ذلك لقب « ملك الجزائر » الذي اطلق عليه من قبيل الهزء(2) . وبفضل هذا النفوذ الكبير تسلمت مؤسسة بكري – بوشناخ زمام السياسة الخارجية ، فأصبحت علاقات النيابة الخارجية تتم بواسطتهم وصار لهم كلمة مسموعة في امور الحرب والسلم . وكان مبعوثو الدول بما فيهم مبعوثو السلطان يتصلون بهم ويخطبون ودهم . كتب القنصل الفرنسي جان بونسانت اندري : « ... هل بامكان البعض ان يتصور ان كل تجارة المتوسط ستقع بأيدي يهوديين جزائريين ؟ الحق ان هذا صحيح ... اي مكان هام لا نجد فيه وكلاء لبكري وبوشناخ : قرطاجة ، مرسيلية ، جنوه ، ليفورن ، نابولي ، ازمير ، الاسكندرية ، تونس وغيرها . انهم يتمتعون في كل هذه الأمكنة بقليل او كثير من القوة حسب طبيعـة الحكومات وحسب المصلحة التي كان عليهم ان يسيطروا عليها . وكانوا يعدون الدول الأوربية

(1) G. Esquer : La prise d'Alger P. 19 - 20

(2) G. Esquer : La Prise d'Alger P. 50

الصغرى بالصلح وينقذونه . واذ استاؤوا من هذه الدول اعلنوا عليها الحرب . هل يتعلق الأمر بافتكاك الأسرى ؟ انهم كانوا الوسطاء . اذا ضايقهم تاجر اوربي طردوه ، وتفشل السلطة القنصلية امام رصيدهم . ان سبب تضاؤل نفوذنا في برباريا هو تزايد رصيد اليهود . والانكليز مدينون لهم بما حصلوا عليه ، ولم يكن بامكان الامريكان أن يظهروا في هذه البحار بدونهم . واخيراً فانهم يعدون بسرية ويتابعون باصرار مشروعاً لاخضاع تونس للجزائر ، مقنعين في برباريا نظاماً جديداً سيكون مدمراً لفرنسة .. »(1) . كان بكري وبوشناخ أكثر حذراً في السياسة الداخليـة في بادىء الأمر ولكن تزايـد نفوذهم شجعهم على التمادي والعمل على المكشوف ، فصار بامكانهم تعيين البايات وعزلهم وحتى قتلهم . واصبح تردد بوشناخ على قصر الداي في اي وقت من النهار أو الليل أمراً معروفاً . وقد ادى هذا الشطط الى قيام ثورة سنة ١٨٠٥ ضد اليهود وضد صنيعتهم الداي مصطفى . ففي هذا العام كانت البلاد تعاني من مجاعة مخيفة حمل الشعب بحق مسؤوليتها لليهود بسبب احتكارهم تجارة الحبوب وتسلطهم على الداي وعلى شؤون النيابة الداخلية والخارجية . وقد بدأت الثورة برصاصة أطلقها جندي على بوشناخ حين كان خارجاً من قصر الجنينة ، فاعتبره الجند بطلاً حرر البـلاد من الطاغيـة ، واشترك الجند والشعب في مهاجمة المحلات اليهودية وانتهى الأمر الى قتل الداي مصطفى نفسه . ولكن اليهود سرعان ما استعادوا مركزهم ونفوذهم .

ومن الصعب اعطاء تقدير دقيق لعدد سكان مدينة الجزائر . وقد قدر الاب هايـدو عددهم في اواخر القرن السادس عشر بـ (٦٠) الفاً وقدر عـددهم في القـرن السابع عشـر بـ (١٠٠) الف . وقدرهم فانتورا دي بارادي في القرن الثامن عشر بـ (٥٠) الفاً ، وكان عددهم لدى وصول الحملة الفرنسية سنة ١٨٣٠ (٣٠) الفاً .

(1) G. Esquer : La Prise d'Alger P. 50

وبالرغم من ان نشاط القراصنة كان يؤثر على علاقات الجزا
الخارجية فان التجارة الجزائرية لم تتأثر من هذا النشاط بقدر تأثره
بسياسة الحكومة وضعف الموارد . فقد حالت تجزئة البلاد والثورا
الداخلية وفقدان الطرق وتخلف وسائل المواصلات دون قيام سوق داخل
نشيطة • كما اثرت سياسة الاحتكار والقيود على التصدير على النشا
التجاري ، فقد كانت الحكومة تحتكر تصدير المنتجات المحلية كالجل
والشمع والصوف ، وكان تصدير الزيت والجلود ممنوعا الا للدولة العثمان
وكان تصدير الحبوب والمواشي خاضعاً لاذن خاص • ولكن التجار الاجان
لم يكونوا يتقيدون بقوانين المنع ، وكان اليهود يحتكرون بالاتفاق مع
الحكومة التجارة الداخلية . وكانت مؤسسة بكري وبوشناخ تحتكر وحده
ثلثي التجارة وتتحكم في فرض اسعار الشراء والبيع ، فتشتري المنتجا
المحلية بارخص الاسعار من الاسواق والفنادق المخصصة للقوافل او من
المستودعات التي كانت تجمع فيها حاصلات الضرائب العينية ، وتبيع هذ
البضائع بثلاثة أو أربعة امثال سعر الشراء ، سواء في الخارج او في الداخل ،
وكانت تشتري الصوف من القبائل الصحراوية بسعر زهيد وتبيعهم الحنطة
بسعر مرتفع ، لا يهمها سوى الربح الفاحش حتى في أوقات المجاعة •
وكان لسيطرة اليهود على السوق الداخلية آثار مدمرة ، ادت الى قيام ردود
فعل عنيفة ضدهم ولا سيما ايام المجاعات •

كانت الزراعة الجزائرية في تراجع مستمر ، فقد تقلصت المساحات
المزروعة اثر الاضطرابات التي عصفت بالمغرب الاوسط منذ القرن الثالث
عشر ، وتأثرت بصفة خاصة بتدفق قبائل بني هلال وسليم ، فتحولت كثير
من المناطق المزروعة الى مناطق قفر • ولم تتحسن الزراعة في العهد العثماني
بسبب انعدام الامن وسياسة الحكومة الضرائبية وجهل الفلاح وبدائية الادوات
الزراعية وتقلب الطقس • كانت مساحات زراعية واسعة تترك بوراً كما ان
السهول المزروعة زراعة سيئة تحولت تدريجاً الى اراضي مستنقعة • ولم

تكن القبائل تزرع الا جزءا من الارض يكفي لسد حاجاتها الضرورية
لان التوسع في المساحات الزراعية لم يكن ليعطي مردودا اقتصاديا بسبب
سياسة الحكومة الضرائبية وسياسة الاحتكار • ولهذا كله كانت الجزائر
محرومة من الفائض المخزون ، وعرضة على الدوام لانتشار المجاعة • كتب
فانتورا دي بارادى « ... ليس هناك اكثر بؤسا من حياة الناس الذين كانوا
يعيشون في ارياف وجبال الجزائر .. »

كانت بلاد القبائل منطقة زراعية يكثر فيها الزيتون والتين بصفة خاصة ،
ولكنها كانت منطقة كثيفة السكان يسكنها حوالي ٣٠٠ الف نسمة ، ولهذا
لم يكن بامكانها الاكتفاء بمواردها الزراعية فعوضت هذا النقص بالاعتماد على
بعض الصناعات المحلية • وتؤلف الهجرة البشرية وتصدير الزيت والصناعات
المحلية عناصر ضرورية في حياتها الاقتصادية •

وتعتمد قبائل الجنوب على انتاج التمور وتربية المواشي ، وكانت
مضطرة الى المجيء الى التل بصورة دورية لتبادل صوفها وقطعانها وبلحها
مقابل الحبوب •

الفصل الثالث

علاقات الجزائر الخارجية

لم يكن للجزائر سياسة خارجية متزنة . وقد تأثرت علاقاتها الخارجية بصورة عامة بالتقلبات الداخلية ، وتقلبات السياسة الاوربيــة ، وبنشــاط القرصنة . ولم تكن الجزائر تتقيد في علاقاتها الخارجية باتجاهات السياسة الخارجية العثمانية وان تأثرت بها ولا سيما في عصر البكلربكوات في القرن السادس عشر .

العلاقات الجزائرية التونسية :

بالرغم ان البلدين كانا تابعين للدولة العثمانية فان العلاقات بينهما لم تكن ودية ، يسودها العداء والصراع . وبصورة عامة يمكن ارجاع اسباب هذا العداء الى الصراع على النفوذ بين حكام النيابتين ، والى مشاكل الحدود التي كانت تؤدي الى عمليات غزو واسعة . وربما كان هذا الصراع امتدادا لتقاليد تاريخية : فقبل الفتح العثماني كانت الحكومات القائمة في تونس تسعى على الدوام لاخضاع المغرب الاوسط لنفوذها او احتلالها ، وكانت تصطدم مع القوى المحلية او مع القوى المغربيــة التــي كانت هي الاخرى تحاول بسط نفوذها او سيادتها على المغرب الاوسط . ولكن دخول الاتراك الى الجزائر قلب هذه الاوضاع التاريخية ، فقد انتقلت الجزائــر – التــي

اصبحت قاعدة الحكم العثماني في شمالي افريقية – الى وضع الهجوم وصارت تسعى الى اخضاع كل من تونس والمغرب للسيادة العثمانية وبالتالي لنفوذها هي . واذا كانت الجزائر قد فشلت في اخضاع المغرب فانها نجحت بمساعدة قوات عثمانية في القضاء على الدولة الحفصيــة واخضاع تونس التــي ظلت مرتبطة بها بين سنتي ١٥٧٤ - ١٥٨٧ ، اي حتى نهاية عصر البكلربكوات حين اصبحت تونس باشوية مستقلة تتبع مباشرة للسلطان العثماني . ولكن حكام الجزائر لم يكفوا كلما سنحت لهم الفرصة عن محاولة التدخل في الشؤون التونسية حتى نجحوا في القرن الثامن عشر في فرض نفوذهم ، الذي تمثل باقامة وكيل جزائري في تونس ، وفي فرض بعض الشروط الاقتصاديـة عليها لصالح حكام الجزائر . ولعل مما سمح للجزائر بالتدخل في الشؤون التونسية طبيعة الحكم في البلدين ، فبالرغم من ان الحكم لم يكن مستقرا في الجزائر الا ان التغيرات كانت تقع في نطاق افراد لاتربطهم صلة يتولون السلطة ويعزلون بارادة الجنـد ، في حين قامت في تونس حكومات اسـر (الاسرة المرادية في القرن السابع عشر والاسرة الحسينية منذ القرن الثامن عشر) وكان الصراع بين افراد هذه الاسر الحاكمة التونسية يخلق مناخا مناسبا للتدخل الجزائري . حيث كان المتنافسون يلتمسون مساعدة حكام الجزائر ضد خصومهم من افراد اسرتهم . وقد حاولت الدولة العثمانيـة اكثر من مرة التدخل لتسوية النزاعات التونسية الجزائرية دون جدوى .

بدأ النزاع بين الجزائر وتونس في مطلع القرن السابع عشر ،بسبب الخلاف على الحدود وبتحريض احد المتسلطين التونسيين في (الكاف) . وقد انتصر الجزائريون في معركة (السطارة) سنة ١٦٢٨ ، ثم عقد الصلح بتدخل عدد من اعيان تونس اوفدهم يوسف داي [1] . وتدخل الجزائريون اكثر من مرة في القرن السابع عشــر مستغلين منازعات الاسرة المراديـة .

---

(١) ابن ابي الضياف ج ٢ ص ٣٣ .

ولجأت كل من الجزائر وتونس في اواخر هذا القرن لاقحام نيابة طرابلس والمغرب في منازعاتهما ، فتحالفت الجزائر مع طرابلس وتحالفت تونس مع المغرب . وفي اوائل القرن الثامن عشر تدخل السلطان مصطفى لايقاف النزاع ولكن باي تونس « مراد » رفض هذا التدخل وظل مصمما على مهاجمة الجزائر واوفد أغا الصبحية (السباهية) ابراهيم الشريف الى تركية ليجمع له جندا . ولكن السلطان اوعز الى ابراهيم الشريف بالتخلص من مراد باي ، ونجح ابراهيم في القضاء على الاسرة المرادية .

واستأنف الجزائريون تدخلهم في عهد الاسرة الحسينية مستغلين تنافس افرادها وطلبهم المساعدة الجزائرية . ونجحوا في احتلال مدينة تونس سنة ١٧٣٥ بعد ان هزموا الباي حسين بن علي مؤسس الاسرة ، ونصبوا ابن اخيه (علي باي) بدلا منه . واعترف علي بالتبعية للجزائر وقبل دفع مبلغ كبير من المال وكمية من القمح كل عام .

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر اخذ التدخل الجزائري طابعا جديدا . فقد تدخل باي قسنطينة سنة ١٧٥٦ ونجح في الاستيلاء على الكاف واسر الباي علي ، ولكنه امتنع عن تسليمه الى منافسيه اولاد حسين بن علي . ويقول ابن ابي الضياف ان باي قسنطينة لما رأى حسن البلاد وخصبها واخلاق اهلها وطاعتهم للامراء كاتب داي الجزائر يبشره بالنصر ويصف له حاضرة تونس ، وبعث له مفاتيحها ، وخيره بين ان يستولي على المملكة ويضمها الى الجزائر ويأتيه بالباي علي واولاد عمه ليرى رأيه فيهم ، او يترك البلاد لصاحبها الباي علي على ضريبة يؤديها للجزائر كل سنة . ولكن الداي رفض هذه المقترحات لان « ... الاوجاق الثلاثة تونس والجزائر وطرابلس من ممالك السلطنة العلية العثمانية ونحن على طاعتها ولو صحت هذه الضريبة من المال في الاسلام يكون سلطان المسلمين اولى بها ... »[1]

(1) ابن ابي الضياف ج ٢ ص ١٥٣ - ١٥٤ .

ومع ذلك يشير ابن ابي الضياف[1] انه كان للجزائر وكيل في تونس وان الجزائريين بعد هذا التدخل صار لهم « ... ادلاء (ادلال) الى ان تغلب لما عدمهم من الزبون (المساومة ووسائل الضغط) على اولاد الباي حسين . وكان الباشا علي باي يعاني من مداراة ولاة الجزائر وقسنطينة وتجرع من مرارة منهم وتغلبهم وتعللهم ما يستفز غضب الحليم ولا تحمله النفوس الانسانية ... »[2] .

وكان داي الجزائر وباي قسنطينة يشترون الانعام ويرسلونها للبيع في تونس « ... بثمن يلوح بالاشارة اليه فتعطل اهل البلاد عن بيع انعامهم حتى يباع ما أتي من الجزائر او قسنطينة ، والذي يموت من تلك الانعام في الطريق تدعي رعاته انه سرق منهم في ارض تونس فيزاد ثمنه على الثمن المطلوب ... »[3] . وقد دفع هذا كله حمودة باي ١٧٧٧ - ١٨١٣ الى محاولة التخلص من هذا الوضع ، فاستغل لجوء باي قسنطينة اليه واعلن الحرب على الجزائر سنة ١٨٠٧ . هاجم التونسيون قسنطينة ولكنهم فشلوا في احتلالها واضطروا الى الانسحاب ، كما فشل الجزائريون في الهجوم على تونس فانتقل الصراع الى البحر . وفي سنة ١٨١١ انتصر الاسطول الجزائري على الاسطول التونسي وفي سنة ١٨١٢ هاجم الجزائريون حلق الوادي بحراً ولكن الهجوم فشل ، كما فشل هجوم جزائري على الكاف . وتدخل السلطان محمود لعقد الصلح بين النيابتين ولكن الداي علي رد على مبعوث السلطان « نحن اسياد في بلدنا ولا نتلقى اوامر من أحد » . فأمر السلطان بحجز السفن الجزائرية والرعايا الجزائريين ، وابلغ الداي انه اذا لم يطع أوامر السلطان في الحال فانه سيرسل اسطوله ليأتيه برأس الداي

(1) ويذكر ابو القاسم الزياني مثل ذلك انظر الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(2) ابن ابي الضياف ج ٢ ص ٣٧ .

(3) ابن ابي الضياف ج ٣ ص [illegible] .

الماضي . فاضطر الداي الى الامتثال وعقد الصلح[1] . ولكن الصلح لم يطل ذلك لأن باي تونس الذي شجعته الاضطرابات في بايلكية قسنطينة رفض تنفيذ أحد شروط الصلح وهو تدمير حصون الكاف . وفي سنة ١٨١٦ عقد صلح آخر ولكنه لم يدم طويلا . واستؤنف القتال سنة ١٨٢٠ في البحر ، وتدخلت الدولة العثمانية سنة ١٨٢١ لعقد الصلح بين الطرفين . ولكن العداء ظل قائما . وهذا يفسر الموقف الودي الذي اتخذه باي تونس من الحملة الفرنسية وتقديمه لها المساعدات التموينية ، ومنعه قوة تركية قادمة من مصر من الوصول الى الجزائر[2] .

العلاقات الجزائرية ـ الاسبانية :

رأينا كيف نجحت اسبانيا في احتلال عدد من الموانئ الجزائرية ولكنها لم تسع الى مد احتلالها الى داخل الجزائر واكتفت بهذا « الاحتلال المقصور » . ويفسر جوليان[3] امتناع اسبانيا عن استغلال تفوقها العسكري في مد فتوحاتها الى الداخل بارتباط سياسة اسبانيا الافريقية بسياستها الاوربية ، والى ان المسألة الافريقية انتقلت الى الدرجة الثانية من اهتمامات اسبانيا ، فقد كانت انظار فرديناند ملك اسبانيا متوجهة بصفة خاصة نحو البيرنه وايطاليا ، كما ان وضع الخزينة الاسبانية المضطرب كان يمنع الاسبان من تدخل لا يجنون من ورائه مكاسب مباشرة .

اكتفى الاسبان بنظام الاحتلال المقصور وحولوا الموانئ التي استولوا عليها الى قلاع حصينة كانت على الدوام تعيش بحالة حصار . وكان عصر البكلربكوات عصر الصراع الحاد بين الاتراك والاسبان بحرا وبرا ، ونجح

(1) De Grammont : P. 372

(2) G. Hardy : Histoire des colonies françaises et de l'expansion de la France dans le monde. tome III la tunisie P. 387

(3) Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du nord tome 2 P. 252

الاتراك في هذا العصر في تحرير الموانئ الجزائرية باستثناء وهران والمرسى الكبير اللذين تأخر تحررهما حتى القرن الثامن عشر .

عمد الاسبان الى تحصين وهران باسوار قوية منيعة لم يحاولوا التوسع خارجها وكانت الحامية الاسبانية تعتمد في تموينها على ما يصلها من اسبانية من جهة وعلى غنائم الغارات على القرى العربية المجاورة من جهة اخرى . وكان الاسبان قد جذبوا اليهم عددا من القبائل البدوية كبني عامر وبني راشد وانشأوا فرقا خاصة Cuodrilla del campe لشن هذه الغارات . وكانت هذه الفرق تعتمد على جواسيس من اهل البلاد يسمون المغطسين (المعمدين)، كانوا يتجولون في المناطق المجاورة ويجمعون المعلومات حول اوضاع القرى او القبائل . وعندما كانوا يجدون قرية او مضارب قبيلة سهلة المأخذ بسبب ضعف الحراسة كانوا يزودون الفرق الخاصة بهذه المعلومات ، فتسارع هذه لشن غارات مفاجئة تقتل وتأسر وتسبي وتنهب وتعود بسرعة الى وهران ، مخافة هجمات معاكسة . وقد حولت هذه الغارات حياة المناطق العربية الى جحيم حتى ان اهل القرى المجاورة لم يكونوا يجرأون على النوم في بيوتهم مخافة الهجمات الليلية المباغتة ، فيمضون الليل في خيام في الجبل ويعودون الى قراهم في النهار ، وفرض الاسبان على القبائل المجاورة ضريبة عينية من الحبوب . وبالرغم من هذا فان وضع الحامية الاسبانية ظل صعبا وظلت بحاجة الى مؤن من اسبانية . وقد ساعد اضطراب الاحوال الداخلية في الجزائر في القرن السابع عشر الاسبان على الاحتفاظ بهذا المركز ولكن استقرار الاحوال نسبيا في الجزائر في القرن الثامن عشر ، واضطراب احوال اسبانية الداخلية في هذا القرن ، ساعد الجزائريين على استرداد وهران . وفي مطلع القرن السابع عشر قام الاسبان بمحاولتين فاشلتين للنزول على البر الجزائري وكان هذا ناجماً عن الخوف من مساعدة الأوجاق الجزائري لثورة الأندلسيين الباقين في اسبانية ، التي كانت تعد في الخفاء بمساعدة هنري الرابع بالاعتماد على الجزائر .

وفي اواخر القرن السابع عشر حاولت اسبانية ، بعد ان انضمت الى صفوف اعداء فرنسة ، ان تعقد الصلح مع الجزائر فقدمت هدايا للجزائر لأول مرة من بينها سيف آخر ملوك غرناطة وعرضت تقديم مساعدة سنوية مالية طيلة مدة الصلح وهي سبع سنوات ، ولكن كره الجزائريين للأسبان ودسائس فرنسة احبطت المحاولة .

واستغل الجزائريون في اوائل القرن الثامن عشر فرصة انشغال اسبانية في حرب الوراثة الاسبانية فأوعز الداي محمد بكداش الى باي معسكر مصطفى ابو الشلاغم (شوارب) بمهاجمة وهران وارسل له نجدات قوية فهاجمها سنة ١٧٠٧ وضيق عليها الحصار حتى ارغم الاسبان على الاستسلام ١٧٠٨ . وأسر الجنود الجزائريون ٢٠٠٠ اسباني بينهم ٢٠٠ ضابط ، وعدداً من فرسان مالطة . ونقل الباي مقره من معسكر الى وهران . ولكن الاسبان ظلوا يحاولون استرجاع وهران حتى نجحوا سنة ١٧٣٢ في استعادتها . ترك سقوط وهران بيد الاسبان اثرا عميقا في نفوس الجزائريين ، وادى الى وفاة الداي عبدي حزناً على هذه الكارثة بعد ان اتهمه الجيش والجند أنه أهمل تحصين وهران وتأخر في ارسال الجند . وبين ١٧٣٢ - ١٧٣٥ دارت معارك عنيفة دون جدوى ، وكان الداي أحمد كما يقول ابن ابي الضياف ، يرد على من يحرضه على تونس «... هلموا الى وهران ...» ويقول «... قبل ازالة معرة وهران لا نلتفت الى شيء ...» . وقد تلقت الجزائر سنة ١٧٣٤ عرضاً انكليزياً يقوم على حصار الاسطول الانكليزي وهران بحراً في الوقت الذي يهاجمها فيه الجزائريون من البر ، وذلك مقابل منح الانكليز حق اقامة مؤسسة في المرسى الكبير . وقد وافق الداي الا أن قنصل فرنسة نبه الجزائريين الى أن الانكليز أخطر على الجزائر من الاسبان وادى رفض الجند للعرض الانكليزي الى تراجع الداي(١) .

(1) De Grammont : P. 293

وكان السلطان قد وعد الجزائر بارسال نجدة لاسترجاع وهران ولكنه لم ينفذ وعده لانشغاله بالحرب مع الروس (١) . وكان عهد الداي محمد عثمان باشا المعروف بالمجاهد عهد صراع عنيف مع الاسبان ، وشدد الاسطول الجزائري هجماته على السواحل الاسبانية حتى لجأ اهلها الى الجلاء عنها والفرار الى داخل البلاد وبلغ عدد الاسرى الاسبان عشرة آلاف اسير (٢) .

رأت اسبانية أن وضعها الصعب في وهران لايمكن التخلص منه الا بتدمير الجزائر ، فقررت توجيه حملة كبيرة ضد الجزائر سنة ١٧٧٥ تألفت من ٤٠٠ سفينة و ٢٥ الف جندي اسندت قيادتها الى الضابط الارلندي اوريلي ، نزلت عند مصب وادي الحراش . وكان الداي محمد قد حصن الجزائر تحصيناً جيداً ودعا القبائل الى الجهاد واخطر البايات ان يكونوا على قدم الاستعداد للتحرك نحو الجزائر في اية لحظة . كانت المقاومة عنيفة وخلال أقل من خمس ساعات فقد الاسبان ١٨٠ ضابطاً و ٢٠٨٨ جندياً بين قتيل وجريح ، وطوق المهاجمون من كل صوب ونفذت الذخيرة وظهر التعب على الاسبان . فقررت القيادة الانسحاب الى السفن . وكان صدى هذا الفشل كبيراً في الجزائر وكل افريقية الشمالية وتغنى الشعراء بهذا النصر كما جاء في الزهرة النيرة . واحيط المجاهدون بهالة من الأساطير ظلت شائعة حتى اواخر القرن التاسع عشر . وقد تجلى في هذه المعركة اجماع الجزائريين على المقاومة ، فقد تدفق المحاربون من كل حدب وصوب وقدر عددهم بـ ٥٠ الفاً بحضور بايات قسنطينة وتيطري ونائب باي معسكر . وعندما علم داي الجزائر باستعدادات اسبانية جديدة عمل على تقوية وسائل الدفاع وارسل ابن أخيه الى السلطان العثماني يحمل هدايا ثمينة ، وعاد هذا محملاً بالهدايا وبعض المواد اللازمة لصناعة السفن .

(1) De Grammont : P. 294

(٢) محمد بن عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر ص ١١٠ .

ولتجنب المخاطر حملها وعاد معها على سفينة فرنسية • ولكن الاسبان اعترضوا
السفينة واسروا المبعوث الجزائري وحمولة السفينة • استغل الاسبان وجود
هذه الشخصية الهامة لديهم فحاولوا استغلالها للتقرب من الجزائر، فأحسنوا
معاملة الأسير واطلقوا سراحه واعادوه محملاً بالهدايا وبالمواد المصادرة ،
ولكن هذه المحاولة لم تثمر ورفض الداي عروض الصلح •

وزاد وضع الحامية الاسبانية سوءاً في وهران فهي محصورة وراء
الاسوار على الدوام تفتك فيها الأوبئة ويعصف بالجند الحنين الى الوطن ولم
يكن الجند يقبضون رواتبهم بانتظام ولا يحصلون الا على القليل وتنقصهم
الضروريات ، ويعاملون بقسوة شديدة حتى وصلوا الى غاية الارهاق المادي
والمعنوي ، وصار أملهم الوحيد الهرب من هذا الجحيم • وكان الوقوع في
أسر الجزائريين يعتبر خلاصاً بالنسبة للكثيرين منهم •

حاول شارل الثالث ملك اسبانية تكوين حلف مع البرتغال والامارات
الايطالية تحت رعاية البابا بيوس السادس ولكنه فشل • واملت اسبانية بعد
انتصارها على الانكليز خلال حرب الاستقلال (في جزر البليار) ان تكون
الجزائر اكثر تساهلاً في موضوع الصلح • وبعد ان عقدت معاهدة مع
السلطان ارسل هذا مبعوثاً الى الجزائر ليمهد لعقد الصلح مع اسبانية• ولكن
الداي ظل متمسكاً بالرفض ، واجاب أنه يعلم ان ملك اسبانية يهيء حملة
ضد الجزائر وانه (اي الداي) لايرغب ان يظهر بمظهر الخائف • وحينئذ
قررت اسبانية اللجوء الى السلاح وفي سنة ١٧٨٣ ارسلت اسطولاً قصف
الجزائر دون جدوى • وبعد ان فرغت ذخيرة الاسطول وبدأ بالانسحاب
هاجمته السفن الجزائرية • ولم يحقق الهجوم اغراضه ونجح الداي محمد
في اعادة التحصينات وتقويتها • ولما عاود الاسبان الهجوم سنة ١٧٨٤ لم يكن
قد بقي شيء من اثر الهجوم الأول • كان الهجوم الثاني سنة ١٧٨٤ يضم
اسطولاً اضخم اشتركت فيه نابولي ومالطة والبرتغال وباركه البابا • ولكن
السفن الجزائرية تصدت للاسطول في عرض البحر واحبطت الهجوم بعد

معركة ضارية ولم تصب المدينة بأذى على عكس الهجوم الأول وذلك بفضل
بطولة السفن الجزائرية التي تصدت للمهاجمين وحملت العبء عن المدينة .

وفي سنة ١٧٨٥ جاء وفد اسباني للمفاوضة من اجل الصلح ، ولم
يكن في الجزائر من يرغب فيه ، ومع ذلك نجحت المفاوضات بمساعي
فرنسا • وبعد سنة من المفوضات وقع الصلح الذي فرض على اسبانية مبلغاً
كبيراً من المال وتم الاتفاق على اخلاء وهران والمرسى الكبير•ولكن تسليمهما
تأخر لأن بلاط مدريد كان يريد أن يحصل على شروط تجارية مجزية
ولكن الجزائر رفضت منحه شيئا ، لأنها ادركت ان اسبانية تتعطش لاخلاء
هذين المركزين اللذين صارا عبئاً عليها يكلفانها الملايين من المال والآلاف
من الرجال •

وفي سنة ١٧٩٠ حدث زلزال كبير دمر كل بيوت وهران وتحصيناتها
وكنائسها ودفن اكثر من ثلاثة آلاف شخص تحت الانقاض واشتد تضيق
الجزائريين على المحاصرين إبان هذه النازلة • ووصلت نجدة اسبانية قوية
ولكنها لم تغير الموقف • ولو أن الداي أرسل نجدة الى باي معسكر لسقطت
وهران ولكن الداي خشي من طموح الباي وكان يعتقد بموجب المفاوضات
أن الاسبان سيخلون وهران ، ولهذا رفض ارسال النجدة • ونتيجة لما الحقه
الزلزال من دمار وبسبب سوء حالة الحامية الاسبانية وخشية من التكاليف
الباهظة التي تتطلبها اعادة بناء التحصينات نصح المجلس الملكي الملك باخلاء
وهران وباقي المراكز الاسبانية مقابل مستودع في وهران وفي سنة ١٧٩١
وصلت سفارة اسبانية الى الجزائر فشلت في مهمتها لأن الداي رفض التنازل
عن شيء • ولكن حسن الذي كان كخليفة للداي محمد الذي اقعده عجزه
وكبر سنه عاد فقبل منح الاسبان اقامة مستودع قرب جامع الغزوات وسمح
لهم بشراء كمية من القمح كل عام وصيد المرجان على الساحل الغربي ،وتم
الجلاء سنة ١٧٩٢ • كلف هذا الاتفاق الأسبان الكثير لأنه فرض عليهم

الجلاء ودفع مبلغ من المال سنوياً ، وان يعيدوا من قرطاجة المدافع والذخيرة التي نقلوها من وهران كما فرض عليهم شرطاً مخزياً وهو ان يقوموا بأنفسهم بنقل مفاتيح وهران الذهبية الى استنبول مع جرتين من ماء نبع وهران[1] .

العلاقات الجزائرية ـ الفرنسية :

قامت العلاقات بين الجزائر واوربة عامة وبينها وبين فرنسة بصورة خاصة لمعالجة عدة موضوعات ناجمة عن نشاط القرصنة وافتكاك الاسرى والتجارة .

تميز القرن السادس عشر بالتعاون التركي ـ الجزائري ـ الفرنسي في مجال القرصنة . وقد ادى الاسطول الجزائري بصفة خاصة خدمات جلى لفرنسة ابان صراعها المرير ضد امبراطورية شارلكان . ولكن استقلال الجزائر الفعلي عن الدولة العثمانية حرر الجزائر من الارتباط بالسياسة العثمانية واطلق يدها في البحر المتوسط . وتكرر الصدام بين السفن الجزائرية والفرنسية مما ادى الى اتصالات ديبلوماسية مباشرة بين فرنسة والجزائر وقيام حالات حرب بينهما .

ويشغل موضوع الاسرى فصلا هاماً في العلاقات بين البلدين . ولابد ان نلاحظ انه مثلما كان هناك اسرى مسيحيون في الجزائر ، كان هناك اسرى مسلمون لدى الاوربيين ولا سيما في ايطالية ومالطة . وقد وجد نابليون سنة ١٧٩٨ حين احتل مالطة الفين من الاسرى المسلمين . وكان الاسرى من الطرفين يعملون كمجدفين على السفن الاسلامية والمسيحية ويقول جوليان : ان الاسرى المسيحيين كانوا يعاملون بقسوة اقل من الاسرى المسلمين الذين يجدفون على السفن الفرنسية ، لان المسلمين لم يكونوا يسمونهم بالحديد

(1) De Grammont : P. 344

الحمى ، وكانوا يسمحون لهم بممارسة عبادتهم[1] . ويقول القنصل الامريكي في الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر (شيلر) « ... لقد سمح للذين كان يؤتمن عليهم من الهرب بممارسة الاعمال المربحة حتى ان بعضهم ترك الجزائر آسفا ، واشتغل بعضهم الآخر في الحكومة ، وكانت ابواب السجون تفتح للرهبان الذين يتصلون بالاسرى بحرية تامة ....»[2] وكان من يدفع مبلغا شهريا يستطيع التجول بحرية في المدينة ليلاً . ولم يكن هناك اكراه للاسرى على تغيير دينهم . وكان البعض يتحول الى الاسلام رغبة في الاشتراك في نشاط القرصنة والحصول على مرابح ومراكز كانت مفتوحة لهم بما فيها اعلى المراكز في النيابة . وكان المسلمون يمنحون العبيد المسيحيين الذين يعملون في الحقول والبيوت عطلة يوم الاحد . وسمحوا للرهبان بزيارة الاسرى والاشراف على الطقوس الدينية كما سمحوا باقامة الكنائس في معتقلات الاسرى الست في الجزائر . ولاشك في ان تركيز الكتاب الغربيين الكبير على موضوع الاسرى المسيحيين ومبالغاتهم في وصف القسوة التي تنزل بهم واغفالهم امر الاسرى المسلمين يعود الى مارواه او كتبه الاسرى الذين افتدوا ، وكان بينهم عدد من الشخصيات البارزة ، كالاب هايدو الذي الف كتاباً عن الجزائر ، والشاعر الاسباني فيجيل دي سيرفانتس مؤلف « دون كيخوت » الذي ظل اسيرا في الجزائر مدة خمسة اعوام حتى افتداه احد آباء الترينيتية « جوان سبيل دي فالانس » . وقد أشار سيرفانتس الى حياة الاسر وخصص لها كوميديتين « معتقلات الجزائر Les bagnes d'Alger وحياة الجزائر La Vie d'Alger كما تعرض لوضع الاسرى في كتابه دون كيخوت »[3]

(1) Ch. A. Julien : Historie de l'Afrique du Nord P. 280

(٢) الدكتور صلاح العقاد : المغرب في بداية العصور الحديثة : ص ٧٨ .

(3) J. Debu - et Marc Benoist : La guerre qui paye Alger 1830 P. 25 - 26

وكان للمؤسسات الدينية التي انصرفت الى مهمة افتداء الاسرى كطائفة الترينيتة ، ونوتردام دولامرسي ، والعازاريين ، اثر كبير في المبالغة والتهويل في هذا الموضوع ليهزوا عواطف الناس ويحصلوا على تبرعات كانت تضاءل باستمرار . وقد نجح العازاريون في ادخال الفكرة الدينية في السياسة الفرنسية ، وظلوا لفترة يقومون بمهمة القناصل الفرنسيين في الجزائر ويتدخلون في المفاوضات المتعلقة بالاسرى . ويبدو انه لم يكن لدى المسلمين مثل هذه المنظمات المماثلة ولعلها لم تكن لتلق ، فيما لو وجدت ، التسامح والحرية اللتين لقيتهما المؤسسات المسيحية . ولا نجد في الادب الجزائري في موضوع الاسرى ما يقابل الادب الاوربي . واذا كانت الحكومات المغربية تهتم خلال المفاوضات بموضوع الاسرى ، فانها كانت تلقى تعنتا من الاطراف الاوربية ولا سيما الفرنسية ، كما في عصر لويس الرابع عشر ، وذلك لحرص الفرنسيين على التمسك بالمجدفين اللازمين لبحريتهم .

اما في ميدان التجارة ، وبالرغم من ان دور الجزائر لم يكن معادلا لدور اساكل الشرق ، بسبب حالات الحرب والقرصنة ، وضعف الموارد الاقتصادية الجزائرية ومنافسة المركز التجاري الفرنسي ، وبالرغم من الاخطار التي كان التجار الاوربيون يتعرضون لها في اوقات الفتن والاضطرابات ، فان تجارا من مختلف الامم الاوربية كانوا يعيشون في الجزائر في كل وقت . وكانت الدول الاوربية حريصة على استمرار علاقاتها التجارية مع الجزائر . وكان المرجان والصوف والجلود والحبوب ، رغم القيود المفروضة على تصديرها ، أهم ما تصدره الجزائر بالاضافة الى التمور والتين والعنب المجفف . وكان التجار الفرنسيون يتاجرون في اغلب الاحيان ، بالتواطؤ مع القناصل ، بحاصل الاسلاب التي يبيعها لهم اليهود .

نشأت العلاقات التجارية بين الجزائر وفرنسة منذ العصور الوسطى وقبل ان تتوحد فرنسة في ظل التاج الملكي . وكان ذلك بواسطة مدن الجنوب الفرنسي وخاصة مونبليه وآرل ، ومرسيلية . كتب بنجامين

دوتوليد سنة ١١٧٠ ان مونبليه كانت مكانا ملائما حيث كان المسلمون والمغاربة والمسيحيون يأتون للتجارة . وكانت الموانئ المفتوحة لتجار فرنسة الجنوبية هي : وهران وتنيس وبجاية والجزائر . وكان لوهران ، وكانت ميناء تلمسان ، اهمية كبيرة . ولكن حروب المئة عام في فرنسة والازمة السياسية والاقتصادية التي عصفت بالجزائر منذ القرن الرابع عشر ، اضعفت هذا النشاط التجاري . وبرزت مرسيلية منذ مطلع القرن السادس عشر بصورة خاصة ، اذ احتكرت التجارة الفرنسية في المتوسط وخاصة مع شمالي افريقية .

ويسجل دخول الجزائر في اطار الدولة العثمانية بداية عهد جديد ، فقد قام تعاون فرنسي تركي اشبه بالتحالف سنة ١٥٣٥ ، تلاه تعاون فرنسي جزائري . وكان من اهم نتائج هذا التعاون ، الذي استمر طيلة عهد الكلربكوات ، حصول فرنسة على امتيازات خاصة على الشواطئ الجزائرية الشرقية تتعلق بالتجارة واحتكار صيد المرجان . ويكتنف الغموض اصل هذه الامتيازات ، ويرجعها بعضهم الى النصف الثاني من القرن الخامس عشر حيث حصل البروفانسيون من الرؤساء المحليين على امتياز صيد المرجان بين طرقة وبجاية[1] . ولكن الحادث الذي كان له اثر حاسم في العلاقات الجزائرية الفرنسية كان التعاون العثماني الفرنسي ضد شارلكان . ويشير معظم الكتاب الفرنسيين الى ان معاهدة ١٥٣٥ بين فرانسوا الاول والسلطان سليمان قد نظمت العلاقات بين فرنسة والدولة العثمانية عامة وبين تونس والجزائر وفرنسة خاصة ، ولا سيما في ما يتعلق بصيد المرجان والسمك . الا انه ليس هناك وثيقة كاملة عن معاهدة ١٥٣٥ . ويرى رونوفان انها فيما يبدو كانت مشروعا عثر عليه لدى السفير الفرنسي جان لافوري لم يكن عليه اي توقيع[2] . ولا نجد في هذا النص تخصيصا عن الامتيازات

(1) J. Debu - Bridel et M. Benoist : P. 29
(2) P. Reuouvin : Histoire des relations internationales P. 69

الفرنسية في الجزائر[1] ، وربما كان هذا موضع مباحثات خاصة مع خير الدين او خلفائه وعلى اي حال فان استغلال مثل هذا الامتياز لم يتحقق فعلا يبدو الا في النصف الثاني من القرن السادس عشر • ويشير هاردي الى ان ملك فرنسة عندما كلف نيكولا نيكولاي (جغرافي الملك) بمرافقة السفير الفرنسي الى استنبول زار الشاطئ الافريقي من الجزائر الى عنابة فلم يجد الا [illegible] وسفينة بروفانسية يقودها ريس كورسيكي قدم للسفير الفرنسي بعض المرجان كهدية • واطلق على الشركة المرسيلية التي تولت استغلال الامتياز اسم شركة المرجان نظرا للدور الذي كان المرجان يلعبه في التجارة العالمية • وقد لاحظ بول ماسون ان دور المرجان لم يكن يقل عن دور العنبر في القديم ، وله اهمية كبيرة في التجارة مع الشرق الاقصى بصورة خاصة حيث كان الاسيويون عامة والهنود خاصة يقدرونه تقديرا عظيما . تكونت هذه الشركة على يد الاخوان لنش من تجار مرسيلية • وكانت اشتراك اشخاص اكثر منه اشتراك رؤوس اموال • ولكن الخلاف ما لبث ان دب بين الشركاء [كما أن العلاقات بدأت تتوتر بين فرنسة والجزائر منذ اواخر عصر البكلربكوات ، وكان لقضية ترشيح الدوق دانجو لعرش الجزائر اثر في هذا التوتر • ويشير هاردى وغيره انه في ايام شارل التاسع وبعد معركة ليبانت خطر ببال سكان الجزائر الذين اضطهدهم الاتراك ان يطلبوا ملكا من فرنسة سنة ١٥٧٢ ، وان ملك فرنسة شارل التاسع اخذ هذا الطلب مأخذ الجد وكلف سفيره في استنبول ان يتفاهم مع السلطان في هذا الموضوع وان يعرض عليه ترشيح دوق دانجو • وفي الحقيقة ليس هناك ما يدعم هذا القول سوى ادعاء شارل التاسع نفسه كحجة يبرر بها طلبه الذي كان يهدف منه ابعاد اخيه • وقد بدا هذا الطلب غريبا حتى للسفير الفرنسي الذي رأى استحالة موافقة الباب العالي على مثل هذا المشروع الذي

---

(١) انظر نص المعاهدة
Hurewitz : Diplomacy in the Near and Middle East P. 1-2-3-4-5

الرعايا المسلمين تحت سلطة امير مسيحي • وابتهل السفير الفرنسي الى الله ان يعطي ملك فرنسة مزيدا من الفطنة والحكمة ، كما يقول هاردى ، ويحاول ان يقنع مليكه بالعدول عن هذه الفكرة مبينا له ان التحالف التركي الفرنسي اكثر فائدة لفرنسة من تبعية الجزائر الموقتة • ورأى السفير الفرنسي انه من الواجب ازالة اوهام الدوق دانجو وعدم تشجيعه • وانه حتى لو كان الفرنسيون على وفاق مع الاهالي العصاة فلا يمكن البقاء في الجزائر ما لم يوافق صاحب الامر اي السلطان • واضطر السفير ازاء الحاح مليكه الى عرض المشروع على السلطان ، مؤكدا ان الملك الجديد سيكون تابعا له ، وسيدفع الجزية السنوية وانه سيبذل جهده ليحمي البلاد من خطر فليب الثاني •

وقد ماطل السلطان ، ووضح السفير انه غير موافق ، فبدأ هذا يسعى لتحويل نظر حكومته نحو سهول الفلاندر الخصبة بدلا من صحارى الجزائر ، واخذ عرش بولونية بدلا من عرش الجزائر •

[وتأثرت العلاقات الفرنسية الجزائرية بمسلك شركة لنش صاحبة الامتياز التي كانت - كما يقول جوليان - تتصرف وكأنها في بلد محتل مخالفة الاتفاقيات[1] • ففي حين كان الامتياز يقضي بالسماح للشركة باقامة مستودع كبير للتجارة (وقد استخدمت كلمة Bastion للدلالة على هذا المستودع) ، فسر الفرنسيون كلمة مستودع بمعنى حصن • ورغبوا في تحويله الى قلعة عسكرية لحماية تجارتهم من غارات القبائل ، كما انهم انصرفوا الى تصدير الحبوب • وزاد الامر خطورة عندما تحول المشروع منذ سنة ١٦٠٢ على يد هنري الرابع الى الدولة واصبح رئيس (الباستيون) موظفا ملكيا واصبح (الباستيون) نفسه قلعة للملك • ازاء هذه المخالفات

---

(1) Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord P. 289

امرت حكومة الجزائر بتدمير الباستيون سنة ١٦٠٤ • وتدخلت فرنسة لدى السلطان العثماني لتعيد انشاء الباستيون ولكن وساطة السلطان ظلت غير مجدية • وارسلت فرنسة مبعوثا خاصاً الى الجزائر ولكنه فشل في اقناع حكومة الجزائر باعادة الامتياز •

وتوسع الخلاف بين الطرفين منذ ١٦٠٩ بسبب القرصان سيمون دانسا. كان سيمون فلمندياً مارس القرصنة في الجزائر منذ سنة ١٦٠٦ - وكان امثاله كثيرين من المغامرين الذين تجذبهم الرغبة في الاثراء السريع - وحصل على ثروة كبيرة ولقي ترحيباً كبيراً لدى الجزائريين بالرغم من انه ظل محتفظاً بعقيدته • ولمع سيمون بسرعة بسبب جرأته ونجاح مغامراته ، ففي أقل من ثلاث سنين أسر اربعين سفينة وطارت شهرته بين الجزائريين الذين علمهم استخدام السفن العالية • وكان بامكان سيمون أن يصبح ابرز زعماء الطائفة لو أنه اعتنق الاسلام ، ولكنه آثر الاحتفاظ بعقيدته ، وكان قد تزوج امرأة من مرسيلية ورغب في الاستقرار بها بعد مغادرة الجزائر • التمس سيمون من ملك فرنسة السماح له بالاقامة في مرسيلية ووافق الملك على هذا الطلب بشرط ان يعمل سيمون على تحرير عدد من الآباء الجزويت كان سيمون قد أسرهم سنة ١٦٠٨ على سفينة إسبانية وبيعوا حسب العادة في المزاد العلني • ونجح سيمون في استرداد الجزويت وهرب من الجزائر مستصحباً معه مدفعين من البرونز كان حاكم الجزائر قد اعارهما له ليسلح سفينته • وقدم سيمون هذين المدفعين الى الدوق دي غيز وكان قد وضع نفسه تحت حمايته • أثار هذا العمل استياء كبيراً في الجزائر ، وأرسل الديوان احتجاجاً الى البلاط الفرنسي وطالب برد المدفعين ومعاقبة سيمون ولكن فرنسة لم تعر هذا الاحتجاج اي اهتمام • وبدأت السفن الجزائرية تطارد السفن الفرنسية والحقت بالتجارة الفرنسية اضرارا فادحة • وفي سنة ١٦٢٠ قرر تجار مرسيلية تسوية الموضوع وعزموا على شراء المدفعين وردهما للجزائر • ولكن حادثا جديدا عقد القضية : فبينما كان وفد

جزائري يجري مفاوضات في مرسيلية من اجل تسوية العلاقات ، قام قرصان جزائري بقتل بحارة احدى السفن المرسيلية الصغيرة، وتمكن اثنان من هؤلاء من الهرب وعادا الى مرسيلية حيث نشرا الخبر • فهاجم الاهالي الغاضبون الفندق الذي كان يقيم به الوفد الجزائري وقتلوا اعضاء الوفد رغم مقاومة السلطات الفرنسية • وبالرغم ان البرلمان اصدر احكاما قاسية على القتلة فان السفن الجزائرية عاودت هجماتها الواسعة على السفن الفرنسية، وتكبدت التجارة الفرنسية خسائر فادحة • وتشير الوثائق الى أنه خلال ثماني سنوات استولى الجزائريون على أكثر من ٩٣٦ سفينة ولم تعد السفن الفرنسية تجرؤ على مغادرة موانئ الجنوب وتعطلت من جراء ذلك تجارة الشرق (١) •

بعثة سانسون نابولون :

تأثرت العلاقات الجزائرية الفرنسية بمجيء ريشيليو الذي اعار هذا الموضوع اهتماما كبيرا ووقع اختياره على مواطن كورسيكي الاصل هو سانسون نابولون اوكل اليه سنة ١٦٢٦ مهمة عقد الصلح مع الجزائر •

ادرك سانسون انه من العبث الاتفاق مع الباب العالي والباشوات ولذا ركز جهوده على رؤساء الطائفة والاوجاق • وبعد ان هيأ سانسون الجو في الجزائر عاد الى فرنسة وحصل على امر من الملك بتحرير الاسرى الجزائريين ، واشترى مدافع سيمون دانسا واعادهما الى الجزائر سنة ١٦٢٨ • وتم توقيع (الصلح الابدي) في اجتماع رسمي • وينص هذا الاتفاق على احتكار التجارة وصيد المرجان في منطقة الامتياز السابقة ، ويجوز لسفن الشركة الملاحة في موانئ منطقة الامتياز بدون ترخيص ، ويمنع سفن الدول الاخرى من الاتجار فيها ، وسمح للشركة باعادة بناء المراكز المهدمة لتقي نفسها من غارات البدو وعصابات الماجورقيين والمنورقيين • ولا يعني

(1) De Grammont : P. 160

اعادة انشاء المباني المهدمة تحويل الباستيون الى مركز عسكري لان هـ
الاتفاق يجدد الامتياز السابق الذي لاينص على اقامة تحصينات ، وحصل
الجزائر على مبلغ سنوي (لزمة) ١٦ الف ليرة تصرف على الجند الذ
تمكن سانسون بمهارته من أن يجعل منهم حلفاء ، و ١٠ آلاف ليرة للخزينة.

سمى سانسون نفسه حاكما للباستيون وأعاد بناءه ، وأنشأ ميناء
حقيقيا واستدعى صيادي المرجان • وبين ١٦٢٨ – ١٦٣٣ عرفت المؤسسا
الفرنسية ازدهارا لم تعرفه قط من قبل بالرغم من منافسة التجار الفرنسيين
الاحرار ودسائسهم • الا ان سانسون لم يكن مخلصا للاتفاق وكانت لديه
اهداف سياسية تختفي تحت المسائل التجارية ، فقد بعث سنة ١٦٢٩ بمذكرة
الى الحكومة جاء فيها « ... ان هذا المكان (الباستيون) بالغ الاهمية فهو
يصلح في مناسبات عدة كملجأ لسفن الملك ، كما يمكن أن يستخدم يوما ما
كمرحلة اولى نحو فتح الجزائر ، واذا تولى امر الامتياز رجل حصيف فانه
يستطيع بالتدريج ودون ان يشعر احد ان يحصنه بحيث يصبح عسيرا على
الترك ان يخرجونا منه ... » • كما اشار سانسون الى كره الجزائريين
للاتراك وامكانية استغلال هذا الكره ، والتفاهم مع القبائل • ولم يتقيد
سانسون بالاتفاق فاقام قلعة حقيقية جعل منها قاعدة تجسس لمعرفة ما يحدث
في الجزائر ، وقاعدة تموين لرجال الحرب الذين كان يدعو الملك لانزالهم،
ولم يتقيد بشرط الاقتصار على صيد المرجان والتجارة المسموحة بل انصرف
الى تصدير الحبوب التي تعهد بعدم الاتجار بها • كانت نهاية سانسون فاجعة
فقد طمع بانتزاع طرقة من الجنويين ، وكانوا قد حصلوا عليها من خير
الدين كفدية لطرغوت سنة ١٥٤٠ ، فقتل أثناء الصدام سنة ١٦٣٣ • وجه
مقتل سانسون ضربة قاسية للامتيازات الفرنسية ، فقد تنازع الفرنسيون
المقيمون في الجزائر مع قائد الباستيون الجديد سانسون ليباج ، كما ان
تحويل الباستيون الى مركز عسكري زادت من مخاوف الجزائريين.وصدف
ان ضبط الجزائريون سفينتين فرنسيتين محملتين بالحبوب المهربة ، فقرر

الديوان تهديم الباستيون سنة ١٦٣٧ • لكن هذا العمل دفع رئيس قبيلة
الحنانشة ، وكان له صلات خاصة مع الشركة ويجني ارباحا كبيرة من
التجارة معها ، الى اثارة قبيلته ، وربط بين عودته الى الطاعة وبين اعادة
الباستيون • وفي سنة ١٦٤٠ تجدد الاتفاق ، وسمح بموجبه باقامة بعض
التحصينات في مناطق معينة لحماية مراكز الشركة من السفن العدوة ومن
البدو • ويدل هذا الاتفاق على رغبة الجزائريين بالتساهل والمصالحة ولكنه
مع ذلك لم يضع حدا للمشاكل لأن « ... المطامع التي يدعمها كبار السادة
والمنافسات بين اهل ليون ومرسيلية ، وتدخل الاسطول الفرنسي ستحول
دون قيام تفاهم وطيد ... » (1)

عصر لويس الرابع عشر :

تميزت الفترة الاولى من هذا العصر ، اي فترة الوصاية حين كان
الكاردينال مازاران يدير سياسة فرنسة ، تميزت بتأثير الطوائف الدينية
ولا سيما العازاريين على السياسة الفرنسية •

كانت فرنسة قد حصلت منذ ١٥٦٤ على حق تعيين قاصل لها في
الجزائر ولكنها لم تتمكن من استخدام هذا الحق حتى سنة ١٥٨٠ ، بسبب
مقاومة حاكم الجزائر • كان معظم القناصل الاوائل تجارا تعينهم غرفة تجارة
مرسيلية •

وفي سنة ١٦٤٦ اشترت الدوقة ديجيون D'Aiguillon هذه المهمة
واعطتها للاب العازاري (سان فانسان دوبول) الذي كان قاصدا رسوليا
ومنظما لكنيسة افريقية •

ومنذ ان انفرد لويس الرابع عشر بالسلطة تأثرت السياسة الفرنسية
ازاء شمالي افريقية بدوافع عديدة، منها ما يرتبط بشخصية لويس ومفهومه
الخاص عن السياسة الداخلية والخارجية، ومنها ما يتعلق بسياسته الاوربية،

(1) Ch. A. Julien : Histoire de l'Afrique du Nord P. 283 - 284

كان عصر لويس الرابع عشر العصر الذهبي للحكم المطلق ...
يوجه شؤون الدولة العليا بنفسه وهو القائل « الدولة انا » ، وكان واسع
الطموح مصابا بداء العظمة والغرور يريد ان يكون الملك الشمس ، ليس في
فرنسة وحدها بل في اوربة • وفي سبيل تحقيق مكاسب لفرنسة واسم
لشخصه زج فرنسة في سلسلة من الحروب حققت له بعض المكاسب الارضية
مقابل تضحيات بشرية ومالية باهظة •

وكان لويس كاثوليكيا متعصبا وفي الوقت نفسه انتهازيا ، اضطهد
البروتستانت واظهر تعاليا وعجرفة سخيفة في تعامله مع حكام افريقية • وفي
حين احتفظ بصداقة تركية لفائدتها له في سياسته الاوربيـة ، كان
يميل الى استخدام القوة ازاء شمال افريقية ليكسب صفة البطل الصليبي من
جهة وليفرض رغباته علـى حكامها من جهـة اخرى • وقـد ادت
سياسته الرعناء هذه الى الحاق افدح الاضرار بسمعة فرنسة وتجارتها في
شمال افريقية كله •

تميز عصر لويس بالاهتمام الكبير الذي ابداه وزيره كولبير في مسائل
البحر والاستعمار والتجارة ، ومن هنا كان اهتمامه بشمال افريقية • كان
كولبير يربط كل شيء بالتجارة ، ومن اجل ارضاء التجار الفرنسيين عمل
على انتزاع القنصلية من العازاريين بعد ان فشل هؤلاء في ارضاء التجار ،
واعادها الى التجار • وانقاد كولبير لرغبات انصار القوة من فرنسيي الجزائر
الذين كانوا يرغبون في (رفع العصا) ولكنه كان يتستر بالدوافع الدينية
مطبقا نصيحة ليبنز في مذكرته الشهيرة عن احتلال مصر التي الح فيها على
ضرورة « .... اخفاء الوثني والنافع تحت مظاهر المقدس والشريف ..... »
ولهذا نرى فرنسة ، بدلا من ان تستجيب لنداء البابا بالحرب الصليبية ضد
الاتراك في هنغارية وكريت ، تحتفظ بالصداقة التركية المفيدة لها في اوربة
وتقوم بحملاتها الصليبية ضد الجزائر لتحقيق مكاسب تجارية • وقد اظهر
كولبير في المسألة الافريقية تعنتا وارادة سيئة تجلت بتمسكه بالاسرى المسلمين

مخافة ان ينقص عدد المجذفين في السفن الفرنسية ، بالرغم من ان الجزائريين
اطلقوا سراح الاسرى المسيحيين وكان هذا من اهم اسباب النزاع •

حملة جيجل سنة ١٦٦٤ :

كان لويس وكولبير يميلان الى اتباع سياسة القوة مع شمال افريقية
عامة ومع الجزائر خاصة • وكان كولبير يرغب في تصفية الحساب مع
الجزائر ، لا بتوجيه حملة بحرية اليها فقط ، وانما باحتلال دائم لاحد
موانيها • وقد اقترح المهندس دوكليرفيل احتلال بجاية ولكن الاميرال دي
بوفور فضل ميناء جيجل ، بحجة انه يمكن استخدامه امثل ضد الجزائر
وتونس معا ، لوقوعه قرب التقاء حدود البايلكين ، ولان جيجل كانت - كما
تصور دي بوفور - تقع وسط اراض خصبة يمكنها تموين الحامية الفرنسية
دونما حاجة الى فرنسة • ولكن اختيار دي بوفور كان سيئا ، ذلك ان احتلال
جيجل لن يؤدي الى نتيجة لانها محاطة بالجبال وليس لها منفذ الى الداخل ،
هذا بالاضافة الى تجاهل واضعي المشروع قوة رد الفعل الجزائري •

وفي سنة ١٦٦٤ قاد الاميرال دي بوفور اسطوله المؤلف من ٦٠ سفينة
تحمل ٧ آلاف رجل • ونجحت الحملة في الاستيلاء على جيجل رغم
المقاومة العنيفة التي لاقتها ، ولكن الخلاف دب بين قائد الحملة كادان وبين
قائد الاسطول دي بوفور ، وتعرضت الحملة الى هجمات شديدة فاضطرت
الى الانسحاب تاركة / ١٤٠٠ / قتيل ومئات المدافع • وقد اججت هـذه
الحملة روح العداء بين الدولتين •

وفي سنة ١٦٦٥ قاد دي بوفور حملة بحرية ثانية ضد الجزائر وشرشال
لتغطية الفشل السابق • وفي سنة ١٦٦٦ وقع الطرفان اتفاقا سوى موقتا
المشاكل بينهما ، واتفقا فيه على تبادل الاسرى • اعلن الاتفاق من جديد
ارجحية القناصل الفرنسيين على غيرهم من قناصل الدول الاخرى • واستأنف
الباستيون نشاطه • ولكن فرنسة لم تكن مخلصة في هذا الاتفاق الذي قبلت

به موقتا بسبب انشغالها في حروب القـارة ، وسـاعد الاب العازاري لوفاشيه على تحسين العلاقات ، وكان موضع ثقة دايات الجزائر الذين قدروا فضائله ورغبته الصادقة في احلال السلام بين البلدين ، وقد سعى الداي الى ابعاد القنصل الفرنسي السخيف دارفيو واعادة ايكال القنصلية الى الاب لوفاشيه وقد خاطب الداي القنصل دارفيو ساخرا « ... ان وظيفتكم قليل بالنسبة لشخصكم العظيمة ، وبامكان الاب لوفاشيه القيام بكل مايلزم ان غيابكم لن يفسد شيئا ..... »

حملات دي كسن :

بعد صلح نيميجين ١٦٧٨ وعودة الهدوء النسبي في القارة الاوربية عادت فرنسة الى سياسة القوة ازاء الجزائر ، وبسبب اسر الفرنسيين لعدد من البحارة الجزائريين ومطالبة الجزائر افتكاكهم ، جرت مفاوضات رغبت فيها فرنسة باضافة شروط جديدة على اتفاق سنة ١٦٦٦ ، وذلك بالنص على عدم استرقاق الاسرى الفرنسيين في حالة ما اذا اخذوا من سفن غير فرنسية ـ وكان الفرنسيون اذ ارادوا القرصنة تستروا بالعمل تحت راية دولة اخرى ـ وامتدت المفاوضات حتى سنة ١٦٨٠ ، واستقبل الداي بعثة فرنسية وابدى استعدادا طيبا للاتفاق ، وقام باطلاق سراح الاسرى الفرنسيين ، ولكن فرنسة رفضت تسليم الاسرى المسلمين فاعلنت الجزائر الحرب ، وبدأت السفن الجزائرية تهاجم السفن الفرنسية ملحقة بها اضرارا فادحة .

وفي سنة ١٦٨٢ وجه لويس الرابع عشر حملة بحرية كبيرة تضم مئة سفينة بقيادة دي كسن فيها زوارق تقذف النار الحارقة كانت تستخدم لاول مرة في الاسطول الفرنسي ، وامر لويس قائد الاسطول بحرق الجزائر وتدميرها عن بكرة ابيها ، تدفعه الرغبة في الانتقام من جهة واظهار قوة السفن الحربية الفرنسية من جهة اخرى .

قصف دي كسن شرشال اولا ثم تحول الى الجزائر ، فقصفها شهرا

كاملا ، وبالرغم من الدمار الذي الحقه القصف بالمدينة فانه لم يحقق سوى نتائج بسيطة ، واستؤنف القصف سنة ١٦٨٣ دون انذار مسبق ، توسط الاب لوفاشيه لدى دي كسن الذي عامله بفظاظة واتهمه انه تركي اكثر منه مسيحي ، وطلب رهائن قبل ايقاف القصف واجراء المفاوضات ، ونجح لوفاشيه في جلب الرهائن ، وحين بدأت المفاوضات طلب دي كسن من الداي رد جميع الاسرى ودفع غرامة كبيرة ، وافق الداي على تسليم الاسرى وطالب بتخفيض الغرامة ، وقام بالفعل بتسليم الاسرى ولكن مسألة الغرامة التي طلبها دي كسن أخرت الوصول الى اتفاق نهائي ، ذلك لأنه لم يكن بامكان الداي بابا حسن تامين المبلغ المطلوب بسرعة .

كان في الجزائر فريقان : الاول مسالم ويتألف من سكان المدينة والجند ، والثاني فريق الحرب ويدعمه رجال الطائفة وعلى رأسهم حج حسين ميزومورتو وكان بين الرهائن ، وقد قال لدي كسن انه لو تركه يعود للجزائر لفعل في ساعة اكثر ما فعله الداي بابا حسن في /١٥/ يوما . وفعلا ما ان عاد حج حسين الى الجزائر بعد تسليم الاسرى حتى اتصل بفريق الحرب الذي اشتد ساعده نتيجة استئناف دي كسن القصف ، وقام بقتل الداي وحل محله ، وجه حج حسين انذارا الى دي كسن انه مقابل كل قنبلة تنزل على المدينة سيقطع واحدا من الفرنسيين الموجودين في الجزائر اربا ، وعندما استمر القصف نفذ حج حسين وعيده فقتل القنصل لوفاشيه وعشرين فرنسيا آخرين ، اجبر الطقس السيء دي كسن على الانسحاب دون ان يتغلب على المقاومة الجزائرية ، ودون ان يستطيع تنفيذ أوامر الملك القاضية باستغلال حالة الذعر والفوضى الناشئة عن القصف لانزال قوات تشعل النار في المدينة وتدمرها تدميرا تاما وتنسف منشآت الميناء بصورة تجعله غير صالح للاستعمال ، وكانت نتائج القصف تخريب مئة منزل ومقتل الف جزائري .

اضطرت فرنسة بعد هذا الفشل الى العودة الى فكرة السلام التي كان

يادي بها دينيس ديسو وكان ديبلوماسيا يعرف لغة التفاهم مع الجزائريين
كان ديسو غير راض عن حملة دي كسن • وقد كتب الى حكومته ان الحرب
في المتوسط هي انتقام غير مجد • انها تعني توقف تجارة البروفانس لا
ما من شيء يثبط همم بحارة السفن التجارية قدر خوفهم من العبودية ، ك
ان هذه الحرب تعني التفاهم بين الجزائر وانكلترة • ونجحت مهارة ديسو
وميل الداي ميزومورتو الى السلم••••• إذا كان الملك يرغب بالسلم مرة فا
ارغبه عشر مرات ، • وتم الصلح سنة ١٦٨٤ على يد سفارة جزائرية وف
في فرساي • وافق الجزائريون على الا يعتبروا الفرنسيين الذين يؤخذون
من فوق سفينة اخرى اسرى حرب ويطلق سراحهم فور التأكد من
هوياتهم ، واتفق الطرفان على تبادل الأسرى وعلى عدم مسؤولية القناصل
عن ديون مواطنيهم • ولكن هذا الصلح الذي عقد لمدة مئة سنة لم يطل
واستؤنف النزاع •

وجه لويس حملة بحرية اخرى بقيادة الاميرال ديستري سنة ١٦٨٨
قصفت المدينة باكثر من عشرة آلاف قنبلة ، وانذر ديستري الداي انه مقابل
كل فرنسي يقتل على فوهة مدفع سيشنق تركيا على رأس صارية ، فكان
رد حج حسين ان هذا التهديد لن يوقفه ، وانه ينظر الى القصف كاستئناف
للوحشية • وقام بقتل ٤٠ فرنسيا • كان القصف هذه المرة انجع ، ويذكر
مؤلف جزائري معاصر انه ما من بيت لم يصب بضرر ، وان وضع المسلمين
اصبح صعبا ، وان اهل الجزائر فقدوا معظم ما كانوا يملكونه اثناء اقامتهم
خارج المدينة • وبالرغم من هذا كله لم تخضع الجزائر واضطر الاسطول
الفرنسي الى الانسحاب • ولما استؤنفت الحرب في اوربة سنة ١٦٨٨ مالت
فرنسة الى الصلح الذي وقع سنة ١٦٨٩ ، وكان بمثابة تجديد لصلح سنة
١٦٨٤ مع اضافة نص يسمح للبحارة الجزائريين باستخدام الموانىء الفرنسية
للقيام بهجمات على السفن الانجليزية والهولندية ، وكانت الدولتان بحالة
حرب مع فرنسة • ويعود هذا الى تحرج مركز لويس الرابع عشر في

اوربة وفقر خزينته ، وعدم كفاية البحرية الفرنسية التي كانت اضعف من
ان تقاوم البحريتين الانكليزية والهولندية •
ساد العلاقات الفرنسية الجزائرية خلال القرن الثامن عشر هدوء نسبي •
ومالت السياسة الفرنسية الى الاستماع لنصائح قناصلها الذين ما فتئوا يرددون
انه اما ان يقضى على القرصنة الجزائرية قضاء تاما او ان يتسامح معها ، لان
الخصومات في نظرهم تضر التجارة اكثر مما تضرها القرصنة • فالقصف
ظل دون مفعول وظل الرؤساء غير مكترثين به ينظرون بدون اكتراث الى
منازل السكان وهي تحترق •

وبدأت التعليمات الموجهة الى القناصل تطلب منهم اللجوء الى التفاهم •
وأن عليهم ألا يعتمدوا إلا على أنفسهم ، وعليهم أن يخطبوا ود الدايات
والمتنفذين وألا يلجأوا إلى التهديد إلا بعد ان يستنفذوا كل وسائل المصالحة •
وبلغ القناصل أن حملات القصف السابقة لن تستأنف وان السفن الفرنسية
ستكتفي بالظهور أمام الجزائر من وقت لآخر • وكان القناصل في هذه
الفترة بصورة عامة من العناصر الممتازة ، وعلى جانب كبير من الفطنة
والدراية ، استخدموا الهدايا كسلاح فعال اكثر من القوة • وبالرغم من ميل
الطرفين إلى سياسة التفاهم ، وبالرغم من مهارة القناصل فان الخلافات لم
تتوقف ، بسبب مشاكل الأسرى حيث كان موقف الفرنسيين ولا سيما البحرية
التجارية الفرنسية يعقد على الدوام مشكلة تبادل الأسرى • وبسبب هرب
العبيد من معسكرات الاعتقال في الجزائر على سفن فرنسية ، وبسبب اشتراك
عدد من الضباط والجنود الفرنسيين مع الاسبان في عمليات وهران وقيام
سفن البروفانس بنقل المؤن إلى الاسبان المحاصرين في وهران • ولكن هذه
الخلافات لم تتطور الى حد الصدام المسلح • وكان العبء يقع
على عاتق القناصل الذين كانوا يتعرضون في هذه الحالات للاهانة
والسجن وسوء المعاملة فيتذرعون بالصبر بسبب حرج موقف فرنسة خلال
القرن الثامن عشر • كتب القنصل لومير « ••• انت عندما تريد ان تبين لهم

(للدايات) الامور برفق يفرضون عليك الصمت ، واذا عرضتها بقسوة
يصرخون كالعات السمك ويجعلونك تتحمل شراستهم التي ينبغي عليك
ان تتقبلها كالعسل دون ان يكون لك وقت للاستفسار • وعندما تطالبهم بـ...
تهوه مستشهدا بالمعاهدات يجيبونك : ما اكل اكل ، عندما تطبخ دجاجة
ويبعثر الريح ريشها ، كيف يمكن جمعها ••• وتعرض بعض القناصل للسجن
وتحملوا ذلك كتضحية في سبيل استمرار العلاقات السلمية • كتب القنصل
لومير الذي اقتيد الى السجن الى رئيس بلدية مرسيلية « ••• اذا كان ...
ان اغتر بالظواهر فليس لكم ان تخشوا شيئاً بالنسبة للراية الفرنسية وسلامة
التجارة • ان ثقل العاصفة لم يقع الا علي ، ولكني وانا في تعاستي اعترف
بفضل العناية الالهية التي حمت مصالح الامة العامة • وان العبء ليكون ثقيلا
لو لم يكن لدي ولدي الآخرين القدرة على تحمله ••• » وبسبب هذه
السياسة الحكيمة تحسنت العلاقات وازدهرت التجارة الفرنسية • وبين
١٧٤٠ - ١٧٩٣ كانت الشركة الملكية الافريقية تشرف على استغلال
الامتيازات الافريقية •

العلاقات الجزائرية الفرنسية في عهد الثورة والامبراطورية :

تعرضت فرنسة خلال الثورة الفرنسية لازمات حادة سياسية واقتصادية
ومالية • وفي الوقت الذي وجدت فيه فرنسة نفسها في حالة حرب مع معظم
دول اوربة وجدت في الداي حسن « ••• صديقا كريما وحليفا وفيا ••• »
وكانت فرنسة في هذه الفترة حريصة على مداراة الجزائر ليس فقط حرصا
على مصالحها التجارية وخوفا على مواصلاتها في البحر المتوسط ولكن من
اجل تامين تموينها بالحبوب اللازمة للجيش • وقد نجح القنصل الفرنسي
فالير في كسب ثقة الداي ومودته فحصل منه على اذن بشحن كميات
كبيرة من الحبوب واللحوم المملحة والجلود وبعض المواد اللازمة لتغذية
الجنود وتموين الجيش • وقد رفض الداي الاصغاء لمندوبي الدول
الاوربية ، وبخاصة انكلترة ، الذين كانوا يوغرون صدره ضد فرنسة •

وعلى العكس من ذلك امتنع عن قبول الهدايا من قنصل فرنسة واقرض
الفرنسيين مبالغ كبيرة دون فائدة ليتمكنوا من شراء الحبوب ، وسمح لسفنهم
بالتموين من جميع الموانيء وامر البحرية الجزائرية باحترام الراية الفرنسية •
وقامت فرنسة بالغاء غرفة تجارة مرسيلية وحلت الشركة الملكية الافريقية ،
وانشأت بدلا عنها (وكالة افريقية) وربطتها مباشرة بوزارة الداخلية
الفرنسية •

وفي سنة ١٧٩٣ وقع حادث ادى الى اضطراب العلاقة بين فرنسة والداي •
ذلك ان مايفرند ، اخا زوجة القنصل فالير ، حكم عليه بالاعدام لانه
شغل وظيفة بلدية في طولون خلال الاحتلال الانكليزي ، فهاجر الى اسبانية
ثم الى الجزائر ، حيث بسط الداي عليه حمايته وسعى لدى الحكومة
الفرنسية للعفو عنه ، مبينا ان هذا العفو هو المكافأة الوحيدة التي يطلبها كثمن
لخدماته • وسعى فالير لاقناع حكومته بالاستجابة لالتماس الداي • ولكن
تدخل فالير جعله موضع شك لدى حكومته • ادى تمسك الحكومة الفرنسية
بموقفها الى غضب الداي فاوعز الى حاكم قسنطينة بوقف كل العلاقات
التجارية مع وكالة افريقية ، ورفض الهدايا الثمينة التي كلف فالير بتقديمها
اليه • واخيرا تخلت حكومة الادارة عن موقفها وتساهلت في موضوع مايفرند
ومنحته مبلغا كتعويض عن ممتلكاته المصادرة • وعندما تغيرت نظرة الداي
الى مايفرند ولم يعد راضيا عنه سمح لحكومة الادارة بالامتناع عن الدفع •

وافاد اليهوديان بكري وبوشناخ خلال هذه الفترة من اضطراب
العلاقات الجزائرية الفرنسية ، ومن عجز وكالة افريقية - التي كانت تقوم
باستيراد الحبوب من الجزائر باسعار رخيصة - عن القيام بعملها ، بسبب
مزاحمة اليهود ونقص دعم باريس المالي ، مما دفعها الى وقف اعمالها •
فاحتكر اليهوديان تصدير الحبوب • ولم تعد حكومة الادارة تفيد من
الجزائر الا بواسطة هذين اليهوديين الذين قدما خدماتهما غاليا • الا ان
انتصارات نابوليون التي استغلها القنصل الفرنسي سانت اندريه وضخمها ،

ومعاقبة نابوليون للبندقية بضمها للنمسة ، وتحرير الرقيق المسلمين في جنوه وليفورن ، كل هذا زاد في مكانة فرنسة في الجزائر . وازدادت مكانة نابوليون في الجزائر في المظاهرة الذكية التي قام بها عندما ابحر على رأس جيشه الى مصر ، فقد استولى في طريقه على مالطة وطرد منها فرسان القديس يوحنا اعداء الجزائريين اللدودين ، وحرر الاسرى المسلمين الموجودين فيها . وقد ابلغ داي الجزائر بهذا العمل بواسطة قنصل فرنسة كما ارسلت حكومة الادارة مذكرة ديبلوماسية من باريس . وكان لهذه المظاهرة صدى كبيرا في الجزائر دفعت الديوان لان يصم اذنيه مدة طويلة عن طلب الباب العالي الذي امر باعلان الحرب على فرنسة . وعندما اضطر الداي ، مجاملة للسفير العثماني والرأي العام الجزائري ، الى اعلان الحرب على فرنسة ، وسجن القنصل الفرنسي وموظفي القنصلية وعدد من الرعايا الفرنسيين ، كان اسرهم خفيفا وعوملوا معاملة حسنة واطلق سراحهم بعد مغادرة السفير العثماني الجزائر .

وفي سنة ١٨٠٠ نجح نابوليون في عقد هدنة مع الجزائر تحولت في العام نفسه الى صلح . ولكن هذا الصلح لم يطل فقد اضطرت الجزائر بضغط من تركية والحاح من انكلترة الى اعلان الحرب على فرنسة ولكنها سمحت للقنصل الفرنسي ومواطنيه بمغادرة الجزائر دون ان يمسهم اذى . وكتب الداي اعتذارا الى نابوليون انه كان مغلول اليدين . ورفض نابوليون اقتراح قنصله في الجزائر ارسال حملة بحرية ضد الجزائر .

وفي سنة ١٨٠١ اثر حل المسألة المصرية وبدء المفاوضات بين فرنسة وانكلترة من اجل الصلح في اوربة ، نجح نابوليون في عقد معاهدةصلح مع الجزائر أعيدت بموجبها المؤسسات الفرنسية ، مع اعفائها من الضرائب لمدة عام ، تعويضا عن الخسارة التي لحقتها خلال توقفها عن العمل . كما نصت المعاهدة على ضمان الديون الجزائرية،ولكن العلاقات سرعان ما تعكرت ،

ذلك أن القنصل الفرنسي ديبوا تانفيل لم يحمل معه الهدايا المعتادة ، ولما طولب بها كان رد نابوليون قاسياً فقد أعلن أن أول عمل عدائي يسمح به الداي سيكون الاشارة بتدمير الجزائر وان نابوليون اذا ما أشهر السلاح فانه لن يضعه الا بعد ان ينفذ ما قاله . وبين نابوليون أن فرنسة نابوليون غير فرنسة البوربون،وهذا يعني أن على الداي الا ينتظر منها المجاملات والترضيات التي كانت تقدمها الحكومة السابقة(١) . وحدث صدام بين السفن الفرنسية والجزائرية ، ولجأ نابوليون إلى اسلوب التهديد والتعاظم الذي اتبعه من قبل لويس الرابع عشر فأملى على تاليران مذكرة شديدة اللهجة إلى القنصل الفرنسي قال فيها « ... اني أفضل أن تتصدع العلاقات مع الجزائر وأن أعطيها درساً قاسياً من أن أتألم لعدم احترام قطاع الطرق هؤلاء للراية الفرنسية الاحترام الذي أستطيع فرضه عليهم ... » وفي ٧ آب ظهرت بحرية فرنسية أمام الجزائر يرافقها ضابط يحمل رسالة انذار إلى الداي جاء فيها : « لقد حطمت امبراطورية المماليك الذين ، بعد أن أهانوا الراية ، تجرأوا على طلب دراهم كترضية كان لي الحق في ان انتظرها منهم ، فاحذروا نفس المصير . واذا كان الله لم يعم بصركم ... فاعلموا من أنا وما أستطيع أن أعمل فاذا رفضتم اعطائي ترضية فسأنزل (٨٠٠٠٠) جندي على شواطئكم وأحطم نيابتكم وأنا موطد العزم على ذلك ... » . واتخذ نابوليون بعض الاجراءات توحي أنه كان جاداً في تنفيذ تهديده . فقد أمر وزير البحرية بتجميع /١٥/ سفينة تكون مستعدة للعمل عند الطلب ، واعلم سفير تركية بخطورة الوضع ، وانه قرر الانتقام والاستيلاء على كل الشاطىء الافريقي وتدمير الجزائر . وبدأ نابوليون بجمع المعلومات عن اوضاع الجزائر من السواح الذين كانوا بافريقية أو من الذين كانوا أسرى في الجزائر ، ومن العاملين في المؤسسات الفرنسية في الجزائر . فهل كان نابوليون جاداً ؟

(1) G. Esequer La Prise d'Alger P. 28

يرى هاردي أنه يمكن اعتبار فتح الجزائر فكرة نابوليونية ، وان تحطيم الجزائر كان جزءاً من مشاريع نابوليون في المتوسط المرتبطة بمشروعه في الوصول إلى الهند عبر مصر وايران ، وان هذه الفكرة جالت في خاطره مرتين ١٨٠٢ و ١٨٠٨[1] ويذكر اسكه ان بونابرت فيما يبدو فكر بحملة الى شمال افريقية تهدف تدمير النيابات الثلاث : الجزائر وتونس وطرابلس ، واقامة مستعمرات فرنسية عسكرية في هذه البلاد يكملها باحتلال مالطة وكريت ، وانشاء محمية فرنسية في البانية ، وذلك بهدف جعل المتوسط بحيرة فرنسية . وكان هذا المشروع يتعلق بامكان فرنسة وبالأخص بحاجة نابوليون الذي كان يرغب ، بعد توقف الحرب في اوربة ، في اشغال جيشه ، وان يوجه بحملة من هذا النوع - مثمرة ومجيدة معاً - ضربة إلى نفوذ انكلترة وتجارتها . وهناك دافع آخر لهذا المشروع وهو أهمية تلك المناطق لرفاهية جنوب اوربة إذ يسمح امتلاكها باستثمار منتجات شبيهة بمنتجات امريكة وجزر الهند ويسهل التجارة مع افريقية . وعدا عن ذلك فان هذا المشروع فرصة ووسيلة للتعويض عن الأضرار التي احدثتها الثورة ، والتي سببت عزلة فرنسة خلال ثمانية أعوام وذلك باعطاء المتضررين امتيازات في الموره وكريت والجزائر وتونس[2] . ولكن جوليان يستبعد هذه الفكرة ويرى ان نابوليون اهتم فقط بالاستعلام عن ظروف تدخل محتمل دون ان يكون مصمما او ان يكون قد بحث مثل هذا المشروع ، فقد كانت ليبية الواقعة على ابواب مصر تجذبه اكثر من الجزائر ، وهي النيابة الوحيدة التي زارها الكولونيل سيباستياني خلال مهمته في الشرق التي استخلص منها نابوليون مشروع اعادة الفتح[3] وفي الواقع كانت اهتمامات نابوليون الاساسية في تلك الفترة اوربية بالدرجة الاولى . واذا كان

(1) G. Hardi : Histoire des colonies française : l'Alger

(2) G. Esquer : la prise d'Alger P. 29 - 30

(3) Ch. A. Julien : Histoire de l'Algerie Contemporaine P. 22

لا يزال يفكر في البحر المتوسط فان الشرق كان يجذب اهتمامه اكثر ، ولم ينس تجربة الفشل المريرة في مصر بسبب ضعف بحريته ومقاومة انكلترة له ، وتدل الإجراءات البحرية المحدودة التي امر باتخاذها على انه كان يفكر بتهديد الجزائر والقيام بعملية قصف اكثر مما كان يفكر بعملية احتلال تتطلب امكانات اكثر بكثير مما كان متوافراً لديه .

وعلى اي حال فان جواب الداي كان مرضيا وانهى الازمة . كتب الداي الى نابوليون « ... انك تقول ان هناك اناس يعطوني نصائح للايقاع بيننا . ان صداقتنا وطيدة وقديمة ولن ينجح اي من الناس في الايقاع بيننا . انك تسألني ان اكون صديق الجمهورية الايطالية ، ساحترم رايتها كما احترم رايتكم حسب رغبتكم . ولو اقترح احد غيركم على مثل هذا الاقتراح فلن اوافق عليه بمليون قرش ... » واضاف الداي « ... اذا حدث خلاف في المستقبل فاكتب الي مباشرة وسيسوى كل شيء وديا » وطلب الداي من نابوليون ان يصدر الأوامر بالدفع لبكري وبوشناخ لأن جزءاً من هذه الأموال يخصه[1] .

ولكن الموقف تغير بعد معركة الطرف الاغر التي تحطم فيها الاسطول الفرنسي . فقد تحول الداي نحو انكلترة التي اصبحت السيد المطلق للبحار وغطى انتصارها البحري على انتصارات نابوليون القارية . عقد الداي مع انكلترة اتفاقا سنة ١٨٠٧ منح بموجبه المراكز الفرنسية للانكليز مقابل عشرة آلاف جنيه . اثار هذا العمل نابوليون ولكنه كان عاجزاً عن القيام بعمل ما قبل ان ينهي مشاكله في اوربة .

وبعد صلح تلست سنة ١٨٠٧ مع روسية ، الذي وطد مركزه في القارة ، صار بامكان نابوليون التفكير بمعاقبة الداي ، وبمشروعات سياسية في

(1) P. Azan : l'Expedition d'Alger 1830 P. 8 - 9

شمالي افريقية . وقد ظهرت رغبته هذه في احدى مواد الصلح السرية .
كما ان تدخله في اسبانية وعزله اسرة البوربون وتنصيبه اخاه جوزيف
بونابرت ملكا عليها ، زاد في اهتمامه بشمال افريقية . وصار يحلم في انشاء
قاعدة بحرية على ساحل الجزائر يوازن بها قواعد الانكليز في جبل طارق
ومالطة . وفي سنة ١٨٠٨ ارسل نابوليون القومندان المهندس بوتان بمهمة
تجسس يستطلع فيها احوال الجزائر الطبيعية والاجتماعية والعسكرية ،
وكانت مهمة صعبة وخطيرة ولكن القنصل الفرنسي ديبوا تانفيل سهلها له .
اقام بوتان في الجزائر بين ٢٤ ايار و ١٧ تموز ، وعندما طلب منه مغادرة
الجزائر بعد افتضاح امره كان قد حصل على معلومات غزيرة ثبتها في مذكرات
ورسوم . الا ان السفينة التي حملته الى طولون وقعت بيد الانكليز واسر
بوتان واقتيد الى مالطة ، ولكنه كان قد اتلف مذكراته ورسومه . تمكن
بوتان من الهرب الى استنبول وعاد منها برا الى فرنسة حيث اعاد صياغة
تقريره بعنوان : معلومات عامة عن المدن والقلاع وبطاريات المدافع تخدم
مشروع الانزال والاقامة الدائمة في هذه البلاد .

اقترح بوتان سيدي فرج (على بعد ٢٧ كم غربي الجزائر) كمكان
لنزول الحملة ، اذ يوجد هنا خليجان يفصل بينهما شبه جزيرة ، ويمكن
ان يتم الانزال في احد الخليجين حسب اتجاه الريح . وبين بوتان انه لا يوجد
في هذا المكان بطاريات ولا عدد ولا مرتفعات ، واقترح بعد ذلك احتلال
حصن الامبراطور لانه يسيطر على كل التحصينات الاخرى التي تحمي
المدينة . وبين عدد الجنود الذين يمكن للداي جمعهم وقدرهم بـ ٦٠ الفاً
يتطلب جمعهم خمسة او ستة اسابيع . وقدر بوتان انه ينبغي ان تتألف
الحملة من ٣٥ ـ ٤٠ الف جندي يكون معظمهم من المشاة ، تدعمهم مدفعية
ميدان جيدة وخفيفة ، وان يزودوا بادوات الحصار . ولم يكتف بوتان

بوضع مخطط كامل للحملة بل اضاف القواعد التي ينبغي اتباعها مع الاهالي
بعد الفتح ، وبين افضل الوسائل لتوسيع الاحتلال سلمياً(١) .

اعجب نابوليون بهذا التقرير المفصل والدقيق ولكنه لم يسع لاستخدامه
في اعداد حملة بسبب ضعف البحرية بعد كارثة الطرف الاغر ، وبسبب
المشاكل القارية التي استمرت بين ١٨٠٨ ـ ١٨١٤ . وظلت قيمة هذا التقرير
في انه كان اساس مشروع حملة سنة ١٨٣٠ .

العلاقات الجزائرية ـ الانكليزية :

كان دخول انكلترة البحر المتوسط متأخرا لانها ليست من دول هذا
البحر ، ولان مشاكل داخلية وقارية كانت تصرفها بصورة عامة عن النشاط
التجاري والبحري على النطاق العالمي .

عرف الانكليز البحر المتوسط منذ القرن الخامس عشر عندما كانوا
يأتون الى الارخبيل اليوناني بحثا عن الزبيب اللازم لصناعة (البودينغ) وعن
الخمور . وفي اوائل القرن ١٦ كان لهم قناصل في استنبول وبعض الجزر
اليونانية . وقد تباطأ النشاط الانكليزي في منتصف القرن السادس عشر .

ويعتبر عصر اليزابيت ١٥٥٨ ـ ١٦٠٣ بداية النشاط التجاري والبحري
الانكليزي الكبير . فقد اولت اليزابيت المسائل البحرية اهتماما كبيرا ولا سيما
بعد انتصارها على الاسبان وتحطيمها (الارمادا) الاسبانية التي وجهها فيليب
الثاني لاحتلال انكلترة سنة ١٥٨٨ . وكان هذا الانتصار الساحق بداية
التفوق البحري الانكليزي الذي سمح لانكلترة ان تطرق بقوة مراكز
التجارة العالمية البعيدة ، وان تبدأ في وضع اسس الامبراطورية الاستعمارية
الانكليزية ما وراء البحار . وفي هذا العصر ظهرت الشركات التجارية
الكبرى (شركة الهند ـ شركة الشرق والشركة البربرية) .

(1) P. Azan : P. 11 - 12 - 13 - 14 - 15

خارجيتها تاليران كانا يخالفان رأي بولينياك ، لانهما كانا يريان في تنفيذ
مشروع سدني سميث اسهاما في تأكيد التفوق الانكليزي في البحر المتوسط
في الوقت الذي تعاني فيه فرنسة من الضعف السياسي والعسكري ، وفي الوقت
الذي ماتزال فيه قوات الاحتلال الاوربية في ارضها ، ولهذا سيكون دورها
ثانويا . كما ان وزير الخارجية البريطانية كاستلريه لم يتحمس للمشروع
لانه خشي ان يؤدي ضعف النيابات وانتشار الفوضى فيها الى تعرضها للخطر
الفرنسي . واكتفى المؤتمر في المعاهدة النهائية سنة ١٨١٥ بالتأكيد على
تحريم القرصنة والاسترقاق في النيابات ، وضرورة القضاء عليها كذلك في
باقي انحاء العالم . وفي ١٨١٦ تغير موقف انكلترة ، وربما كان هذا بعد أن
تأكد تفوقها في المتوسط بسيطرتها على الجزر الايونية ، فاغتنمت فرصة
نشاط الريس حميدو ضد سفن حليفتها اسبانية والبرتغال فوجهت قوة بحرية
كبيرة بقيادة اللورد اكسموث سنة ١٨١٦ قصفت الجزائر والحقت بها
اضرارا فادحة ، واجبرت الداي على تحرير الاسرى المسيحيين والوعد
بالغاء الاسترقاق . وسعت انكلترة الى تحقيق فكرة انشاء عصبة بحرية من
الدول البحرية ترغم النيابات على احترام القانون ووضع حد للقرصنة ،
واقترحت ان ترابط القوات المتحالفة في المتوسط والاطلسي وأن توضع تحت
اشراف مجلس اوربي على غرار مجلس الحلفاء الذي يشرف على قوات
الاحتلال في فرنسة . نوقشت هذه المقترحات في مؤتمر لندن سنة ١٨١٦
ولكن فرنسة رفضت هذا المشروع لانها رأت فيه وسيلة لتأكيد التفوق
الانكليزي في المتوسط ، ولانها كانت تسعى لاعادة علاقاتها القديمــة مع
الجزائر واسترداد المؤسسات التي استولى عليها الانكليز سنة ١٨٠٧ .
واعلن المندوب الفرنسي ان نيابات المغرب ولايات عثمانية لا تملك حق اعلان
الحرب والصلح ، ويكفي الدول الاوربية ان تتفق على مبدأ حق تفتيش
سفنها واحتجاز المسلحة منها ، على ان تقوم بهذه المهمة البوليسية الدول التي
لها شواطئ على المتوسط . ولم تتحمس الدول الاخرى للمشروع . وفي

مؤتمر اكس لا شابل سنة ١٨١٨ اعادت انكلترة [illegible]
ابدت تحفظات عليه : فقد اقترحت النمسة ان يعاد تأسيس منظمة فرسان
القديس يوحنا في جزيرة البه وان يعهد اليها ، باعتبارها قوة دولية ، بمهمة
طرد الاتراك من الجزائر . وتخلت فرنسة عن معارضتها السابقة ولكنها
اقترحت تكوين حلف اوربي للقضاء على القرصنة ، على ان تستخدم كل
دولة قوتها على حدة وان تحدد عدد السفن التي ستستخدمها لهذا الغرض ،
وان يخطر الباب العالي بكل هذه الاجراءات . واثار اعلان روسية عن
رغبتها في الاشتراك في هذه القوة البحرية الدولية مخاوف المؤتمرين . ولم
يتوصل المؤتمر الى التفاهم واتخاذ قرارات حاسمة واكتفى بتكليف ممثلي
فرنسة وانكلترة ، بوصفهما الدولتين اللتين تتمتعان بنفوذ حقيقي لدى داي
الجزائر ، بتوجيه تحذير للجزائر بوقف القرصنة ، وتهديدها بتأليف حلف
اوربي ضدها . واوصى المؤتمر بابلاغ السلطان هذه القرارات ولكن الدولة
العثمانية اعلنت انها لاتستطيع ان تلتزم بقرارات مؤتمر لم تدع اليه ، وانها
لا تستطيع ان تنحاز ضد اخوان لها في الدين .

وفي سنة ١٨١٩ توجهت قوة بحرية فرنسية بريطانية لابلاغ الداي
قرارات المؤتمر . رفض الداي التحذير واعلن ان من حقه تفتيش كل السفن
ليعرف صديقه من عدوه . وكان لدى ممثلي الدولتين اوامر بعدم التشدد .
يقول ديفال ان الداي تمنى للمندوبين بشيء من السخرية سفرة سعيدة .
فشلت المحاولات الدولية ضد الجزائر وعادت كل دولة تسوي مشاكلها
منفردة .

وفي سنة ١٨٢٤ تجدد الصدام بين انكلترة والجزائر . ففي سنة ١٨٢٣
ثارت قبائل بجاية ، وحسب عادات الأتراك صدر قرار باعتقال كل افراد هذه
القبائل المقيمين في الجزائر . وكان كل القناصل يستخدمون أفراداً من

هذه القبائل • وفي حين سلم بعض القناصل الافراد الذين كانوا يصلون عندهم، وهرب البعض الآخر، كديفال،هؤلاء الاشخاص الى خارج الجزائر رفض قنصل انكلترة ماك دونل رفضاً قاطعاً الامتثال لأوامر الداي، فهوجمت القنصلية واعتقل القاطنون فيها بالقوة • واوقف الداي علاقاته مع القنصل واجبره على مغادرة الجزائر في اوائل سنة ١٨٢٤ ، واعلن ان المعاهدة التي عقدها مع اللورد اكسموث انتهت لأن مدتها ثلاثة اعوام • وفي شباط سنة ١٨٢٤ توجه اسطول انكليزي بقيادة الاميرال هاري نيل الى الجزائر مطالباً بتعويض واعادة القنصل واولويته على باقي القناصل ، وحق رفع الراية الانكليزية في الجزائر ودفع غرامة ، ورفض الداي معظم الشروط وعندما هدده الاميرال بالحرب ولوح له بقوة انكلترة أجاب الداي « ... ان غرود الذي كان اقوى الرجال واعظمهم مات من لدغة بعوضة » • ولم يكن القصف مجدياً كما كان أيام اكسموث وانسحب الاسطول دون نتيجة •

الفصل الرابع

الاحتلال الفرنسي للجزائر

مقدمات الحملة :

قضية اليهوديين بوشناخ وبكري

كتب جوليان يصف ملابسات الحملة الفرنسية على الجزائر

« ... قضية مشبوهة باشرها التجار اليهود الجزائريون المتنفذون (بكري وبوشناخ) بالتواطؤ مع سياسيين فاسدين في باريس (تاليران) وحادثة (ضربة كشاشة الذباب) سببها ديبلوماسي مشبوه (ديفال) وحملة قادها جنرال فاقد الحظوة (بورمونت) وانتصار استقبله الرأي العام بدون اكتراث وبعداء ، تلاه سقوط الأسرة التي كانت تبتغي المجد من ورائه • هذه هي البدايات الفريدة لاستيلاء فرنسة على الجزائر ... »(1) •

وقفت حكومة الجزائر من فرنسة اثر قيام الثورة الفرنسية موقفاً نبيلا كريما ، فألغت القيود المفروضة على تصدير الحبوب وسمحت لوكالة افريقية الوطنية ، التي حلت محل الشركة الملكية الفرنسية في الاشراف على المؤسسات الفرنسية في الجزائر ، بتصدير الحبوب الى فرنسة ، ولم تكتف بذلك بل قامت أكثر من مرة باقراض الحكومة الفرنسية الاموال اللازمة لتأمين شراء الحبوب • وكانت الوكالة تحصل على الحبوب باسعار رخيصة وشروط جيدة ، ولكنها اصطدمت بمنافسة اليهوديين الجزائريين بكري

---

(1) Ch. A. Julien : Histoire de l'Algerie Contemporaine P. 21

وبوشناخ اللذين كانا يتمتعان بنفوذ ضخم لدى حكومة الداي ، ويحتكران ثلثي تجارة الجزائر • وكان من عادة هذين اليهوديين ان يشتريا المحاصيل الجزائرية باسعار بخسة ويقوما ببيعها داخل الجزائر وخارجها باسعار فاحشة • عرف اليهوديان مدى الربح الفاحش الذي يمكن ان يحققانه فيما اذا حلا محل الوكالة في تصدير الحبوب الى فرنسة التي كانت بأمس الحاجة اليها • فاستخدما نفوذهما في الجزائر وباريس واستغلا ضعف الامكانات المالية المتوافرة لدى الوكالة ، وشروط الدفع السخية التي عرضاها ، ونجحا في وقف نشاط الوكالة •

وكان اليهوديان يقومان بهذه العملية لحسابهما ولحساب الداي الذي كان يجهل الاساليب القذرة التي كانا يتبعانها ، فكانا يبيعان الحبوب باسعار فاحشة ، ويتساهلان في مدة الدفع لان ديونهما كانت تتضخم بسبب الفوائد الكبيرة تضخما غير عادي • وكانت الحكومة الفرنسية مضطرة للتغاضي عن اساليب اليهوديين بسبب الضيق المالي الذي كانت تعاني منه • كان اليهوديان، بالاضافة الى التلاعب المالي في قضية الحبوب والديوان ، يتاجران باسلاب غنائم القرصنة وفي الوقت نفسه يبيعان الحبوب للانجليز في جبل طارق ، وكانا ، نتيجة لهذا كله ، عرضة لخطر انكشاف اساليبهما والتدقيق في حساباتهما في اي وقت ، وكان عليهما ان يستخدما نفوذهما الكبير في الجزائر وان يشتريا لهما حماة متنفذين في اوساط الحكومة الفرنسية ، ونجحا في شراء تاليران •

وكانت حكومة الديركتوار تماطل في دفع الديون بسبب ضيقها المالي من جهة ، وبسبب تعامل اليهوديين مع الانكليز من جهة اخرى • وقد كتب دولاكروا سنة ١٧٩٧ « ••• باحتفاظنا بالمبالغ المستحقة لهؤلاء اليهود سنمنعهم من اهمال مصالحنا وسنجبرهم ان يكونوا اكثر احتراسا في تعاونهم اللائم للانكليز ••• »(١) •

---

(1) G. Esquer : La Prise d'Alger P. 24

ولكي يضمن اليهوديان الحصول على ديونهما نجحا ببراعة في تحويل هذه الديون من ديون خاصة الى دين حكومي • فقد اقنعا الداي ، وكانا مدينين له ، انهما لن يستطيعا ان يدفعا له ما لم تدفع لهما الحكومة الفرنسية• وقد عمل اليهوديان في هذا السبيل بنصيحة تاليران الذي اصبح وزيرا للخارجية في تموز سنة ١٧٩٧ • طرح تاليران قضية الديون اليهودية مبينا خطأ موقف حكومة الادارة ، وذكر زملاءه في الوزارة بالخدمات التي قدمها اليهوديان للجيش الفرنسي ، وطلب من زميله وزير المالية ان يظهر لليهود اطيب النوايا الممكنة ، وان يعتبر القضية قضية دولة وليست قضية خاصة • ولكي يدعم تاليران موقفه طلب من بوشناخ ان يعمل على ان يكتب الداي الى بونابرت رسالة يقول فيها ان المبالغ التي يطالب بها بكري وبوشناخ هي له ، وان يرجوه تسهيل الدفع • وقد نصت معاهدة ١٨٠١ التي انهت الخلافات الناجمة عن حملة مصر ليس فقط على اعادة المؤسسات الفرنسية التي صودرت سنة ١٧٩٨ بل نصت كذلك على ضمان دفع الديون • وقد نجح اليهوديان في الحصول على حوالي /٤/ ملايين فرنك من ديونهما التي قدراها بـ/٨/ ملايين • ويعود الفضل في هذا النجاح الى تأييد تاليران الحاسم ، والى تدخل الداي الذي كان يجهل امر المفاوضات الجارية في باريس والذي كان يعتقد ان حل هذه المسألة سيكون لصالحه • ولكن اليهوديين لم يدفعا للداي شيئا من المبلغ الذي حصلا عليه • وبالرغم من تأييد تاليران فان اليهوديين لم يستطيعا الحصول على باقي ديونهما لان العلاقات الجزائرية الفرنسية ساءت في عهد الامبراطورية ، وكان موضوع الديون احدى النقاط الرئيسية التي تعكر صفو العلاقات الفرنسية الجزائرية • وكان الداي شديد التأثر من تأخر الدفع لان معظم البضائع التي سلمها اليهود لفرنسة كانت تخصه • وقد عرف اليهود كيف يستغلون حالة التوتر في العلاقات الفرنسية الجزائرية في عهد الامبراطورية • فعندما كان الجزائريون يستولون على سفن أو ممتلكات فرنسية كانوا يحصلون على جزء منها كتعويض عن امتناع الحكومة

الفرنسية عن الدفع ، وعندما نقل الداي ملكية المؤسسات الفرنسية الى الانكليز سنة ١٨٠٧ حصل جوزيف بكري على قسم من الممتلكات الفرنسية في القل وجيجل ، ونافس بذلك الانكليز الذين لم يفيدوا كثيراً مما حصلوا عليه(١) .

وفي سنة /١٨١٥/ فتحت صفحة جديدة في مسألة الديون ، فقد كانت حكومة « الرجعة » تحرص على استعادة العلاقات القديمة مع الجزائر، ومن حسن حظ اليهوديين انهما وجدا في الحكومة الفرنسية الجديدة عميلهما القديم تاليران ، وزيراً للخارجية اولا ثم رئيساً للحكومة . كما كان من حسن حظهما ان عينت فرنسة قنصلا جديدا لها في الجزائر . هو ديفال « ... الذي كلف رسميا بالاهتمام بتسوية مسألة الديون وتطمين الداي حول هذه المسألة ... وكان هذا يعني ـ كما يقول جوليان ـ استئناف السياسة المشبوهة التي لم تكن تخدم سوى اليهود ومن يحميهم من الفرنسيين، ولم يكن هناك شك في انه اذا حدث نزاع بين اليهود والداي فان فرنسة ستؤيد مصالح رجال الاعمال ضد الداي . وفي هذا الاتجاه كان القنصل ديفال هو الرجل المناسب لانجاز العمل الذي ينتظر منه »(٢) .

كان ديفال ابن ترجمان السفارة الفرنسية في استنبول وقد امضى كل خدمته في آسية الصغرى ، ويتكلم التركية والعربية بطلاقة . وكان معتادا منذ شبابه على الاجراءات الملتوية الفاسدة التي كانت شائعة في موانىء الشرق آنذاك . وكان هناك اجماع في موانىء المتوسط على اعتباره رجلا فاسداً . ولم يكن موضع ثقة في مرسيلية ولا في الجزائر . بل كانت غرفة تجارة مرسيلية تدعو الى التخلي عن التعامل مع رجل لاترتكز مشاريعه « ... على اي من القواعد التي توحي بالثقة ... » وكان الاوربيون في الجزائر وبينهم رجال السلك القنصلي لايحترمونه ، وقد قاطعوا ، في اكثر من مناسبة ،

---

(١) المصدر السابق .

(2) Ch. A. Julien : Histoire de l'Algerie Contemporaine P. 23

الاحتفالات الرسمية التي كان يدعو اليها ، وقد اوحت علاقاته مع اليهود الداي بوجود تواطؤ بينه وبينهم .

حرص اليهوديان اشد الحرص على استغلال هذه الفرصة المواتية الناجمة عن وجود انصار لهم في الحكومة الفرنسية ، ووجود قنصل يسهل شراؤه والتواطؤ معه في الجزائر . فقدموا كشفا بديونهم التي قدروها دون اي مستندات بـ ٢٤ مليون فرنك . وحصلت مناقشات طويلة في باريس بين ممثلي الحكومة الفرنسية وممثلي اليهود ، وبعد التقصي قبل اليهوديان تنزيل المبلغ الاصلي الى /١٨/ مليونا ثم /١٤/ ثم /٨/ واخيرا الى ٧ ملايين. وتعرض ممثلوا الطرفين الى حقوق الدائنين الفرنسيين على اليهوديين ،اللذين كانا قد اقترضا على حساب ديونهما مبالغ كبيرة .

وقد نص الاتفاق الذي وقع بين ممثلي الحكومة الفرنسية وممثل اليهوديين على ان الخزينة الملكية ستحجز المبالغ المستحقة للدائنين الفرنسيين. وهذا الاتفاق وما تلاه من اجراءات تنفيذية يكشف عن مدى خبث اليهود وتلاعبهم الماهر بالحكومتين الفرنسية والجزائرية على حد سواء . ان مقدمة ميثاق ١٨١٩ تؤكد رغبة الملك في أن يضع حداً لشكاوى نيابة الجزائر الخاصة بديون بكري وبوشناخ ، وفي أن يثبت للداي رغبة الملك بالمحافظة على أطيب الصلات القائمة بين البلدين . كما اعترفت المقدمة أن دفع المبالغ المستحقة لهؤلاء الجزائريين قد نص عليه بصراحة في معاهدة سنة ١٨٠١ . والمعروف أن تدخل الداي لدى الحكومة الفرنسية من أجل تسوية ديون بكري وبوشناخ ، هذا التدخل الذي حول هذه الديون من قضية أشخاص الى قضية دولة ، انما كان لأن الداي كان دائناً لهذين اليهوديين ولأن جزءاً من هذه الديون كان يخصه . ولكن الذي حدث أن كثيراً من أسماء دائني بكري الذي ضمنت المعاهدة حقوقهم ليسوا في الواقع الا أقارب أو شركاء لـه أو أسماء مستعارة لبكري نفسه . وهكذا ضمنت المعاهدة

حقوق الدائنين الوهميين في حين أهملت الدائن الوحيد الحقيقي • ولم يخطر اليهوديان ، ولا ديفال ، الداي باتخاذ الاحتياطات اللازمة للحصول على اعتراف المحاكم الفرنسية المكلفة بالنظر في اعتراضات الدائنين بحقوقه. والحق انه لم يكن للداي ، بوصفه رئيس دولة ، أن يتقدم باعتراض أمام محكمة اجنبية ، فضلا عن عدم جدوى هذا الاعتراض •فقد ظهر ان مجموع ديون اليهود ، كما تبين من اعتراضات الدائنين الفرنسيين ، كانت تفوق المبلغ الذي يستحقونه[1] • ذلك أن اليهود بدهائهم كانوا منذ زمن طويل وبواسطة سلسلة قروض قد حصلوا على أكثر من المبلغ الذي كان لهم على الحكومة الفرنسية • وهكذا كما يقول اسكه راحت الحكومة الفرنسية والداي ودائني اليهود ضحية خداع يعقوب بكري الذي « ••• كانت لهيئة أجدب imbecile »[2] •

وقد أثار النواب والشيوخ الفرنسيون ضجة كبيرة حول هذا الاتفاق اثيرت خلالها شبهات حول مسلك بكري وبوشناخ وصدق دعاويهما ولكن الحكومة تمسكت بموقفها حفاظاً على الامتيازات الملكية وعلى كلمة الملك وتحولت المناقشة الى صلاحية المعاهدات وامتيازات البرلمان وحقوق التاج فيما يتعلق بالاتفاقات الدبلوماسية ومع ذلك اقر المشروع بالأغلبية •

وقد نصت المادة الاخيرة من الاتفاق على ما يلي : ينفذ الاتفاق الحالي بعد مصادقة الملك ، وبعد ان يعلن الداي باسم النيابة انه بعد تنفيذ هذا الاتفاق الحالي لن يصاغ اي طلب من الحكومة الفرنسية بصدد ديون بكري وبوشناخ وانه يعترف بالتالي ان فرنسة قد ادت تأدية كاملة التزامات معاهدة /١٨٠١/ • وقام اليهودي بكري والقنصل ديفال بتقديم هذا الاتفاق الى الداي ليصادق عليه • واعلن الداي بجوابه في نيسان /١٨٢٠/ عن رضاه ، وكان يعتقد انه اذا قبض بكري ديونه سيسدد له ما عليه • وهكذا تمكن اليهوديان من خديعة الحكومتين الفرنسية والجزائرية •

(1) G. Esquer : La Prise d'Alger P. 50

(2) المصدر السابق .

وكان على رأس حكومة الجزائر في تلك الفترة الداي حسين الذي تولى منصبه منذ ١٨١٨ • وكان ذكيا ومستبدا ، ولم يكن مستعدا لان يكون موضع سخرية احد الى ما لانهاية • ظل الداي حسين ينتظر تسديد ديونه دون ان يفهم سبب التأخير وقد طلب الى الحكومة الفرنسية ان تسلمه جزءا من المبلغ المحجوز في صندوق الامانات ريثما تبت المحاكم الفرنسية في اعتراضات الدائنين الفرنسيين ، وتعهد مقابل ذلك بتسوية ديون الفرنسيين•

ولكن الحكومة الفرنسية رفضت تجاوز المحاكم التي كانت تعالج هذا الموضوع ، ولما كانت لا ترغب في تبادل المكاتبات مباشرة مع الداي كلفت القنصل ديفال بان يشرح للداي وجهة نظرها • وقد حاول ديفال ان يعزو هذا التأخير الى بطء الروتين الحكومي والى مسائل تتعلق بحسابات الخزينة، ولكن الداي رفض هذا التفسير وبين انه لو كان لملك فرنسة دين على احد اتباعه لتمكن من دفعه خلال ٢٤ ساعة • واقترح الداي - في محاولة منه لانهاء قضية الديون التي طالت - أن يسلم له مبلغ الـ ٧ ملايين المقررة ويتعهد مقابل ذلك بارضاء دائنيهم ، وكان يتوقع أن يلقى اقتراحه قبولاً من الحكومة الفرنسية أسوة بموقف مماثل للحكومة الاسبانية في قضية معها مشابهة • ولكن الحكومة الفرنسية لم تجب على اقتراح الداي واكتفت بابلاغ ديفال أن يقوم باعلامه أن سبب التأخير يعود الى اجراءات المحاكم • ولم يقبل الداي جواب ديفال وكان يعتقد أن القنصل يبيعه كلاماً وأنه حجز جواب الوزير الفرنسي•

وفي هذه الاثناء تحرج موقف اليهودي بكري المثقل بالديون • وفي قضية ديون كان أحد اطرافها قنصل انكلترة وبعض الرعايا الانكليز اضطر الداي بناء على الحاح القنصل الانكليزي الى اعتقال بكري في آب سنة ١٨٢٦ وأجبره أن يتنازل له عن مجموع ديونه على سيردينية واسبانية وفرنسة • ولكن الداي كان واهماً في ظنه أنه سيحصل على شيء من المبلغ المودع في فرنسة ، لأن هذا المبلغ لا يصل الى عشر المبالغ المستحقة على بكري •

وشعر بكري أنه خسر كل شيء ، فاتهم ديفال أنه قبض منه مبلغاً كبيراً ، واقتنع الداي بتواطؤ ديفال وفقد كل ثقة به وطلب استدعاءه .

كتب الداي سنة ١٨٢٦ الى البارون دوداما وزير خارجية فرنسة يطلب منه أن يسوى مع بقولا بالمعل ممثل بكري حساب المبالغ التي يستحقها عن فرنسة وأن يعمل على ارسال هذه المبالغ بسرعة بوسائله الخاصة دون تأخير او ارجاء مضافاً إليها الفوائد المترتبة، وأن تسلم هذه المبالغ للداي لأنها تخصه وحده . وبعد شهرين طلب الداي من ديفال ارسال هذه المبالغ أو ارسال بيان بالأسباب التي تحول دون ذلك . واعلن الداي أنه في حال امتناع فرنسة عن ارسال المبالغ أو ارسال رسالة تفسيرية فان الجزائر ستتخذ كل التدابير التي تراها مناسبة لتحقيق هذه الغاية .

وفي خريف سنة ١٨٢٦ وصلت الى الجزائر سفينة فرنسية حربية كانت تحمل بدلاً من الجواب الذي يتوقعه الداي مذكرة تطالب بالتعويض عن الأضرار التي تعرضت لها بعض السفن الفرنسية والبابوية . وقد رد الداي في رسالة له الى وزير الخارجية الفرنسية فأبدى دهشته من عدم تلقيه جواباً ، واعلن أنه لا يشك في وقوع أحد أمرين : اما أن رسالته لم تصل الى وزير الخارجية أو أن جواب الوزير لم يصله لأن ديفال حجزه . واتهم ديفال بالخبث والكذب ، واعلن أنه لا يستطيع أن يتحمل وجود هذا الدساس لديه .

وأضاف الداي أنه فكر أكثر من مرة أن يحمل القنصل على سفينة وان يطرده من الجزائر ولكنه تحمل كل ذلك منذ زمن طويل بسبب العلاقات الطيبة القائمة بين النيابة وفرنسة . ورجا الداي استدعاء ديفال وارسال قنصل آخر شريف بدلاً منه . وكرر الداي المطالبة بالمبالغ المودعة باسم بكري لأن هذا تنازل له عن كل ديونه .

رأى وزير الخارجية الفرنسية أن رسالة الداي غير مقبولة واعد

جواباً رفض فيه طلب الداي بارسال المبالغ متذرعاً بالحجج السابقة نفسها (الحاكم) . ودافع وزير الخارجية عن ديفال واستنكر تهديد الداي بطرده وطالب بالتعويض عن الأضرار التي لحقت السفن الفرنسية والبابوية ومعاقبة المعتدين ، ومنع البحارة الجزائريين من تفتيش السفن الفرنسية ، واحترام الراية البابوية ، ومعاملة القنصل باحترام . وختم الوزير رسالته بالتهديد باللجوء الى استخدام القوة . ولكن مجلس الوزراء الفرنسي رفض هذا الجواب ، وقرر بدلاً عن ذلك ارسال اسطول لدعم مطالب فرنسة التي كلف ديفال بتقديمها للداي . وهكذا بدلاً من ان يتلقى الداي جواباً من الوزير ، تلقى مطالب بالتعويض وتهديداً على يد القنصل نفسه الذي طالب باستدعائه .

وفي هذه الاثناء حدث حادث زاد في غضب الداي . فقد وصل الى مسامعه ان الفرنسيين لم يكتفوا بتحصين الباستيون بل وضعوا فيه مدافع وحامية ، وانهم ينوون جعل هذا المستودع مستعمرة حقيقة وقد اثبت التحقيق الذي قام به رجال باي قسنطينة صحة هذا الخبر . وكان المسؤول المباشر عن هذا التصرف الخطير الكسندر ديفال ابن اخ القنصل ديفال وكان قد سمي نائب قنصل في عنابة سنة ١٨٢٥ وقد عمل على اقامة منشآت عسكرية ليضع فيها مدافع ورجالاً مسلحين وكأنه في أرض فرنسية . وقد ارسل الداي قوات دمرت هذه المراكز وطردت من فيها . وقد عرف أهل مرسيلية هذا العمل الذي حاول ديفال اخفاءه ، وادانه الرأي العام في مرسيلية بشدة . ولو كانت الحكومة الفرنسية ترغب حقا في تسوية الخلاف لكان من الطبيعي في مثل هذه الاحوال ان تسحب هذا القنصل الذي لم يعد مرغوبا فيه في الجزائر ، والذي يسبب وجوده زيادة التوتر في العلاقات بين البلدين . ولكن الحكومة الفرنسية لم تكتف فقط بالامتناع عن الأمر باجراء تحقيق في ما حدث ، بل رفضت الرد مباشرة على الداي ، وزاد الطين

بلة انها كلفت ديفال بالتدخل لدى الداي لصالح دولة البابا والمطالبة بوعد يضمن احترام الراية البابوية . ولكن الداي رفض هذا الطلب .

حادث كشاشة الذباب ١٨٢٧ :

جرت المقابلة المثيرة في عيد الفطر /١٢٤٣ - ١٨٢٧ / ودار الحوار فيها بالتركية التي كان ديفال يجيد التحدث بها . وقد فتح الداي الحديث مباشرة حول العلاقات بين البلدين . وكان الداي شديد التأثر من عدم الرد على رسائله المتعلقة بديون اليهوديين . وقد ذكر ديفال في تقريره عن المقابلة ان الداي اعتبر انه عومل بهذا الصمت كشخص تافه مشرد ، واتهم ديفال انه كان السبب في هذا التجاهل ووصفه بانه خبيث غير امين . وفي كتاب الداي الى السلطان اكد انه وجه للقنصل عبارات لبقة محتفظا بموقف ودي وانه سأله « ... لماذا لم يصل جواب على رسائلي المكتوبة والمرسلة الى حكومتك ... » . ويقول ديفال في تقريره انه برر موقف حكومته مذكرا انه حمل الجواب الى الداي فور وصوله . اما كتاب الداي الى السلطان فيعطي صورة اخرى ، يقول الداي « ... ان القنصل المذكور بعناده وعجرفته اجاب ، بعبارات وقحة ، ان ملك وحكومة فرنسة لايمكن ان ترسل اجوبة على الرسائل التي ارسلتها اليها ، وتجرأ فتلفظ بكلام يسيء للدين الاسلامي ويمس شرف السلطان ... » ويقول ديفال في تقريره ان الداي قام من مقعده حينذاك ووجه له ثلاث ضربات من كشاشة الذباب وطلب منه الانسحاب ، ولكن الداي يقول في كتابه انه لم يستطع تحمل هذه الوقاحة والاهانة التي تتجاوز حدود التحمل فضربه مرتين او ثلاث مرات ضربا خفيفا بكشاشة الذباب[1] . ولم يثر ديفال وحاول ان يبرر موقفه وبين للداي انه

---

(1) يذكر اسكن الحوار الذي جرى بين الداي وديفال فيقول : بدأ الداي الحديث بسؤال القنصل عن صحة الأخبار التي وصلت الى الجزائر من أن انكلترة قد أعلنت الحرب على فرنسة فأجاب القنصل أن هذه الأخبار غير صحيحة وأن مصدرها الاضطرابات التي قامت في البرتغال وقد امتنعت فرنسة عن التدخل فيها . فقال الداي « هكذا اذن تمنح فرنسة

مكلف حسب تعليمات حكومته بنقل جواب الوزارة وانه نقله بامانة فاشتكى الداي حينئذ ان الفرنسيين قد اقاموا حول مؤسساتهم في الجزائر تحصينات، مخالفين بذلك المعاهدات ، وأعلن أنه لا يرغب أبداً أن يكون على الأرض الجزائرية مدفع واحد للكفار ، ولم يترك الداي لديفال فرصة للرد وامره بالانصراف .

ولم يسرع ديفال بكتابة تقريره بل طاف بوزراء الداي يصف لهم ماحدث املاً في الحصول على مساعدتهم ، ولكنه فشل . وقد اجابه احدهم « ... ينبغي منع كسر الزجاج ولكن عندما ينكسر فاي علاج لذلك ... » واعتبر ديفال في تقريره ان هذه الاهانة وطنية وليست شخصية في حين ان الداي حسين كان يؤكد ، قبل سقوطه ، وبعده ، على الطابع الشخصي المحض لحركته ويرفض ان يعتبر ديفال الذي كان يحتقره ممثلا لفرنسة . وحملت الاوساط القنصلية في الجزائر واوساط موانئ البحر المتوسط ومرسيلية ديفال مسؤولية ما حدث واعتبرت انه قد دفع بوقاحته الداي الى فعل ما فعل . ولم تعط هذه الاوساط للحادث الاهمية التي اعطتها له الحكومة الفرنسية .

انكلترة كل ما تريد ولا تعطيني شيئا » فقال ديفال « يبدو لي ياسيدي ان حكومة الملك قد منحتكم على الدوام كل ما باستطاعتها » فقال الداي « لماذا اذن لم يجب وزيركم على رسالتي ؟ » فقال ديفال « لي الشرف أن أحمل اليكم الجواب الشفهي حالما تلقيته . فقال الداي « لماذا لم يجبني مباشرة ؟ هل انا شخص تافه ؟ انك انت السبب في اني لم اتلق جوابا من وزيركم . انك انت الذي اشرت عليه ان لا يكتب الي . انك خبيث كافر ووثني » فقال ديفال « ان حكومتي لن تكتب اليك ، ان هذا غير مجد » . وحينئذ خرج الداي عن طوره فنهض وأمر القنصل بالانصراف ولكن ديفال لم يتحرك فضربه بكشاشة الذباب .

انظر : G. Esquer : P. 62

وفي تقرير ديفال وقنصل ساردينية الذي علم بالحادث عن طريق ديفال نجد ان الداي ضرب ديفال بكشاشة الذباب دون اي استفزاز من جانب ديفال في حين ان رسالة الداي الى السلطان العثماني وتصريحه للضابط الفرنسي بيزار سنة ١٨٢٨ والى لابروتونيير سنة ١٨٢٩ ، وما جاء في رسالة لقنصل انكلترة سنة ١٨٢٧ الذي علم بالحادث من حاشية الداي ، وما جاء في كتاب حمدان بن عثمان خوجا « المرآة » يؤكد ان الداي ضرب ديفال بسبب وقاحته وتطاوله .. ويشير اسكن الى ان هناك قولا كان شائعا في الجزائر ان الداي هدد ديفال ولكنه لم يضربه .

حصار الجزائر :

وجهت فرنسة قوة بحرية بقيادة الكابتن كولله Collet وحملت
انذارا الى الداي بوجوب تقديم ترضية رسمية عن هذه الاهانة . وسمحت
الحكومة الفرنسية لكولله ان يختار واحدا من ثلاثة اجراءات للاعتذار
ذكرتها له بالتفصيل :

١ - ان يذهب الداي حسين نفسه الى مقر القنصلية الفرنسية في زيارة رسمية
ويقدم للقنصل هناك اعتذارا رسمياً .

٢ - او ان يستقبل القنصل الفرنسي بقصره في حفل رسمي ويقدم له
الاعتذار .

٣ - او ان يوفد وفدا رسميا برئاسة وزير البحرية والشؤون الخارجية
الى قائد الحملة البحرية على ظهر سفينته ليقوم باسم الداي بالاعتذار
العلني للقنصل .

وبالاضافة الى هذا ينبغي رفع العلم الفرنسي فوق قلاع المدينة وتحيته
بمئة طلقة مدفع وبعد أن يتم الاعتذار يطالب كولله بتعويض عن الاضرار
السابقة : معاقبة الرؤساء الذين اعتدوا على السفن الفرنسية ، دفع ثمن
البضائع التي احتجزت على ظهر سفينة اسبانية ، دفع ثمن السفن البابوية
التي احتجزت ، ان يعلن الداي انه سيحترم الراية البابوية ، تقديم تعويض
على مهاجمة بيت ممثل فرنسة في عنابة . وعلى كولله ان يطالب بضمانات
لمستقبل من بينها : ليس من حق الجزائريين زيارة السفن الفرنسية
لتفتيش ، أن فرنسة ستسلح حصن القال وكل مؤسساتها في النيابة ، أن
علن الداي أن الحكومة الفرنسية قد وفت بكل التزاماتها في تصفية ديون
كري وبوشناخ ، وانه ليس للنيابة أية ادعاءات ضد الخزينة الملكية . واخيراً
تع فرنسة في الجزائر بحق الامة الأكثر رعاية . وبعد التشاور مع ديفال

واحد ضباط البحرية اختار كولله الاجراء الثالث . وكان القنصل ديفال
والرعايا الفرنسيين قد انتقلوا ، من قبيل الحيطة ، الى ظهر السفن الفرنسية ،
بالرغم من تأكيد الداي أن أياً من الفرنسيين لن يتعرض للأذى .

قدم كولله مذكرة بهذه الشروط الى الداي بواسطة ممثل ساردينية ،
وكان على الداي ان يجيب خلال (٢٤) ساعة . وقد رفض الداي الانذار
وقال ساخرا (يدهشني ان الفرنسيين لم يطلبوا مني زوجتي) وبحسب تقرير
الداي الذي رفعه الى السلطان قال « ... ان شروطا من هذا النوع ليست
من فعل رجال دولة اذكياء ، ولكنها اشبه بكلام مجانين في مرستان ... »
واقترح الداي ان يحضر فرنسي رصين الى الجزائر لاجراء تحقيق
و « ... سيدرك ان هذا القنصل الدساس لا يلائمنا ولا يلائمكم ... »
واعلن انه لن يعير اهتماما لهذه المطالب الوقحة المرسلة دون طلب استفسار
مسبق « ... اذا ارسلتم رجلا خلال اربع وعشرين ساعة فان الموقف يمكن
توضيحه ، والا دخلنا في حالة خصومة ... »

ولما لم يكن هناك حل وسط حدث التصدع النهائي في ١٦ من حزيران ،
وبدأ كولله الحصار . وكانت باريس تعتقد ان الداي سيتراجع ولهذا امرت
ديفال ان يبقى على ظهر سفينة كولله وان يكون مستعدا للاجابة عند اول
نداء . ولكن الداي ظل صامتا ينتظر بهدوء فشل الحصار الذي استمر
حوالي ثلاثة اعوام وكلف فرنسة الملايين . ولم يحل الحصار دون هجمات
السفن الجزائرية على السفن الفرنسية ، ولم يجد نظام القوافل ، لان ضعف
الحراسة وزيادة التأمينات اصاب كل فروع التجارة بالاضرار ، وقد تأثرت
مرسيلية اكثر من غيرها بالنتائج .

وكان التردد ظاهرا بين انصار الحصار وانصار ارسال حملة الى
الجزائر ، ولم يكن رئيس الوزارة الفرنسية فيليل في ظروف تسمح له باتخاذ
قرار متشدد . فقد كان يصطدم في الداخل بنقمة الرأي العام بسبب الغاء

الحرس الوطني ، وبازدياد المعارضة في المجلس . ولم يكن الوضع قد استتب في اسبانية ، وكانت المسألة اليونانية تستأثر باهتمامه : فقد كانت حكومة فيليل حريصة على ان تشترك مع روسية وانكلترة في تدخل مشترك لدى السلطان كما ان وجود الاسطول الفرنسي في الأرخبيل لا يسمح بالتفكير بحملة افريقية . وكانت الحكومة تظن أن الحصار وما يسببه من اضرار للتجارة الجزائرية يكفي لتغيير موقف الداي . ولهذا مالت الحكومة الى فكرة الحصار وايجاد حل سلمي . أما انصار ارسال حملة الى الجزائر فكانوا قلة منهم قائد اسطول الحصار كولله الذي اعلن ان العمل البحري وحده لا يكفي ، وأشار الى فشل قصف اللورد اكسموث ، واكد كولله انه لايمكن اخضاع الجزائر الا بهجوم من البر . وقال ان هذا الهجوم ممكن لأن الجزائريين لايتوقعونه ، بدليل انهم لم يهتموا بتقوية وسائل الدفاع عن المدينة من جهة البر . ولم يحدث تغير منذ ان كتب بوتان تقريره . وأيد ديفال مشروع حملة برية . كما أن الضابط الفرنسي دوبوتي توار الذي حمل رسالة كولله كان من مؤيدي انزال حملة وكان خبيراً بسواحل الجزائر ، وقد اجاب على أسئلة وزير البحرية فقال : انه من العبث طلب تدخل السلطان فضلاً عن أن هذا الطلب لايتناسب مع كرامة فرنسة . وبين انه لا جدوى من الحصار والقصف وان الوسيلة الوحيدة هي عمل بري وبحري في آن واحد . وقد تبنى وزير البحرية وجهة النظر هذه وبين في تقرير له إلى الملك أن هدف هذه الحملة هو اما امتلاك نهائي للبلاد أو على الأقل تدمير كل الوسائل التي تسمح للجزائريين بممارسة القرصنة . ولكن مجلس الأميرالية عارض المشروع ، وكان اعضاؤه تحت تأثير ذكرى فشل شارلكان . وقد بين احد اعضاء المجلس صعوبات القيام بحملة وكثرة نفقاتها ، وأيد فكرة القصف الذي ، ان لم يقدر له النجاح التام ، فان له ميزة أنه لايترتب عليه شيء في حالة فشله . وفي حين كانت البحرية تعارض ارسال حملة وتؤيد قصف الجزائر ، انضم وزير البحرية كليرمونت تونير

الى انصار الحملة ودعا ابن القديس لويس (اي شارل العاشر) لينتقم للدين والانسانية معطيا للحملة طابعا صليبيا . واذا كان مشروع كلير مونت تونير عن الحملة الذي قدمه الى مجلس الوزراء يعتمد من الناحية العسكرية على تقرير بوتان فان الشيء الهام في تقريره هو الدوافع التي وضعها لتبرير مشروع الحملة : فبدلا من التركيز على القرصنة وحماية التجارة واهانة التاج ، يتحدث كلير مونت تونير عن (اعداء المسيحية) و (تنصير الجزائريين) وعن فوائد الحملة بالنسبة للسياسة الداخلية الفرنسية اذ انها وسيلة لتحسين سمعة الحكومة وصرف الشعب الفرنسي عن المسائل الداخلية ، والى علاقة الحملة بالسياسة الخارجية . فقد اشار كليرمونت تونير إلى أن تغيرات كبيرة على وشك ان تحدث في اوربة التي ربما كانت بحاجة الى الحروب كوقاية من الثورات . ان الصراع مع الباب العالي يهدد أن يصبح صراعاً حاسماً ، فاذا كان الأمر كذلك فان الدول الثلاث المتحالفة (فرنسة وانكلترة وروسية) ستكون مضطرة لأن تقبل توسعاً متبادلاً لكل منها . وستجد فرنسة نفسها مدفوعة الى التقارب مع روسية التي يكون التحالف معها نقطة أساسية بهدف الحصول ، على حدود الرين وقمة الألب ، مقابل اطلاق يدها في آسية . حقيقة ان الحلفاء قد وقعوا اتفاقاً يهدف الى عدم القيام بأي فتح في حال ما اذا نشبت الحرب مع السلطان ، ولكن الجزائر في رأي كلير مونت تونير ليست جزءاً من السلطنة . وبالاضافة الى ذلك فان الدول المتحالفة قد تجد نفسها بتأثير الحرب نفسها مضطرة للتخلي عن التزامها بعدم التوسع ! فمن المفيد لفرنسة ان تأخذ مقدماً حصتها من التوسع ، الامر الذي يسمح لها أن تكون أكثر اعتدالاً في ادعاءاتها أو في أن تطالب بأكثر . وقال تونير ان على فرنسة أن تكون مستعدة لكل حادث . أليس من مصلحتها أن تنظم جيشاً ، ألا تقدم لها الحرب مع الجزائر أفضل الحجج ؟

وتساءل كليرمونت تونير عن امكانية معارضة الدول للمشروع وبين

انه ليس هناك خشية من ذلك • ذلك (ان احداً لم يسأل انكلترة وروسية عن توسعهما في آسية •••)

واشار التقرير الى الفوائد الاقتصادية الهامة التي ستحصل عليها فرنسة من امتلاك بلد فيه سهول خصبة ، وغني بالغابات والمناجم والقطعان • واخيرا فان مشروع كليرمونت تونير يقضي بان تغطى نفقات الحملة كليا من خزينة الداي ، وقد قدر هذه النفقات بـ /٥٠/ مليوناً •

عرض هذا التقرير على مجلس الوزراء في /١٤/ من تشرين الاول /١٨٢٧/ فرفضه ، لان الحكومة لم تكن تملك آنذاك وسائل التدخل : فقد كان قسم من اسطولها مرابطا مع الاساطيل الانكليزية والروسية في المياه اليونانية ، والقسم الآخر منه في مياه البرازيل رداً على احتجاز بعض السفن الفرنسية ، وكان قسم من القوات الفرنسية مايزال في اسبانية ، وكانت ثورة مدغشقر تشغل جانبا آخر من القوات • وبالاضافة الى هـذا كله كانت الانتخابات وشيكة وهي التي تقرر مصير الوزارة ، ولن يتاح للحملة فرصة التأثير على نتيجة الانتخابات •

اسفرت الانتخابات التي جرت في اواخر / ١٨٢٧ / عن زيادة عدد النواب الاحرار واضطرت وزارة فيليل الملكية ، التي كانت تحظى بثقـة وتأييد شارل العاشر ، الى الاستقالة • واضطر شارل العاشر في كانون ثاني /١٨٢٨/ الى تكليف احد الاحرار المعتدلين « مارتينياك » بتأليف الوزارة • وكانت وزارة مارتينياك لاتتمتع بثقة وتأيـيد الملك ، ويعارضها الاحـرار المتطرفون والملكيون على السواء ، ولذلك كان وضعها مزعزعا •

وكان وزير الخارجية الجديد الكونت دولافروناي De La Ferronay. مهتما بالمسألة الشرقية ، وكان يعتبر مسألة الجزائر عبئا ينوي التخلص منه• وقد واجه من حيث المبدأ احتمال تدخل بحري تشترك فيه فرنسة وانكلترة وروسية ليتجنب نزاعا بين لندن وباريس ، ولكن هذه الفكرة استبعدت •

ومع ذلك ، وبالرغم من ان هناك لجنة مختلطة في وزارة الحرب كانت تدرس شروط انزال حملة في سيدي فرج والزحف على حصن الامبراطور ، فان الحكومة كانت ماتزال تميل الى الحل السلمي مستبعدة اي عمل عسكري • ولهذا لم تتقدم الحكومة بطلب اعتمادات لمثل هذا العمل •

حاول دو لافروناي ان يقوم بجس نبض الداي ليرى استعداده للوصول الى حل سلمي ، وكلف الضـابط (بيزار) بالاتصـال بالـداي • وفي المقابلة التي تمت بين بيزار والداي بحضور قنصل سردينية ، سأل الداي عن سبب اعلان فرنسة الحرب قبل ان تعرف وجهة نظره ، واكد ان ديفال هو السبب في كل ما حدث ، واعلن الداي انه لم يضرب ديفال بالمروحة وانما اشار بها اليه فأصابت جبينه وانه لم يقصد قط ان يضربه ، وكان هذا بمثابة اعتذار من الداي ، الا ان فرنسة لم تكتف بهذا بل اقترحت ان يعلن الداي امام القناصل الاجانب انه لم يكن ينوي الاساءة لملك فرنسة ، وان يوفد بعد ذلك رسولا الى باريس ليكرر هذا الاعلان للملك ، ولكن الداي رفض • وطغت المسائل الداخلية ومسألة اليونان / ١٨٢٨ / على مسألة الجزائر التي كانت تستخدمها المعارضة كمناسبة لانتقاد ومهاجمة الحكومة • واعلن الملك ان الامل بالحصول على ترضية من الداي لم يذهب ، ولهـذا لايزال هناك وقت للتدابير التي قد يفرضها يوما ما موضوع معاقبة الداي •

وفي صيف /١٨٢٩/ قامت حكومة مارتينياك بمحاولة اخرى للتفاهم مع الداي ، فقد كلفت قائد اسطول الحصار الجديـد (دولا بروتونير) ان يتصل بالداي وان يعرض عليه هدنة مؤقتة ، على ان يرسل مندوباً عنه الى باريس لتقديم الاعتذار ، وان يطلق سراح اسرى السفن البابوية • وجرى الاجتماع بين لابروتونير والداي في الجزائر ، ولكن الاجتماع لم ينته الى نتيجة • وعندما هدد لابروتونير الداي بلجوء فرنسة الى القوة ، اجاب الداي « لدى البارود والمدافع » • وعند مغادرة لابروتونير ميناء الجزائر على ظهر سفينة ، وقع حادث جديد زاد في حـدة الخلاف • فقـد تعرضت سـفينة

لابروتونير لقصف مدفعية الميناء[1] • وبالرغم من ان الداي اعلن ان هذا القصف تم بدون علم منه ، وابدى اسفه لما حدث ، واعلن انه سيعاقب المتسبب في هذا الحادث ، واقال امير البحر وقائد المدفعية بوصفهما المسؤولين عن الحادث ، فان فرنسة اعتبرته المسؤول الاول • وعندما وصل نبأ هذا الحادث الجديد الى فرنسة كانت وزارة مارتينياك قد استقالت وكلف الامير بولينياك بتأليف حكومة من الملكيين المتطرفين الذين يرضى عنهم شارل العاشر ، والمستعدين لتخليصه من مضايقات (الوثيقة) وشغب (المعارضة الحرة) •

استقبل الرأي العام الفرنسي هذه الوزارة باستياء شديد لا مثيل له : فرئيسها من حاشية ماري انطوانيت القديمة ، وقد اختار وزراءه من الملكيين المتطرفين المؤيـدين لعـودة نظام الامتيـازات القديمـة والغـاء كل ما جاءت به الثورة الفرنسية • وبين هؤلاء كان وزير الحربية بورمونت ، الذي خان نابليون في معركة واترلو وانضم الى الحلفاء ، وشهد في محاكمة الماريشال ناي ، وكان له اثر كبير في الحكم باعدام الماريشال مما جعله ممقوتا لدى الرأي العام • وقد كتبت جريدة (الديبا) تعليقا على هذه الوزارة « ••• كوبلنتز ! واترلو ! ١٨١٥ ! • هذه هي المبادىء الثلاثة لهذه الوزارة اضغطوها ، اعصروها ، فلن ينتج عنها الا الاذلال والشرور والمخاطر ••»[2] ولم يكن بامكان الرأي العام ان يصدق ان باستطاعة هذه الوزارة التي تمثل كل ما هو مكروه لديه ان تفعل خيرا • ولهذا فقد ادانها سلفا أيا كان الاتجاه الذي ستسلكه في معالجة موضوع الجزائر ، الذي بدأ يحتل مكانا بارزا في « ••• قائمة المتاعب التي تثيرها المعارضة ••• » •

---

(1) ذكر احد النواب الفرنسيين ان قصف الجزائريين لسفينة لابروتونير كان لان الريح دفعت السفينة نحو التحصينات مما اثارت شكوك ومخاوف الجزائريين فقصفوها

. G. Esquer : P. 182

(2) J. Debu - Bridel et M. Benoist : La guerre qui paye Alger P. 46

كان بولينياك يهتم بالدرجة الاولى في ان يعيد للملكية الهيبة والسمعة التي كانت تنقصها • كانت هذه الملكية في نظر الرأي العام تمثل كل ما قام به الحلفاء بعد انتصارهم على نابليون من اذلال لفرنسة : فقد عادت بعربة تحرسها حراب الاجانب ، ووافق عودتها احتلال الجيوش الاجنبية للاراضي الفرنسية • وقبلت معاهدة فينا /١٨١٥/ ، التي فرضت على فرنسة شروطاً مخزية • ولهذا كان بولينياك يسعى بالدرجة الاولى وباية وسيلة كانت ، لتحطيم هذه المعاهدة لانها السبيل الوحيد لاستعادة هيبة الملكية • ولهذا اهمل مؤقتا مسألة الجزائر وحصر تفكيره في وضع مشروع جديد يعيد فيه تنظيم خارطة اوروبة ، مستغلا الاوضاع الجديدة الناجمة عن الحرب الروسية التركية واقتراب الروس من استنبول بعد استيلائهم على ادرنة • ولما كانت انكلترة ستقف في وجه الروس لتحول دون استيلائهم على العاصمة التركية ، فان احتمال صدام جديد في اوروبة امر متوقع ، وللحيلولة دون قيام مثل هذا الصدام لابد من عقد مؤتمر • وكان بولينياك يفكر في ان يعرض على المؤتمر مشروعه في اعادة تنظيم اوروبة • واهم ما كان يتضمن المشروع بالنسبة لفرنسة ، الحصول على بلجيكة واللوكسمبورغ ، وإبعاد بروسية عن رينانية ، ومنح روسية والنمسة مقاطعات على حساب الدولة العثمانيـة • وتعويض انكلترة بالمستعمرات الهولندية ، وانتزاع استنبول من تركيـة وتنصيب امير مسيحي عليها • ولما كان هذا المشروع خياليا اكثر منه واقعيا فقد دفن قبل ولادته ، وانصرف بولينياك حينئذ الى معالجة المسألة الجزائرية، وقد اتجه بادىء الأمر نحو السلطان ليطلب منه الضغط على الداي ليقبل مطالب فرنسة ، ولكن السلطان لم يكن يملك في ظروفه الحالية اي وسيلة الضغط او التدخل • وحينئذ توجه بولينياك نحو مصر •

بولينياك ومحمد علي :

نجح محمد علي بفضل اصلاحاته السياسية والاقتصادية والعسكرية في خلق دولة عصرية في مصر • وقد اثارت هـذه الاصلاحات والنجاحات

العسكرية التي حققتها جيوشه في الحجاز والسودان واليونان الاعجاب والاهتمام والقلق في الدول الاوربية ، كل حسب الزاوية التي كان ينظر منها الى هذه النجاحات ، والى كيفية ومدى تأثيرها على مصالحه . وكانت فرنسة اكثر الدول اهتماما بهذا التقدم وتشجيعاً له واسهاماً في تحقيقه ، وكان النفوذ الفرنسي قوياً في مصر بفضل المساعدات التي قدمتها فرنسة ، وبسبب مخاوف محمد علي من روسية وبريطانية ، وحاجته الى تأييد فرنسة ومساعدتها في انجاز مشاريعه السياسية التي كان يحلم بتحقيقها على حساب الامبراطورية العثمانية الهرمة . وكانت فرنسة تقدر انها ، بفضل صداقتها لمحمد علي ومركزها القوي في مصر ، ستفيد فائدة كبرى فيما اذا نجح محمد علي في اقامة الامبراطورية العربية التي لم يكن يخفى عليها رغبته في تحقيقها .

كان قنصل فرنسة العام في مصر دروفتي شديد الاعجاب بمحمد علي وصديقا حميما له ، وصار بمثابة مستشار له يشارك في نجاحاته كما لو كانت لبلده . وكان على علم بمطامع محمد علي في بلاد الشام . وكان محمد علي قد اعلن سنة /١٨٢٥/ للجنرال بوايه رئيس البعثة العسكرية الفرنسية التي كانت تشرف على تدريب جيشه عن رغبته في احتلال بلاد الشام[1] . ولكن دروفتي بين لمحمد علي مخاطر هذا المشروع الدولية بسبب اهتمام الدول بهذه المنطقة . وكان دروفتي يعتقد ان مصير مصر ينبغي ان يتوطد في غربي المتوسط لا في سورية ، فشرع منذ /١٨٢٦/ يحول اهتمام محمد علي نحو شمال افريقية ، حيث يستطيع انشاء امبراطورية تمتد من مصر حتى المحيط الاطلسي . وقد زاد التصدع الذي حدث بين الجزائر وفرنسة /١٨٢٧/ من اهتمام دروفتي ، وكان من الممكن ان يثير اقتراحه اهتمام الحكومـة الفرنسية لولا انشغالها بالمسألة اليونانية .

---

(١) اميل خوري وعادل اسماعيل السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٩٥٨ ج ٢ ص ٥٧ .

وظل دروفتي بعد نقله من مصر /١٨٢٩/ يسعى في باريس لتحقيق مشروعه . وكان خلفه في مصر ميمو يشاركه في آرائه . بين دروفتي للمسؤولين الفرنسيين ان عملا اسلاميا سيكون اكثر فعالية من تدخل مسيحي . وسيسمح هذا العمل بجعل هذه النيابات الافريقية في الحالة نفسها من الحضارة والتبعية للسلطان الموجودة في مصر ازاء السلطان . ويمكن ان يقتصر اشتراك فرنسة على تزويد محمد علي بفريق من المدفعيين وقرض بـ /١٠/ ملايين فرنك . وبين دروفتي في تقريره في ايلول/١٨٢٩/ الى بولنياك ما ستجنيه فرنسة من فوائد من هذه العملية ، وهذه الفوائد هي :

١) توفير النفقات الضخمة التي تتكبدها فرنسة اذا ذهبت هي بنفسها وهي بحاجة اليها في اغراض اخرى .

٢) تعويض خسائر محمد علي في اليونان . وتمهيد السبيل لاعادة العلاقات الطيبة معه .

٣) تجنب معارضة بريطانية، التي قد تتراجع عندما تصبح المسألة اسلامية بحتة .

٤) ارتياح الباب العالي لعودة هذه الولايات الى سيطرته .

٥) تحويل نظر محمد علي عن التوسع في بلاد الشام وتجنب ماسيثيره ذلك من ازمة دولية حادة .

٦) ارتياح اوروبة للقضاء على القرصنة واصحابها واعتراف العالم بجميل فرنسة صاحبة الفكرة .

واكد دروفتي ان احتلال الجزائر لن يكون امرا صعبا على الجيش المصري المعتاد على شظف العيش وصعوبات السير في الصحاري ، وقد ثبتت كفاءته في السودان والحجاز . وبين ان السلطان لن يعترض على هذه الحملة لسببين :

١) لان محمد علي سيدفع للخزانة التركية جزءا لا بأس به من واردات تونس وطرابلس والجزائر التي لا يدفع حكامها شيئا للباب العالي .

٢) ان اتجاه محمد علي نحو شمال افريقية سيبعد خطره عن الولايات العربية الآسيوية[1] .

تحمس بولينياك لهذا المشروع ، لانه كان يعتقد بمصاعب الحملة الفرنسية وكثرة نفقاتها ، في حين ان عمل محمد علي سيضع حدا للاهانات والاضرار التي تلحقها النيابات الافريقية بفرنسة ، كما ان هـذا المشروع سيزيد في قوة محمد علي صديق فرنسة ويحقق لفرنسة امتلاك نقـاط عسكرية على الشاطيء الافريقي . ولكن بولينياك كان يعتقد ان نجاح المشروع يتوقف على موافقة محمد علي وقبول السلطان وحياد انكلترة . قرر بولينياك العمل لتذليل هذه العقبات كلها ، فكلف قنصله الجديد في مصر ميمو مفاوضة محمد علي حول هذا المشروع . وكلف الكابتن هودر الملحق العسكري في السفارة الفرنسية في استنبول ، وكان صديقا قديما لمحمد علي ، ان يسافر الى مصر ليدعم مساعي ميمو . وفي الوقت نفسه كلف بولينياك سفيره في استنبول بطلب موافقة السلطان على المشروع وتسليم المذكرة التالية له : « ان داي الجزائر قد اهان الملك فاعتزم الملك ان يثأر لشرفه ، وليس في نية جلالته ان يطلع الباب العالي على الوسائل التي سيستعملها . ويكفيه القول ان واجبه يقضي بان يصون رعاياه من الاخطار التي تهددهم في هـذا الجزء من الامبراطورية ويؤمن لهم السلامة . ولكن حفاظا على الصداقة القديمة القائمة بين فرنسة وتركية ، والتي كان موقف حكومته في المفاوضات التي جرت مؤخرا في الاستانة اسطع دليل على شدة حرصة عليها ، نود لو ان السلطان يقوم بنفسه وبوسائله الخاصة بتأديب عامل لاشك في انه يشجب شذوذه عن اللياقة والتهذيب . واذا شاء السلطان ان يؤدب هذا التابع الشاذ

(١) اميل خوري وعادل اسماعيل – المصدر السابق ج ٢ ص ٧٠ .

فله في القوة العسكرية التي يملكها باشا مصر ما يضمن تنفيذ ارادته على اكمل وجه . وبوضع هذه المهمة في عنق محمد علي يبعد جيشه عن بلاد عربية لم ينفك عن التفكير ببسط سيادته عليها ، وخير فرصة للباب العالي ، للتحرر من هذا القلق الذي يوجده طمع باشا مصر بفتح سورية ، ان يوجه الجيش المصري الى بلاد بعيدة عنها ، اي ان يصدر فرماناً يأمر محمد علي بالاستيلاء على الولايات الثلاث (طرابلس وتونس والجزائر) واقامة حكم جديد فيها ، يضمن الهدوء والاستقرار ويرتاح اليه اصدقاء السلطان ، ويكون في الوقت ذاته ، قوة يحسب لها اعداء الباب العالي الف حساب .

« ... وان أوربة ستنظر بسرور الى قيام مثل هذا الحكم في بلاد واضحة القابلية للتجارة والانتاج جعلها جهل حكامها الحاليين وجشعهم مرتعا للقراصنة . ومن مصلحة الباب العالي ان تزول دولة هؤلاء الحكام الذين لايدفعون لخزانته شيئا مما يجبون ويربحون ، وتحل محلها ولاية لمحمد علي ، فيكون للخزانة منهـا ما لها من مصر ، وعندئذ تصبح هـذه الولايات خاضعة مباشرة للاستانة . وفي هذا تعويض عما ضحى به السلطان في معاهدته مع روسية ... »

وفي نفس الوقت قدم ميمو وهودر لمحمد علي مشروع اتفاق يقوم على:

١) يتعهد محمد علي بالقيام بالحملة بجنوده وحدهم وبدون الاستعانة بسواهم .

٢) تقدم فرنسة لمحمد علي قرضا بعشرة ملايين فرنك تدفع له على اقساط اثناء الحملة ، على ان يسددها في مدة عشر سنوات على الاكثر .

٣) تتعهد فرنسة بتشديد الحصار البحري على شواطيء الجزائر وتونس وطرابلس .

لم يكن محمد علي راغباً في اطلاع السلطان على المشروع كي لا يثير شكوكه

وقلقه • وخشي ان يعتبر السلطان مسعى السفير الفرنسي (تواطؤا) بين فرنسة ومصر • وكان يفضل تنفيذ المشروع بسرعة ووضع الباب العالي امام الامر الواقع •

وافق محمد علي على المشروع ، واشترط ان يتحمل مسؤولية الحملة كاملة • فتقوم بها جيوشه بقيادة ابنه ابراهيم باشا • ويتألف الجيش من /٤٠/ ألف جندي نصفه من الجند النظامي ينقل بحرا ، والنصف الآخر من البدو ، وينقلون برا •ولم يكن محمد علي يرغب في اشراك الاسطول الفرنسي معه ، وكل ما على فرنسة ان تحكم الحصار على الشواطىء الافريقية على ان تفك الحصار وتسحب قواها البحرية عن هذه الشواطيء متى رأى ابراهيم باشا انه صار في غنى عنها • واذا لزم الامر ، فعلى فرنسة ان تضع تحت تصرف ابراهيم ضباط مدفعية وهندسة ، وان تقدم فرنسة لمحمد علي قرضا بمبلغ /٢١٫٢٠٠٫٠٠٠/ فرنك تدفع خلال اربع سنوات ، يبدأ دفعها منذ احتلال مدينة الجزائر ، وتمنح لمحمد علي /٤/ سفن حربية من عيار ثمانين مدفعا ، كهدية ودون مقابل •

حاول ميمو وهودر اقناع محمد علي بالعدول عن طلب السفن مؤكدين له ان الاسطول المصري بحالته الراهنة كاف لانجاز المهمة ، ولاسيما وان الحملة برية وليست بحرية • ولكن محمد علي كان مهتما بالسفن اكثر من المال • وتمسك بطلبه هذا مبينا انه لا غنى له عن هذه السفن لتكون الحملة قوية تفرض الهيبة والاحترام ، لا على القراصنة البربر فقط بل على الباب العالي ايضا • واعلن ان تنفيذ هذا الطلب شرط لابد منه لقيام الحملة •

وعندما عاد هودر الى باريس كتب مذكرة الى بولينياك يلح فيها على ضرورة منح السفن لمحمد علي كثمن للحصول على مساعدته• وتبنى بولينياك مشروع محمد علي ولكنه اصطدم بمعارضة وزيري الحربية والبحرية •

كان بورمونت وزير الحربية من انصار التدخل الفرنسي المباشر ،

وانتقام فرنسة بنفسها للاهانات التي لحقت بها وليس بالوكالة • وكان يرى أن حملة محمد علي مستحيلة ، وانها لن تنجح لأن عدد الجند النظامي في الحملة /١٥/ الفاً والباقي من البدو ، وان هذه القوة غير الكافية ستقطع ٣٠٠٠ كم لتصل الى الجزائر • ورفض وزير البحرية التنازل عن السفن الاربع لان ذلك يضعف البحرية الفرنسية ، وهدد بالاستقالة اذا سلمت فرنسة وحدة بحرية واحدة من اسطولها • وبناء على الحاح بولينياك وافق مجلس الوزراء على فتح اعتماد بـ /٢٨/ مليون فرنك•(٢٠) مليوناً منها تعتبر قرضا بدون فائدة و /٨/ ملايين تدفع لمحمد علي منحة يستطيع بها بناء او شراء السفن الاربع • وفي هذه الاثناء بدأت مصاعب اخرى تعترض طريق بولينياك • فقد رفض السلطان المشروع الفرنسي ، لانه رأى خطر تعزيز قوة محمد علي وتحالفه مع فرنسة واتجهت الدبلوماسية التركيـة اتجاهـا مغايرا ، فعزلت مسألة الجزائر عن مسألة النيابات الاخرى التي لم يكن لها مشاكل مع فرنسة ، وعرضت وساطتها لتسوية الخلاف • واقترحت ارسال محمد طاهر باشا _ وهو الاميرال الذي كان يقود الاسطول العثماني في نافارين ومن مواليد شمال افريقية ، وهو لهذا وبسبب خدمته في الاوجاق الجزائري يعرف افضل من غيره (القوي والضعيف في النيابات) ويستطيع ان ينفذ اوامر السلطان _ وكان اختيار طاهر باشا ذا دلالة : فهو عدو لفرنسة ومحمد علي في آن واحد • ولهذا فانه لن يتراجع عن اي وسيلة لجر الداي الى التفاهم لتجنب تدخل مسلح• ولكن فرنسة تمسكت بمشروع العمل ضد النيابات الثلاث بالرغم من انه لم يكن لها مشاكل مع طرابلس وتونس ورفضت الوساطة • وكان هذا دليلا على ان اهتمام فرنسة لم يكن منصبا على ايجاد حل للنزاع ، بل كان منصبا على خلق مملكة عربية في افريقية بواسطة محمد علي كمرحلة اولى في مشروع واسع سيمتد بموجبه النفوذ الفرنسي من شواطيء المتوسط الافريقية حتى قلب آسية • وهدد السفير الفرنسي الحكومة العثمانية بانه اذا لم يقم محمد علي بهذه الحملة فان فرنسة ستقوم

بها ، فيفقد السلطان كل ما يتعهد له به محمد علي • ولكن هذا التهديد
لم يثن السلطان عن موقفه •

موقف الـدول :

لم يكن بالامكان ابقاء امر هذا المشروع سرا فقد تنبهت اليه انكلترة
بواسطة الصحف الفرنسية وبواسطة سفيرها في استنبول • ولما استفسر
سفيرها في باريس رسميا من بولينياك ، اكد له هذا انه لم يسمع ابدا الكلام
عن مشروع مصري ، وكذب رسميا وجوده • ولكنه ما لبث ان اعترف به
بمذكرة رسمية الى الدول ، في منتصف كانون الثاني سنة ١٨٣٠ ، حددت
وجهة النظر الفرنسية في هذا الموضوع • ذكرت المذكرة انه بينما
كانت الحكومة الفرنسية منهمكة في اتخاذ التدابير للازمة لغزو الجزائر
عرض عليها محمد علي الاشتراك في هذا المشروع واقترح حلاً يوفر على
فرنسة ارسال جيش الى الشاطىء الافريقي يمكن ان يحقق النتائج نفسها
وبصورة مربحة لكل الدول الأوربية ••• إن سمعة محمد علي العظيمة في
هذه المناطق ، وان عملاء محمد علي العديدين العاملين بين السكان العرب
على شاطىء افريقية سيذلل الصعوبات ••• ان ابراهيم سيخضع طرابلس
وتونس والجزائر ويحطم نظام الحكومة القائم في هذه المدن ويوطد ،بفضل
ادارة نظامية ، سلطة السلطان • وسيتلقى السلطان من هذه المناطق جزية
سنوية في حين انه لايتقاضى منها الآن شيئاً • وستلغى القرصنة والاسترقاق
على طول ساحل المتوسط وستحترم حقوق الدول الاوربية في هذه المناطق
بدقة وسيتوافر للرعايا الاوربيين الأمن نفسه المتوافر لهم في ولايات الدولة
الأخرى • واكدت فرنسة انها بقبولها مشروع محمد علي تثبت نزاهتها
ونواياها السلمية • واكدت المذكرة ان الذي حمى نيابة الجزائر من الدمار
حتى الآن هو مسألة معرفة ماذا سيكون مصير الجزائر وتونس وطرابلس
بعد الاستيلاء عليها • ان استيلاء دولة اوربية عليها سيثير شكوك الدول الأخرى
في حين ان المشروع المصري سيقضي على القرصنة دون ان يثير المطامع

وستعود النيابات الى السلطان • ولن يؤدي هذا الحل اية مصلحة و...
وبعد ان اعرب بولينياك عن امله في ان الدول لن تضن بموافقتها
للجميع • وتأييدها المعنوي لتحقيق هذا المشروع الذي يهم الجميع ، انهى مذكرته
معلناً أن قرار الملك قطعي وهو الغاء القرصنة في المتوسط ، واذا لم تنجح
المفاوضات مع محمد علي فان فرنسة ستتخذ بنفسها حلاً لهذه المسألة حسب
ما تقتضي كرامتها ومصالحها(١) •

وكانت انكلترة قد تلقت معلومات اكيدة من استنبول • فبدأت تعمل
بسرعة لاحباط المشروع • كانت الحكومة الانكليزية تعارض بصورة حاسمة
كل مبادرة لخلط المسائل الشرقية بالمسألة الجزائرية ، مما سيؤدي الى
تصدع التوازن الشرقي وتجزئة الدولة العثمانية • وبالرغم من متانة
العلاقات التي كانت قائمة بين وزير الخارجية البريطاني اللورد ابردين وبين
بولينياك ، منذ ان كان هذا سفيراً في لندن ، فان ابردين لم يتأثر بالحجج التي
قدمها بولينياك لمشروع محمد علي ولم يخف دهشته من الايهام والغموض
اللذين احيطت بهما المفاوضات مع محمد علي • ورفضت انكلترة (ان تابعا
للسلطان يمكن ان يعمل بدون الحصول على فرمان من سيده) •
وشجعت الحكومة الانكليزية السلطان على مقاومة المشروع ، وبينت له
مخاطره ، وأعلنت انها لايمكن ان تقبل بتغيير الوضع الراهن في شمالي افريقية
بسبب اهمية هذه البلاد الستراتيجية • وفي الوقت نفسه وجهت انكلترة
بواسطة قنصلها في مصر تحذيرا شديدا لمحمد علي وانذرته بالعواقب
الوخيمة التي ستترتب على قيامه بهذه المحاولة ، وبينت له أن تخليه عن هذا
المشروع هو فرصته الوحيدة للنجاة ، والشرط الأول للاحتفاظ بسلطته ،
ولكنه اذا لم يحسن التصرف، فان بامكان انكلترة بالتفاهم مع السلطان ان
تخلق له المتاعب في المتوسط وسورية والبحر الأحمر • وطلبت الحكومة

(1) G. Esquer : La prise d'Alger P. 134

البريطانية من قنصلها ان يؤكد لمحمد علي أن انكلترة تعارض معارضة قاطعة تحالفه مع فرنسة وانها ستتصرف بهذا المعنى في استنبول •

ادرك محمد علي جدية التحذير الانكليزي ومخاطر تحديه لانكلترة فحاول في حديثه مع القنصل ان يخطب ودها ، وان يبين للقنصل الفوائد التي تجنيها انكلترة من التعاون معه لمجابهة التوسع الروسي الاكيد في اسية. ولكن انكلترة اصمت اذنيها •

وأخطرت انكلترة باي تونس وباشا طرابلس بالخطر الذي يتهددهما، وعملت على إثارة بلاطات اوربة ضد السياسة الفرنسية • ووجدت في مترنيخ حليفاً لها ، وكان مترنيخ يؤيد الابقاء على الوضع الراهن لأنه كان يخشى أن يرى اوربة تعود مرة اخرى فتغرق في الفوضى والأخطار التي ظلت تتجنبها منذ مدة • وقد الح مترنيخ بواسطة ممثله في استنبول على ضرورة الاسراع بارسال طاهر باشا • أما روسية فانها كانت منذ أيام الكسندر قد عرضت على فرنسة شمال افريقية كحصتها من تمزيق الدولة العثمانية • وكان غرض روسية من هذا العرض التفريق بين فرنسة وانكلترة ، ولكنها اظهرت قلقها من السياسة الفرنسية الجديدة لأن تقارباً بين باريس والقاهرة يمكن ان يؤذي مطامحها في المضائق ولهذا نصحت بولينياك بالتدخل المباشر •

وأظهرت اسبانية جناً فاضحاً لخوفها الحقيقي أو المزعوم من انتقام الجزائريين ، ولخوفها بصورة خاصة من انكلترة • أما دول ومدن الشمال البحرية فقد ايدت هذا المشروع الذي يحررها من القرصنة • أما بروسية التي كانت تأمل في أن ترى فرنسة تحول انتباهها عن الرين وبلجيكة ، فقد وعدت بصراحة بتأييدها في استنبول والقاهرة • وكتب المستشار البروسي إلى قنصله في القاهرة يكلفه ان يطلع محمد علي بصورة سرية أن بروسية متفقة تماماً مع فرنسة حول جوهر ومبدأ الحملة التي يتم الاتفاق عليها بين محمد علي وفرنسة • واقترحت سردينية اعطاء طرابلس لمصر ، والجزائر لفرسان

القديس يوحنا ، واعطاء تونس لدولة صغيرة لاتوحي بالخوف• وكانت تقصد نفسها بذلك •

وكان بولينياك قد عدل في مشروعه الذي اقترحه على محمد علي بعد ان تبين معارضة الدول ولا سيما انكلترة : واقترح تقسيم العمل : فتستولي مصر على طرابلس وتونس ، وتحتفظ فرنسة بالجزائر • لكن محمد علي رفض هذا الاقتراح وتمسك بموقفه ان تكون الحملة اسلامية محضة • وكان محمد علي حريصا على ما اكتسبه من مركز وشعبية لدى الرأي العام الاسلامي « ... اني اعلى وزراء الدولة العثمانية شأنا ، واحبهم الى قلوب الناس ولست مستعدا للمجازفة بمركزي وشعبيتي ، واذا قبلت الاتفاق فاني اخسر كل ما اكسبتني إياه اعمالي وجهودي واخسر معه شرفي فيحتقرني ابناء امتي وينصرف الناس عني ... »(١) وبالاضافة الى هذه الصعوبات الخارجية كانت المعارضة في فرنسة تشتد ضد الاعتماد على محمد علي ،ووقف الجيش والبحرية ضد هذا المشروع • وما لبث بولينياك نفسه ان انحاز اخيرا وبشكل نهائي لصالح التدخل الفرنسي المنفرد • وذلك لان النزاع بين انصار الوثيقة وانصار الحكم المطلق بدأ يشتد ، وفقد بولينياك امله في تعزيز موقف الملكية عن طريق تغييرات في اوربة لصالح فرنسة ، فقد قضى صلح ادرنة بين روسية والسلطان على هذا الامل ولم يعد هناك مجال لكسب مجد للملك يسمح بالتغلب على المعارضة وبالنجاح في الانتخابات القادمة والقضاء دون خطر على ضمانات الوثيقة • وقد كشف تصريح الماريشال برتيه في باريس عن الاهداف الحقيقية للحملة « ... اننا نذهب لناوش الداي ، ولكن الحرب الحقيقية والمجدية ستكون عند العودة ... » • واعلن بورمونت للجيش ان من واجب الجيش ان يحصل على نجاح قبل الانتخابات •ولم يكن مترنيخ خير الرجعية في اوروبة مخطئا حين قال

(١) اميل خوري وعادل اسماعيل : السياسة الدولية في الشرق العربي ج ٢ ص ٧٨ .

« ... ليس من اجل ضربة كشاشة يصرف /١٠٠/ مليون ويجهز /٤٠/ الف رجل ... »

الحملة الفرنسية ١٨٣٠ :

قبل ان تتخذ الحكومة الفرنسية قرارها النهائي في موضوع الحملة رأت أن تستوضح رأي السلطات المختصة في الجيش والبحرية . وكان هذا الموضوع منذ مدة موضع دراسات في الاوساط البحرية والعسكرية ولم يكن الجميع على اتفاق حوله .

كان وزير الحربية بورمونت يؤيد مشروع الاستيلاء على نقطة ارتكاز مثل وهران ، والسير منها نحو الجزائر . ولكن تـوار عارض هذا الرأي « ... ان احتلال وهران اصعب من احتلال الجزائر . فمن وهران سيكون امامك /١٥٠/ فرسخا (٦٠٠ كم) تجتازها الى الجزائر في بلاد صعبة جبلية ، وعندما ترسل مئة الف فلن يصل منها الى الجزائر الا خمسة الآف ... » ولما سأل بورمونت عن تأثير احتلال وهران على الداي اجاب ديبوتي توار « ... سيستمر في تدخين غليونـه دون اي قلق من وجود الفرنسيين في وهران التي بقي فيها الاسبان قرنا ونصف دون ان يتقدموا خطوة الى الداخل ... » وقبل أن يتخذ مجلس الوزراء قراره النهائي رغب الوزراء بالتفاهم مع ضباط البحرية والهندسة والمدفعية . طرح الوزراء السؤال التالي : هل انزال حملة تهاجم الجزائر من ناحيـة البر ممكن ؟ وما هي النقطة الساحلية الأصلح لاجراء عمليـة الانزال ؟ اجمع ضبـاط الاميرالية على أن انزال حملة مع العتاد اللازم أمر غير ممكن على الاطلاق بسبب المدة التي يستغرقها الانزال وقدروها بين اسبوعين وثلاثـة اسابيع مع أخطار التيارات والعواصف المألوفة على الساحل ، فضلاً عن الصعوبات التي ستواجه الجيش بعد نزوله : الرمال المحرقة ، نقص الماء والمؤن ، هجمات الجزائريين . وقد تصدى الضابط البحري دي بوتي توار وفنـد آراء الاميرالية مستشهداً بأحداث سابقة مماثلة حول الوقت الذي يتطلبه انزال

الجيش الى البر وأشار الى أن الأميرال الانكليزي اللورد كوشران قام بواسطة البحرية البرازيلية بانزال ١٢ الف رجل في خمس ساعات وأن الاسبان انزلوا الى البر ٢٠ الف رجل في ست ساعات سنة ١٧٧٥ .

ودعم قادة الجيش امكان نجاح الحملة واستشهدوا بالحملات الاسبانية السابقة ونجاحها في النزول الى البر ، وبينوا أن سبب فشل هذه الحملات يعود لأسباب لا علاقة لها بالظروف المحلية . ففي حملة شارلكان ترك الاسبان الطقس المناسب يمر ، واهمل اوريلي تنظيم مركز استناد على الساحل قبل تقدمه نحو الداخل . واستمر النقاش ٤ ساعات ، وأعلن الأميرال روسان استحالة الحملة فرد عليه وزير البحرية أنه يأسف من أجله لأنه كان قد اختاره لقيادة الأسطول ، فرد الأميرال أن الوزير لن يجد ضابطاً بحرياً كبيراً يتحمل مسؤولية القيادة ، فرد الوزير أنه سيختار القائد من الضباط الأدنى رتبة ، وان الحملة لن تلغ لأن ضابطاً لا يرغب قيادتها . وفي ٣١ كانون الثاني اتخذت الحكومة قرارها بالتدخل المنفرد وارسال الحملة . وفي ٧ شباط أمر شارل العاشر بتعبئة الجيش والبحرية .

واختير بورمونت لقيادة الحملة . وكان واضحاً ان الغرض من هذا الاختيار هـو إكسابه مجداً يغسل بـه عار ماضيه ، ويحسن سمعته لـدى الرأي العام .

وكان من الصعب اختيار قائد للاسطول لان معظم قادة البحرية كانوا قد اعلنوا استحالة الحملة . ولكن ديبوتي توار ذكر امام ولي العهد اسم دوبرى الذي لمع خلال المعارك البحرية في عهد الامبراطور وكان يتمتع بثقة البحرية . واختير دوبرى بالرغم من ميوله الحرة .

واجهت الحكومة بعد هذا الاختيـار صعوبة اختيار القائـد الاعلى للعمليات : بورمونت او دوبرى ؟ وكانت المسألة دقيقة اذ ان هذا الاختيار سيعطي للحملة طابعها الخاص . فلو كلف دوبري فسيصبح جيش الحملة

مجرد احتياط لعملية بحرية ضد الجزائر ، وباختيار بورمونت تؤكد الحكومة الطابع العسكري لعملها في الجزائر[1] ، وكان القائدان يختلفان في ميولهما السياسية وفي طباعهما ، ومن المتوقع حدوث احتكاك واختلاف بينهما اثناء سير العمليات ، ولهذا كان لابد من اعطاء الكلمة لاحدهما ، فقرر بولينياك الاحتياط لمثل هذا الخلاف ، ففي امر صدر في ١٨ من نيسان وتسليم لكل من القائدين بصفة شخصية ، اعلن بولينياك انه اذا قدر بورمونت ان مثل هذه الخلافات ستؤثر على نجاح العمليات العسكرية فعليه ان يأخذ في الحال قيادة كل القوات البرية والبحرية .

موقف الدول :

كانت المعارضة الوحيدة والشديدة التي تتوقعها فرنسة هي معارضة انكلترة ، فهي الدولة الوحيدة التي ستتأثر من هذا العمل ، لان إقامة فرنسة الدائمة في افريقية الشمالية سيهدد التفوق الانكليزي في البحر المتوسط . وكان من الواضح ان انكلترة لم تعارض حملة محمد علي لترى بدلا منها حملة فرنسية .

وكان مما يثير قلق انكلترة ان ترى فرنسة تستعيد بسرعة وجودها السياسي بعد ضربة الشلل التي وجهت لها اثر هزيمة نابوليون ، والمعاهدات التي فرضت عليها اثر هذه الهزيمة ، والتي لعبت فيها انكلترة دورا بارزا بقصد ابعاد اخطر منافس لها ؛ فها هي فرنسة تتدخل في اسبانية /١٨٢٢/ وتشترك في نافارين /١٨٢٧/ وتتدخل في شبه جزيرة المورة /١٨٢٨/ . ومما كان يزيد قلق انكلترة وضع الدولة العثمانية المتردي ، فقد انتصرت روسية /١٨٢٩/ وفرضت عليها ارادتها في معاهدة ادرنة ، فماذا سيحدث لتركية في حال تفاهم روسي فرنسي ؟ وماذا سيحدث اذا تحقق انتصار فرنسة في الجزائر بعد انتصار روسية في ادرنة ؟

(1) J. Debu - Bridel et M. Benoist : La guerre qui paye Alger 1830 P. 75.

وبالرغم من ان الحكم في انكلترة كان بيد المحافظين ، واتجاهاتهم الرجعية مشابهة للاتجاهات السائدة في باريس ، وبالرغم من الصداقة التي كانت تربط بولينياك باوساط المحافظين الانكليز منذ ان كان سفيراً لفرنسة في لندن ، فان مصالح انكلترة العامة واتجاهات عدد من المسؤولين الانكليز كانت ضد فرنسة . وكان من الصعب على رئيس وزراء انكلترة الدوق ويلنغتون ، بطل معركة واترلو ، ان يعامل فرنسة كقوة معادلة لبريطانية وان يراها تتصرف دون اي اهتمام برأي الحكومة البريطانية .

وكان وزير داخلية بريطانية روبرت بيل ، الذي كان يقود آنذاك المعركة ضد ايرلندة ، ينفر من فرنسة الكاثوليكية .

قامت الحكومة الفرنسية بابلاغ الدول الأوربية قرارها بارسال الحملة بمذكرة مؤرخة في ٤ من شباط سنة ١٨٣٠ . وقد جاء في المذكرة أن فرنسة قررت أن تنهي بنفسها قضية الجزائر معتبرة نفسها مندوبة العالم المتمدن وحددت المذكرة غرض المشروع الفرنسي بما يلي : القضاء على الاسترقاق والقرصنة والاتاوات على طول الشاطىء الافريقي ، تأمين سلامة الملاحة في المتوسط وجعل شاطىء المتوسط الجنوبي شاطىء انتاج وحضارة وملتقى لجميع الأمم .

أثارت هذه المذكرة قلق انكلترة ومخاوفها ، ولم تخف الحكومة الانكليزية شكها أنه بقوة الأشياء فان نتيجة هذه الصليبية التمدينية ستكون وضع يد فرنسة على نيابة الجزائر . وأعلن ويلنغتون للسفير الفرنسي أن ما جاء في المذكرة لايمكن ان يبعث الاطمئنان لدى انكلترة لأنها لا تجهل أن روح الطموح والفتح هي شعور وطني في فرنسة، وان الحكومة الفرنسية أياً كان لونها ستكون مضطرة للاستجابة لهذا الشعور المسيطر . وقال ابردين للسفير الفرنسي « .. ستكونون مضطرين الى السير الى أبعد مما أعلنتم وهذا لا يناسبنا ... » ولخوف انكلترة على تفوقها في المتوسط بسبب اقامة

فرنسة بصورة دائمة في افريقيـة حرصت علـى أن تحصل من الحكومة الفرنسية على تعهد بتخليها ، إما عن الحملة نفسها ، أو على الأقل عن أية فكرة باقامة مستعمرة في افريقية • ومنذ ١٢ شباط حدد ويللنغتون وجهة النظر الانكيزية « ان كل ما يمكننا أن نسمح به هو شيء ما مشابه لقصفنا سنة ١٨١٦ ، أو أن يتعهد ملك فرنسة بمذكرة رسمية بعدم اقامة النفوذ الفرنسي في الجزائر » • وفي هذه الاثناء كان السفير البريطاني في باريس يطلع حكومته على الأستعدادات العسكرية الفرنسية وعلى تحركات القطعات العسكرية والنشاط الواسع المرافق لها مبيناً أهميتها واتساعها ، لافتاً نظر حكومته إلى أن فرنسة تهيء لعمل ضخم على الشاطيء الافريقي •

وعبثاً حاول السـفير الفرنسي في لنـدن الدوق دولافال أن يطمئن الحكومة الانكليزية حول نوايا حكومته، وان الحملة لا غاية لها سوى معاقبة الداي وتحطيم القرصنة • فقد اعلن وزير خارجية بريطانية ابردين للسفير الفرنسي في ٣ من اذار ١٨٣٠ انه إذا أكدت الحكومة الفرنسية ان لا هدف لها سوى الانتقام للاهانات فانه ليس لبريطانية أن تعترض مهما كانت أهمية الاستعدادات الجارية • ولكن اذا كانت الحكومة الفرنسية ترغب في تحطيم قوة الداي فان الحكومة البريطانية تريـد أن تعرف لمصلحـة من سيتحول الاحتلال ؟ ورفض ابردين الاكتفاء بالتصريحات الشفهية وطالب بوثيقـة كتابية •

وظلت انكلترة طيلة المفاوضات تلح للحصول على تعهد مكتوب من فرنسة بعدم الاقامة الدائمة في افريقية الشمالية • وفي الوقت نفسه كانت الحكومة الفرنسية تحرص على عدم تقيد حريتها في العمل ، وبدلا من ان تحصر موضوع الحملة والتفسيرات المبررة لها مع انكلترة ، كانت علـى الدوام تتوجه الى الدول كلها ، جاعلة المسألة دولية ينبغي ان تعالج مع كل الدول وفي آن واحد •

وكان بولنياك يهدف من وراء ذلك الى غرضين :

١) فتح الطريق الى مشاريع واسعة ، كاعادة تنظيم اوروبـة ، وهـو مشروعه الاساسي المفضل الذي اتجه نحوه منذ استلامه رئاسة الحكومة •

٢) نيل المعارضة الانكليزية • لان بولنياك كان واثقا ، في حال عقد مؤتمر لمعالجة مسألة الجزائر ، من مساعدة القيصر الروسي ، المؤيد لشارل العاشر بسبب توافق آرائهما الرجعية ، ولان القيصر يرحب بكل ما من شأنه اضعاف تركية • وكان بولنياك يأمل في الحصول على تأييد بروسية التي تسر على الدوام برؤية فرنسة تتحول الى العمل بعيدا عن الرين • كما كان يأمل في الحصول على حياد النمسة ، لان مترنيخ كان يعطف على شارل العاشر بسبب ميولهما الرجعية المشتركة ، وعلى تأيدكل دول البحر المتوسط الاخرى (نابولي واسبانية والبابا وسردينية) • وهكذا فان عقد مؤتمـر اوروبي سيكون لصالح فرنسة وسترى انكلترة نفسها معزولة •

وفي ١٢ من آذار وجه بولنياك مذكرة الى الدول بين فيها ان مشروع الحملة لايقتصر على الحصول على تعويض عن الاضرار التي لحقتفرنسة، بل خدمة المسيحية كلها : بتحطيم القرصنة والغاء استرقاق المسيحيين كليا ، والغاء اللزمة التي تدفعها اوربة للداي • وبينت المذكرة انه اذا حدث خلال هذا الصراع ان انهارت حكومة الداي فسيتفاهم ملك فرنسة مع حلفائـه حول النظام الجديد الذي سيحل محل النظام القديم المنهار • ولكن انكلترة اعتبرت هذه المذكرة غير كافية ، وبين الدوق ويللنغتون رئيس الحكومـة الانكليزية للسفير الفرنسي ان انكلترة بحاجة للتثبت من المصير الذي تعده فرنسة للجزائر ، وبين له ردا على مذكرة /١٢/ آذار ان الوعد بالاتفاق مع الدول لا يبدو ابدا مطمئنا • وكان من الواضح ان انكلترة تعارض اي مؤتمر تكون نتيجته تأييد موقف فرنسة ، ولهذا ظلت تلح للحصول على تأكيد خاص من فرنسة بعدم الاقامة الدائمة على الساحل الجزائري • ومما زاد في غضب الحكومة الانكليزية خطاب بورمونت الذي القاه في طولون اثناء قيامه بزيارة تفتيشية لقوات الحملة متأثراً «بالخمر والشمس والاحتكاك بجيش

متحرق للعمل ، تحدث فيه عن فتح الجزائر القادم ، متجاهلا بذلك تصريحات الملك ووزارة الخارجية • وفي ١٥ من نيسان سلم السفير الفرنسي في لندن وزير الخارجية البريطاني مذكرة زادت في قلق انكلترة ، فقد جاء فيها أنه بالرغم من أن محمد علي قد تخلى عن فتح طرابلس وتونس فان الحكومة الفرنسية لن تغير مشاريعها الخاصة بهاتين النيابتين ، وستنفذ فرنسة وعدها بتدمير القرصنة على كل الشاطىء الافريقي • وبينت المذكرة أن ملك فرنسة يعتقد أنه ليس عليه أن يحمل شعبه التضحيات الباهظة الناجمة عن هـذه الحرب التي لم تسببها فرنسة وانه سيسعى ليعوض هذه النفقات •

ظهرت مسألة تعويض نفقات الحرب كأعلان عن احتلال الجزائر لزمن غير محدد • وما أن أنهى السفير الفرنسي قراءة المذكرة حتى صرخ ابردين « لقد طلبنا منكم ان تسكنوا قلقنا ولكنكم لم تفعلوا سوى زيادة هذا القلق » • وقال ويللنغتون « إن بونابرت والديركتوار لم يتصرفا أسوأ من هذا التصرف » • وفي ٢١ من نيسان عقد مجلس الوزراء الانكليزي جلسة درس فيها مطولا المسألة الجزائرية وابدى الـوزراء خشيتهم من رؤيـة الجيش الفرنسي يقيم نهائيا في افريقية • وقرر المجلس تجنب مثل هذا الامر مهما كان الثمن • وكلفت الحكومة الانكليزية سفيرها في باريس ان يفهم الحكومة الفرنسية ان انكلترة مصممة على ان يقتصر التدخل الفرنسي على مظاهرة عادية ضد الداي • ولكن بولينياك ظل متمسكا بما اعلنه في مذكرة آذار •

وفي ٩ من ايار اعلن ابردين للسفير الفرنسي بالحاح « ••• اني بحاجة ماسة الى مذكرة تطمئنني عن نوايا الحكومة الفرنسية ، ان برلماننا يطلب هذه الوثيقة ••• » • واكد للسفير انه يثق ببولينياك ولكن الحكومات تذهب • وختم ابردين المقابلة بتوجيه تهديد ضمني « ••• لقد كان ادينا حتى الآن الاعتدال بعدم توجيه الاوامر لاسطولنا في المتوسط • ان بامكاننا ارساله الى الشواطىء المهددة واتخاذ مقر لـه في جبـل طارق ••• » وكان ابردين

يعتقد ان هذا التهديد كاف لاجبار فرنسة عـلى التراجع ولكن الحكو
الفرنسية لم تتأثر • ووجه بولينياك في ١٢ من ايار مذكرة جديدة الى الدول بين فيها الغرض من الاستعدادات العسكرية الجارية ، واشار فيها الى ان هناك غرضين :

- احدهما : يخص فرنسة وحدها وهو الانتقام لشرف الراية الفرنسية والحصول على ضمانات ضد الاعتداءات على ممتلكاتها فيما بعد ، والحصول على غرامة حربية تعوضها عن نفقات حرب لم تكن هي المسببة لها •

- اما الغرض الآخر فهو يهم المسيحية كلها ، وهو الغاء الاسترقاق والقرصنة واللزمة التي ماتزال اوربة تدفعها للنيابة • واعلنت المذكرة ان فرنسة لن تضع السلاح ولن تسحب قواتها قبل ان تحقق اهدافها • ورددت المذكرة من جديد ما جاء في مذكرة ١٢ من آذار عن التفاهم مع الدول حول النظام الجديد الذي سيحل محل النظام المنهار •

لم تتراجع الحكومة الانكليزية عن ضغطها والحاحها للحصول عـلى تعهد صريح بعدم احتلال الجزائر احتلالا عسكريا ، ولم تكف عن التهديد بان البحرية الانكليزية لن تقف مكتوفة الايدي • ولكن الحكومة الفرنسية لم تكترث لهذه التهديدات وظلت متمسكة بموقفها رافضة تقييد نفسها بتعهد وكان شارل العاشر يرى أن انكلترة تبلف وان هذا البلف يجعل الوضع حرجاً وليس مقلقاً • ولم يكن بامكان انكلترة ان تخوض حربا دفاعاً عن الداي في وقت كانت تعاني فيه مشاكل داخلية متزايدة ، وكانت حالة ملك انكلترة الصحية تثير الخوف من تغيير عاجل في الحكم يزيد في تردد الحكومة • وعندما اعتلى وليم الرابع عرش انكلترة في ٢٦ من حزيران سنة ١٨٣٠ ، كان من الصعب عليه ، بالرغم من عدائه للمشروع الفرنسي ، ان يدشن حكمه بحرب لا مبرر لها لـدى الرأي العام الانكليزي • وكان ويللنغتون نفسه مقتنعاً أن مصير الحملة الفشل المؤكد • ومع ذلك ظلت

انكلترة تسعى للضغط على فرنسة للحصول على تصريح رسمي بعدم الاقامة الدائمة • وجرت مقابلات مثيرة بين السفير الانكليزي في باريس وبين رئيس وزراء فرنسة ووزير بحريتها ومع الملك ، تلقى خلالها السفير الانكليزي اجوبة قاسية حازمة ، وعندما ألح السفير الانكليزي على بولينياك للحصول على تصريح كتابي أجاب بولينياك انك تطالب بما لم يطالب به أحد من حلفائنا وعندما طلب السفير نسخة من التعليمات المسلمة لبورمونت قائد الحملة رد بولينياك منهياً المقابلة « ان هذا ربما يعطى كدليل على الثقة ولكنه لا يطلب» • وعندما استخدم السفير الانكليزي لهجة التهديد باستخدام الاسطول الانكليزي في حديثه مع وزير البحرية الفرنسي أجاب هذا بتحد « ••• اننا لسنا في وقت تملون فيه القانون على اوربة ، ان اسطولنا سيكون مستعداً للاقلاع في أواخر أيار وسيتوقف في جزر البليار للتجمع ، وسينزل الحملة غربي الجزائر • ها أنت قد اطلعت على سير الحملة وبامكانكم ملاقاتها ولكنكم لن تفعلوا ذلك •• » وعندما تكلم السفير مع شارل العاشر بلهجة قاسية أوقفه الملك عند حده قائلاً : « •• السيد السفير ، كل ما استطيع عمله لحكومتكم هو ألا أصغي إلى ما أسمعه الآن » •

لم تكتف الحكومة الانكليزية بالضغط على الحكومة الفرنسية ، بل استخدمت كل امكاناتها في اقامة العراقيل بوجه الحملة ، ونشط قناصلها في تونس وطرابلس ولا سيما في استنبول • وحاول ابردين ان يقنع السلطان بان عليه ان يعاقب بنفسه تابعه ، ويلغي بذلك كل ذريعة للتدخل الفرنسي • والحت عليه ان يرسل شخصية كبيرة تحل محل الداي في التفاوض مع فرنسة ، وبهذا لا تجد فرنسة أمامها الداي حسين بل السلطان نفسه • وكان الديوان يخشى اغضاب فرنسة وانكلترة في آن واحد ،ولهذا تردد طويلاً • وأخيراً وبضغط من انكلترة وافق على ارسال طاهر باشا وكلفه بالتخلص من الداي واستئناف المحادثات مع فرنسة • وقيل لطاهر باشا « إن الانكليز يريدونه ، والفرنسون لا يريدون التفاوض فاذا نجحت فستحصل على ثلاثة

أمواج والا فستفقد رأسك » • ولكن فرنسة اعلنت منذ أواخر
تقبل اية وساطة للباب العالي ، وانه في الوضع الحالي على المفاوضات ان تفسح المجال للسلاح • وماطل السفير الفرنسي في منحه جوازا ، ولم يمنحه الا عندما قدر انه سيصل متأخرا • وعندما وصل طاهر باشا امام الجزائر في ٢٠ من ايار بعد سفرة بطيئة رفض خلالها باي تونس السماح له بالنزول الى البر التونسي والمرور برا الى الجزائر [1] لم يستطع اختراق الحصار • فقد رفض قائد اسطول الحصار الفرنسي السماح له بدخول الجزائر • والتقى في طريق عودته باسطول الحملة المتجه نحو الجزائر ، واقتيد الى طولون بناء على تعليمات وزير الحربية حيث حجز في محجر صحي في الوقت الذي كانت فيه الحملة تنزل الى البر الجزائري • وعلق الكاتبان الفرنسيان ديبوبريدل ومارك بنوا على مهمة طاهر باشا بقولهما « لو انجز طاهر باشا مهمته لفقد حسين رأسه وفقدت فرنسة الجزائر »[2] •

لم تلق فرنسة معارضة من الدول الاخرى : فقد اعطى القيصر الروسي موافقته بدون تحفظ ، واعلنت الحكومة الروسية « ••• انها ستنظر بسرور الى احتفاظ فرنسة في الجزائر بمؤسسة وطيدة لتؤمن الى الابد سلامة الملاحة في المتوسط ••• » واتخذ ملك بروسية الموقف الروسي نفسه • اما مترنيخ فبالرغم من انه كان يشك في نزاهة مقاصد فرنسة ، وبالرغم من ميله الى وجهة النظر البريطانية ، فقد اضطر ان يحسب حساب موقف حليفتيه القاريتين بروسية وروسية ، واضطر الى اتخاذ موقف متحفظ • وابدت الدول الشمالية ولا سيما السويد تأييدها • اما دول البحر المتوسط فانها كانت تخشى ازدياد قوة فرنسة • وكانت البيمونت تنفر من المشروع الفرنسي ولكنها كانت تطمع فيما اذا مزقت الدولة العثمانية ان يكون لها نصيب في

(١) ابن ابي الضياف ج ٣ ص ١٦٦ .

(2) Debu - Bridel et M. Benoist : Alger 1830 P. 67

تونس او طرابلس • وكان قنصلها في الجزائر يمثل المصالح الفرنسية ويزود الفرنسيين بالمعلومات في حين كان قنصلها في تونس يشجع الداي على المقاومة ويعده بمساعدة حكومة البيمونت •

وسمح البابا بيوس الثامن لفرنسة باستخدام موانيه ، وسمح ملك نابولي للتجار بتزويد الجيش الفرنسي بالقوارب التي يحتاجها •

وكان من المتوقع ان تعارض اسبانية الحملة ارضاء لانكلترة ، وبسبب مصالحها ومطامعها ، وقد ابدت في الواقع شيئا من الممانعة في تقديم التسهيلات التي طلبتها فرنسة ، وردت الحكومة الاسبانية على السفير الفرنسي «•• ان ما تطلبون شيء خطير فما الذي يحدث اذا احبطت معارضة انكلترة مشاريعكم » ووصف السفير الفرنسي حرج موقف اسبانية فهي تخشى جوار فرنسة في افريقية بقدر ما تخشى جوار النيابات ، ولم يكن بامكانها أن ترفض طلب الحكومة الفرنسية باستخدام موانيها في مشروع يفيد كل الدول المسيحية • وكانت اسبانية تريد أن تسهم في هذا العمل بصورة فعالة ولكن النفقات كانت فوق طاقتها • وعندما وافقت على السماح بتموين الاسطول الفرنسي من موانيها واقامة مشفى عسكري في جزر الباليار ، سعت الى خلق العقبات التي تخفف من افادة الفرنسيين من التسهيلات السابقة • ولكن سكان المواني الاسبانية وجزر الباليار استقبلوا الاسطول الفرنسي بحماس ، لعدائهم للجزائريين الذين الحقوا بهم في الماضي الكثير من الاضرار •

اما حكومات شمالي افريقية الاخرى ، باستثناء طرابلس ، فقد اتخذت موقفا مؤيداً لفرنسة مخالفة بذلك اتجاهات الرأي العام فيها • كان قنصل فرنسة في تونس يتمتع بنفوذ كبير لدى الباي لم تستطع دسائس قناصل انكلترة وساردينية والولايات المتحدة اضعافه • وكانت فرنسة قد ابلغت باي تونس حسين باشا بما تنوي عمله وحذرته وخوفته وقالت له : « ••• إن اردت الامان على بلادك فكن في هذه النازلة حبيا للفرنسيين ، وان اعنت

الجزائر من البر تكن حربا لنا مثلها ••• »(١) • وكان باي تونس يكره الداي ويأمل ان يفيد من القضاء عليه في إحلال اخيه محله في الجزائر ، او على الاقل في توسيع رقعة تونس على حساب الجزائر • ولهذا وبالرغم من تعاطف الرأي العام التونسي مع الجزائر ، اتخذ الباي موقف حياد ايجابي لصالح الفرنسيين : فمنع مرور طاهر باشا في حين سمح لقوات الحملة بالتموين بالمواشي من تونس ، ومنع تهريب البارود من طبرقة الى قسنطينة ، ومنع مرور الجند الاتراك من تونس الى الجزائر • وعندما نزلت الحملة الفرنسية الى البر الجزائري ارسل بعثة لتهنئة بورمونت •

اما يوسف باشا القرمانلي حاكم طرابلس فقد اعلن تضامنه مع داي الجزائر ووعد بعرقلة مرور قوات محمد علي من اراضيه ، وأبدى اسفه لعجزه عن ارسال مساعدات ، وشجع الداي على المقاومة • وقد احدث سقوط الجزائر صدى عميقا في طرابلس •

وكان موقف سلطان المغرب شبيها بموقف باي تونس ، وكان يأمل ان يسمح له انهيار السلطة التركية في الجزائر بالتوسع في غرب الجزائر • ولم يكن يدرك أبعاد الحملة والمخاطر التي سيجرها على المغرب وجود الفرنسيين في الجزائر • وهكذا اعلن حياده لنائب قنصل فرنسة في طنجة ، وسمح للفرنسيين بالتموين من موانيه كما فعلت تونس • اما موقف الشعب المغربي فقد كان مغايرا ، اذ خشي ان تكون هذه الحملة حملة صليبية ضد المغرب كله • وقد كتب قنصل فرنسة ان عيون المغاربة كانت مشدودة نحو الجزائر وانهم كانوا يأملون تدخل الانكليز وان ينجح التيجانيون في طرد الفرنسيين •

---

(١) ابن ابي الضياف : ج ٣ ص ١٦٦ •

المعارضة الداخلية في فرنسة :

ان النزاع بين الملك والمجلس ، والسرية التي احيطت بها الحملة والمعنى الذي اعطي لها بربطها بالموقف الداخلي ، اثار قلق المعارضة في المجلس والرأي العام وزاد في معارضتهما للحملة. وكان الشعور العام السائد ان هذه الحملة لاتهدف الى الانتقام للشرف وللاضرار التي لحقت بالمصالح الفرنسية ، بل الى القضاء على الحريات والاحرار . وعندما اعلن الملك في افتتاح جلسات عام /١٨٣٠/ قرار الحملة ، وبالرغم من ان الحكومة حصلت على تأيد المجلسين ، فان التفسيرات التي طلبها النواب كشفت عن قلق حقيقي . ووجهت المعارضة انتقادات حادة للحكومة ، وكتب النائب الكسندر لابورد - متوجها الى الملك والمجلس - يصف الحملة انها (... غير عادلة في اصلها غير حكيمة في تسرعها ، غير مثمرة في نتائجها ... » . وقال ان ما تحتاجه فرنسة « ... هو القوانين وليس الفتوحات ... » . وتساءل لابورد « ... هل هذه الحرب عادلة ؟ لا ! ان الداي يطالب ؟ لقد سرق ! انه يشكو ؟ لقد اهين ! انه يغضب ؟ لقد قتل ! هل هذه الحرب مفيدة ؟ هل من المفيد لفرنسة ان تستولي على الجزائر دون ان تتمكن من الاحتفاظ بها ؟ من يستطيع ان يفكر بذلك ؟ هل هذه الحرب مشروعه ؟... » واثار الكاتب اخيرا ضد الحملة « ... الضمير العام والقانون الطبيعي ... »[1].

وعندما عطل المجلس في ١٩ من ايار انتقلت المعارضة الى الشارع مستخدمة الصحف بعنف ضد بولينياك ، وبفضل الانتخابات التي اثارت فضول الناس انتقل الشك في عدالة الحرب والخطر الذي قد يجلبه النصر على حريات البلاد الى الاقاليم . ومما زاد في نقمة الرأي العام اختيار بورمونت المكروه قائدا للحملة . ذكر احد الضباط ان الجنود كانوا ينشدون على طريق طولون :

(1) P. Azan : l'Expedition d'Alger. P. 40

الجزائر بعيدة عن واترلو
لايمكن الفرار في البحر
ومن جنرالنا بورمونت
لا تخشوا الخيانة

وكان الرأي العام يعتقد ان الحكومة تريد صرف انظار الشعب عن الموقف الداخلي بالهائه بعمل خارجي ، وانها « ... ستقهر في اغاني الجزائر الناخبين لا القراصنة ، وان السبب الحقيقي للحرب ضد الداي هو تهيئة الجيش لحرب كبرى ضد الباريزيين ... » ووصفت الحملة انها قاتلة للحريات. وان الحكومة تأمل بان تجعل الانتصار على الجزائر انتصارا ضد حريات الفرنسيين .

احتلال الجزائر :

عنيت الحكومة الفرنسية بتزويد الحملة بكل ما يكفل لها النجاح . يقول آزان « ... كانت الحملة مجهزة افضل تجهيز مزودة بكل ما يلزم ... »[1] . كان تحت قيادة دوبرى /٨٤/ سفينة حربية من البحرية الملكية وعدد من سفن النقل حمولته /٧٠/ الف طن ، وعدد كبير من زوارق الانزال بالاضافة الى اسطول الحصار . وتلقى دوبرى تعليمات مفصلة عن مهمته ، وتركت له حرية واسعة في التصرف شريطة الاتفاق مسبقا مع بورمونت . ونصت التعليمات المسلمة له ان مكان الانزال هو سيدي فرج ، ولكن اذا قدر بسبب الطقس والرياح والتيارات انه من الافضل النزول قرب رأس ما تيفو او في خليج الجزائر نفسه ، فعليه ان يشاور بورمونت وان يعملا معا لصالح الحملة . كما تعرضت هذه التعليمات لحالة فشل الحملة ، فاذا كان الطقس غير ملائم للانزال فينبغي ارجاع الجيش كله الى فرنسة وتأجيل الحملة الى سنة ١٨٣١ ، او الانتقال نحو

(1) P. Azan : P. 56

وهران او عنابة بقسم من الجيش واعادة الباقي الى طولون(١) . وتلقى بورمونت تعليمات مفصلة تترك له ايضا حرية تصرف واسعة ، وتشير هذه التعليمات الى اهمية التعرف مسبقاً على قوة العدو وحالته المعنوية . وان عليه ان يسعى ليكسب جانبا من السكان ، وان يوجه اليهم نداءً يبين فيه اغراض الحملة ، ويدعوهم الى تجنب الاشتباك مع الفرنسيين ، والى المتاجرة مع الحملة وتزويدها بالمؤن . ووضع تحت تصرفه مبالغ من المال لشراء مؤيدين وجواسيس بين السكان . وتوصي هذه التعليمات بورمونت ، ان يضع نصب عينيه ضرورة الاستيلاء على الجزائر باية وسيلة كانت ، وان يعلن لكل من يعرض عليه مقترحات الداي او حكومته في الطريق الى الجزائر انه سوف يكشف عن نوايا فرنسة عندما يصل الى الجزائر . وعليه اذا ما عرض عليه الداي فتح باب المفاوضات قبل نزول الحملة الى البر ، ان يقبل ذلك من حيث المبدأ ، ولكن قبل ذلك كله لابد من تسليم حصون المدينة وبطاريات الساحل وكل وسائل الدفاع المنصوبة خارج المدينة ، والسماح له بالرسو آمنا داخل الميناء الداخلي او في خليج الجزائر ، وعلى الداي ان يجيب على كل هذه الشروط خلال ثلاث ساعات فقط . اما بعد نزول الحملة فعليه الا يوقف العمل العسكري الا اذا قبل الداي الشروط التالية :

١) سفر وفد جزائري حكومي الى باريس لتقديم الاعتذار ، والتعهد بالغاء القرصنة والرق والآتاوات ، وهدم حصون الجزائر والمواني الاخرى ، ودفع /٥٠/ مليون فرنك نفقات الحصار والحملة وخرق المعاهدات السابقة .

٢) ان يتعهد الداي بان يعود مجرد تابع مباشر للسلطان العثماني ، الذي يقره ويعين خلفاءه من بعده .

(1) P. Azan : P. 62

٣) ان يعترف لفرنسة بالسيادة المطلقة على الجزء الساحلي بين عنابة وحدود تونس ، ويتنازل لها عن مدينة عنابة وميناءها .

٤) ان يؤكد كل الامتيازات الممنوحة للفرنسيين ويتعهد لهم بحق احتكار صيد المرجان مقابل سبعة عشر الف فرنك لاتزيد الا بموافقة فرنسة.

٥) ان تحتل القوات الفرنسية مدينة الجزائر وحصونها كضمانة لتنفيذ هذه الشروط .

اما اذا تمكن بورمونت من احتلال مدينة الجزائر فعليه ان لايقبل سوى حماية الداي ، والسماح له بالسفر الى فرنسة ان اراد ذلك . وعلى بورمونت ان يحترم الرعايا الاجانب وخاصة القناصل والوكلاء التجاريين ، وان يتجنب كل محادثة مع القناصل الاجانب تمس مشاريع فرنسة المقبلة باعتباره قائدا عسكريا لاقليم محتل احتلالا عسكريا . ووضع تحت تصرفه /٣٧/ الف جندي وصاحب الحملة /٤٠/ مترجما من رجال السلك القنصلي ومن المماليك الذين نجوا من مذبحة القلعة ومن اليهود الجزائريين . كما صحب الحملة رسامون كجودان وايزابي والكولونيل لانجلو ، وعدد من الكتاب ، ورافقها عدد من الضباط الاجانب كمراقبين ارسلتهم حكوماتهم ، او جاؤوا بانفسهم لمتابعة الحملة .

اقلع الاسطول مبحرا من طولون في ٢٥ من ايار سنة ١٨٣٠ وتوقف بأمر من دوبري في خليج بالما في جزر الباليار بسبب الاحوال الجوية السيئة في ٣ من ايار . وسبب هذا التوقف ضيقا للجيش وقلقا في باريس ، حيث كانت الحكومة تترقب بفارغ الصبر احراز نجاح سريع ، واتهم بعض الوزراء دوبري بالخيانة . وفي ١٠ من حزيران استأنف الاسطول سيره نحو الجزائر . وفي ١٣ من حزيران رسا في الطرف الغربي من شبه جزيرة سيدي فرج ، وفي ١٤ منه بدأ الانزال .

كان الداي على علم بمجيء الحملة ومكان نزولها . ويذكر بأي

قسنطينة احمد ان الداي اخبره انه يعرف منطقة الانزال بواسطة رسائل جاءته من فرنسة ، ومن جواسيسه في مالطة وجبل طارق . وقال الداي انه تصله دوما رسائل من فرنسة . وانه على علم بما يجري فيها[1] . ولكن الداي كان يقدر انه من المستحيل الهجوم من البر . ولم يكن يبدو عليه القلق على نفسه او على المدينة ، ولعل هذا هو السبب في عدم اسراعه في اتخاذ الاحتياطات الكافية في سيدي فرج لاحباط عمليات الانزال .

جمع الداي جيشا قدر بـ ٥٠ الف جندي : من حامية الجزائر التركية وهي العنصر الاساسي فيه ، ومن قوات باي قسنطينة وتقدر بحوالي ١٣ الفاً وقوات من وهران تقدر بـ ٦ آلاف ، وقوات باي تيطري وتقدر بـ ٨ آلاف ، واشترك حوالي ١٦ الف قبائلي من بلاد القبائل . وكان الداي يخشى هجوما على الشاطيء الغربي ولهذا امر باي وهران بالبقاء للدفاع عن مدينته . وبالرغم من تفوق الجزائريين بالعدد الا ان قواتهم لم تكن متماسكة وتعمل غير متساندة ، وكان هنالك خلافات داخلية ولا سيما بين الاتراك وجنود القبائل . وكانت الحامية التركية قد فقدت الكثير من قوتها العددية والمعنوية . ولم يكن الاتراك على وفاق مع الداي الذي اعتزلهم في القصبة ، حيث كانوا يعيشون معزولين ايضا عن السكان الذين كانوا يبادلونهم كرها بكره . وكي لا يدفع الداي لجنود القبائل أبقاهم بعيداً عن العاصمة خمسة أو عشرة فراسخ بدلاً من استخدامهم في سيدي فرج .

اوكل الداي قيادة هذه القوات الى صهره ابراهيم آغا . وقد اتهم ابراهيم آغا بعدم التبصر ونقص الكفاءة . قال عنه أحد اعيان الجزائر (سيدي حمدان بن عثمان خوجا) انه كان يريد حرب الفرنسيين دون قوة منظمة ، ودون ذخيرة ، ودون مؤن للرجال وعلف للخيل ، ودون ان يكون لديه الكفاءة اللازمة للقيام بالحرب . واتهم سي حمدان ابراهيم انه قدر انه ليس

(1) Revue Africaine 1949 : P. 71

من الضروري منح الجندي اكثر من خرطوشتين ، وان هذا يكفي لقتل نصف الجيش الفرنسي . ويبدو من رسائل ابراهيم ، التي احتفظ الجنرال برتيزين بنسخ عنها ، انه كان ينقصه الكثير ، وانه كان ما يفتأ يلح على الداي لارسال النجدات والمدافع والذخيرة والمؤن والعلف . ولم يكن ابراهيم آغا محروما من كل كفاءة كما يصفه خصومه ، فقد دل اختياره نقطة الهجوم في ١٩ حزيران على تبصر وكفاءة . ولكن المسؤولية الحقيقية تقع على الداي الذي لم يسع الى اعداد الجيش وتزويده بما يلزم ، والى الاسراع باتخاذ التدابير الفعالة ما دام يعرف خبر الحملة ومكان نزولها . وعلى اي حال لم يكن ابراهيم آغا يملك مؤهلات القيادة اللازمة في هذه الظروف الخطيرة ، اذ لم يستطع الافادة من تفوقه العددي ومن الاضطراب الذي رافق عملية نزول القوات الفرنسية ، كما انه لم يفد من خبرات ونصائح قادة الجيش ، ولا سيما الباي احمد ، الذي اثبت العمليات الاولى وعمليات المقاومة التي قادها ضد الفرنسيين في اقليم قسنطينة حتى ١٨٤٨ انه يتحلى بمواهب ممتازة كانت تنقص ابراهيم آغا .

وصف الباي احمد الاجتماع الذي ضم قادة الجيش قرب سيدي فرج قبل نزول الحملة . وذكر ان ابراهيم آغا اقترح اقامة التحصينات على شاطيء البحر وتزويدها بطاريات قوية لمنع الفرنسيين من النزول الى البر . وقد بين الباي احمد ان هذا الاقتراح حكيم ولكن ليس هنالك وقت بسبب نقص الوسائل اللازمة لمثل هذا العمل اذ لم يكن في سيدي فرج سوى حصن قديم متهدم يقتضي اصلاحه واقامة تحصينات فيه عدة شهور . وكان رأي الباي احمد ان لاتستنفد الجهود في مقاومة الانزال ، وان كان من الضروري ابداء بعض المقاومة ومهاجمة الفرنسيين لتعطيل نزولهم . ولكن اذا وضعنا كل أملنا في هذه التحصينات والبطاريات فلن تنجح لان نيران مدافع السفن الفرنسية ستحطم هذه التحصينات التي انشئت بسرعة ، فضلا عن ان نقل البطاريات الى سيدي فرج سيفرغ مدينة الجزائر التي ينبغي تركيز وسائل

الدفاع عنها . واضاف الباي احمد انه اذا نجحت الهجمات الاولى في منع الانزال نكون قد قضينا على المشروع الفرنسي . واذا لم نستطع منع الانزال ينبغي على الجيش الانسحاب الى ما وراء جيش العدو ، والانتشار على طول شاطيء البحر من جهة الغرب . وقال الباي احمد : ينبغي ان نلاحظ ان الفرنسيين يريدون الانتهاء من هذه العملية بسرعة ليسحبوا جيشهم الى أوربة ، لان مناخ هذه البلاد لايلائم (بني الأصفر) ، فاذا نجحنا في تطويل امد الحرب احرزنا النصر ، وحل بالفرنسيين ما حل بكل خصومنا الذين نزلوا من قبل . وتوقع الباي ان يكون الفرنسيون ، بعد النزول في سيدي فرج ، امام امرين : اما ان يتوجهوا نحو الجزائر ، او ان يتجهوا لمقابلة الجيش الجزائري في الغرب . فاذا اتجهوا نحو الجزائر ، ينقض الجزائريون على مؤخرتهم وينهبون مؤنهم ويعطلون قوافلهم ويقطعون الاتصال مع سفنهم ، وهذا اسهل لان البحر متقلب ولا يسمح على الدوام بالانزال . اما اذا اتجه الفرنسيون للقاء الجيش الجزائري في الغرب ، فان واجب الجزائريين هو تجنب المعركة ، حتى يستطيعوا جر الفرنسيين الى ارض ملائمة وبعيدة عن الجزائر التي هي هدف الحملة ، وخلال هذه الملاحقة سيفقد الفرنسيون الكثير بسبب الحرارة ونقص الماء . ولكن ابراهيم آغا رفض اقتراح الباي احمد وتمسك برأيه . وتقرر انشاء بطاريات في سيدي فرج الا انه لم يكن بالامكان تزويدها الا بمدفعية خفيفة بسبب نقص العربات القادرة على نقل المدافع الثقيلة .

بدأ انزال جنود الحملة في سيدي فرج في ١٤ من حزيران . وكانت عملية نزول الجنود صعبة رافقها بعض الاضطراب . ويقول الجنرال آزان: لو ان الاهالي نصبوا كمائن في التلال الرملية لكان بامكانهم الحاق اضرار كبيرة بالقوات الفرنسية[1] . ولم يبدأ الجزائريون باطلاق النار الا بعد ان

(1) P. Azan : P. 78

تم انزال فرقة الجنرال برتيزين ، ولكن تأثير النار الجزائرية كان ضعيفا ، ونجح الفرنسيون في احتلال ضريح سيدي فرج وحصن شيقا ، كما نجحوا في تطهير المنطقة لمسافة ٣٫٥ كم من نقطة الانزال ، وانسحب الجزائريون نحو اسطا والي (مصطفى والي) . واضاع الجزائريون فرصة ثمينة بسبب عدم تبصر القيادة ، ففي ١٦ من حزيران وقبل انزال الذخائر والمؤن هبت عاصفة مخيفة عرضت الاسطول الفرنسي للخطر . كتب دوبرى اخرى : « ... لو ان هذا الطقس استمر ساعتين اكثر لهدد الاسطول بدمار شامل... ولم يكن الفرنسيون حين هبت العاصفة قد انزلوا من المؤن سوى ما يكفي لخمسة ايام مع قليل من الذخائر ، وساد الذعر صفوف الحملة ولاح شبح حملة شارلكان من جديد ، واعلن أحد القادة لبورمونت حين سأله عن الحالة « ... سيكون هذا الجزء الثاني من حملة شارلكان .. » . ولكن العاصفة سكنت عند الظهر . وألقى الفرنسيون الذخائر والمؤن في الماء ، وكانت مغلفة بصورة محكمة تحول دون تسرب الماء اليها ، فقذفها التيار خلال ثلاثة ايام الى الساحل . كانت المسافة بين سيدج فرج ومدينة الجزائر حوالي /٢٠/ كم ونيف ، وكان يفصل المعسكر الفرنسي عن اسطا والي تلال رملية مغطاة بالشوك ، والمنطقة مجردة من السكان . اما ما وراء اسطا والي فيتبدل الوضع حيث ضواحي المدينة المباشرة وحيث تكثر البساتين والاشجار المثمرة والبيوت الجميلة التي بناها الاتراك والقولوغلي الاغنياء . واهم نقطة ستراتيجية بعد اسطا والي هي حصن الامبراطور المشرف على مدينة الجزائر . كانت مدينة الجزائر محمية من جهة البحر ، ولكنها سيئة التحصين من جهة البر لان الدايات كانوا قد اهتموا بتحصين المنطقة البحرية التي كانت هدف الهجمات السابقة .

وفي ١٩ من حزيران شن ابراهيم آغا هجوما عاما ، وبالرغم من عدم كفاءته فقد عرف كيف يختار النقطة الضعيفة في الخطوط الفرنسية ، ونجح بفضل الضباب في الوصول الى الخطوط الفرنسية دون أن يراه أحد ونشب

صدام بالسلاح الأبيض • وحدثت فوضى في الجيش الفرنسي كادت تتحول الى هزيمة • ولم يكن بامكان الاسطول الفرنسي التدخل في بادىء الأمر نظراً لتداخل الطرفين الا أن وصول نجدات فرنسية وتدخل الاسطول في مؤخرة الجزائريين حول الهزيمة الى نصر حاسم • وسرعان ما انتقل الفرنسيون الى الهجوم ونجحوا في الاستيلاء على المعسكر الجزائري في اسطا والي ، واستولوا فيه على كمية كبيرة من الغنائم • الا ان بورمونت لم يفد من هذا الانتصار اذ توقف عن مطاردة الجيش الجزائري • وبحسب رأي احد الجزائريين : ان السير نحو حصن الامبراطور لم يكن ليلقى اية مقاومة. ويفسر بورمونت توقفه في اسطا والي في تقريره الى وزير البحرية في ٢٢ من حزيران « ••• ان يوم ١٩ كان ساطعا وحاسما ، وكن بوسعنا مطاردة العدو حتى ابواب الجزائر لو كان بامكاني نقل المؤن بكميات تكفي لتغذية القطعات ولكن وسائل النقل كانت تنقصنا ••• » • كانت هزيمة اسطا والي اليمة بالنسبة للجزائر ، فقد تفكك الجيش الجزائري، وبالرغم من ان الداي افاد من توقف الفرنسيين فاعاد تنظيم ما تبقى لديه من قوات بقيادة باي تيطرى مصطفى بومزراق واعلن الجهاد وقرر الدفاع عن حصن الامبراطور ،بالرغم من هذا فقد كانت هزيمة اسطا والي هزيمة اليمة من الصعب محو آثارها •

وفي ٢٤ من حزيران شن الجزائريون هجوما جديدا صده الفرنسيون وتقدموا نحو سيدي بو خالف واستولوا عليه ، واستمر القتال بين ٢٥ – ٢٨ من حزيران بهجمات مستمرة من الجزائريين الذين كانوا يتمتعون بمركز استراتيجي افضل • واتخذ الفرنسيون موقفا دفاعياً بانتظار نزول الخيل اللازمة لجر المدفعية الثقيلة • وفي ٢٨ من حزيران استكمل الفرنسيون استعداداتهم وقرروا الهجوم على حصن الامبراطور في اليوم التالي • ولكن اضطراب القيادة ، وتناقض التعليمات ، وانتشار الضباب ادى الى تأخير العملية واتعاب الجنود • وفي ٣٠ من حزيران بدأت معركة حصن الامبراطور ، وفي ١و٢ من تموز اشترك فيها الاسطول ، الا ان اشتراكه لم

يكن فعالا لان دوبرى لم يشا ان يعرض ... ولكنه على اي حال نجح في اشغال عدد من المدافعين مما يسر عملية الهجوم البري •

لقي الفرنسيون مقاومة ضارية من حامية الحصن ، وفي صباح اليوم الرابع من تموز بدأت المدفعية الجزائرية تسكت تباعا ، وفي العاشرة صباحا نسف الجزائريون الحصن بعد ان رأوا عبث المقاومة • وقد احدث الانفجار اضرارا بمدينة الجزائر ، واثار الذعر بين السكان •

وباستيلاء الفرنسيين على الحصن اصبحت مدينة الجزائر تحت رحمتهم ، وانتشرت فيها الفوضى والاشاعات • وبدأ السكان في هجرها • وانسحب باي تيطرى الذي تولى القيادة العامة بثروته وقواته الى بيلكيته وكن الداي يرغب في المقاومة ولكن اعيان المدينة رفضوا الاشتراك في عملية اعتقدوا انها يائسة ، وصمموا على الاستسلام •

استسلام الجزائر :

أرسل الداي الباشكاتب مصطفى إلى بورمونت يحمل المقترحات التالية:

١ – ان يتنازل الداي عن كل ديونه على فرنسة •

٢ – ان ينفذ ما يطلب منه بشأن الاعتذار عن حادث ديفال •

٣ – ان يعيد للتجارة الفرنسية كل امتيازاتها السابقة •

٤ – ان يدفع لفرنسة جميع نفقات الحملة •

ولكن بورمونت رفض الموافقة قبل تسليم المدينة والقلاع • ويبدو أن مصطفى حاول أن يستغل الموقف لصالحه ، إذ أنه حاول أن يقنع بورمونت بالابقاء على النظام التركي ملوحاً له أنه على استعداد لقتل الداي حسين والحلول محله • واعلن أنه مستعد لأن يعالج بشكل أفضل مصالح الطرفين•

ثم جاء وفد من أعيان الجزائر يمثلهم حمدان بن عثمان خوجا وهو

أحد الذين دبروا اجتماع الأعيان لاجبار الداي على الاستسلام ، وكان يرافقه أحمد بوضربه الذي عاش طويلاً في مرسيلية وتزوج فرنسية . اعلن حمدان وبوضربة لبورمونت انهما جاءا كممثلين عن أعيان الجزائر ، وان السكان يرغبون في المفاوضة ، وطلبا من بورمونت وقف اطلاق النار بين الطرفين . ووافق بورمونت وعاد مندوب الداي مصطفى من جديد بصحبة قنصل انجلتره سانت جون الذي اعلن لبورمونت انه لم يأت بوصفه قنصلاً وانما بوصفه صديقاً للداي الذي طلب منه أن يحضر هذه المقابلة ، وأنه قبل الحضور تجنباً لكارثة . وقال سانت جون إن سقوط المدينة أمر محتوم وأن الداي يعرف ذلك ، ولكن طبعه العنيف وحماسه الديني قد يدفعانه إلى أقصى حدود التطرف إذا فرضت عليه شروط قاسية ويخشى أن يقوم بنسف القصبة . سلم بورمونت مصطفى شروطه مكتوبة وتتضمن :

١ – تسليم القلاع والميناء صبيحة الخامس من تموز .

٢ – يضمن بورمونت للداي حياته وممتلكاته ، ويؤكد له حمايته مادام باقياً في الجزائر ، أو السماح له بمغادرة المدينة مع اسرته وثروته الى المكان الذي يرغب فيه .

٣ – يتمتع الأوجاق بالامتيازات الممنوحة للداي والحماية نفسها .

٤ – يتعهد بورمونت بشرفه أن يحافظ على حرية الدين الاسلامي ، وعلى املاك الأهالي وتجارتهم وصناعتهم وان يحترم نساءهم وحرماتهم .

وحين عرضت الشروط على الداي بحضور وزرائه وعدد كبير من الانكشارية ، وقرىء الشرط الأول الخاص بتسليم الحصون والميناء ثار صخب شديد . ولكن الشروط الخاصة بالداي والجند والسكان هدأت الضجة لتعود بصورة أشد حين قرىء دخول القوات الفرنسية إلى المدينة وعلت صيحة « الموت » . ولكن الداي الذي كان شاحب الوجه متهدج الصوت أسكت الجميع . وعندما نوقشت الشروط تبين أن الشباب يفضلون المقاومة

حتى النهاية في حين ان الأغلبية كانت ترى أن المقاومة ستؤدي الى خراب المدينة الكامل . واكتفى الداي بطلب تمديد مهلة تسليم المدينة ٢٤ ساعة ، ولكنه عاد ووافق أمام اصرار بورمونت .

وكان في صفوف القادة الفرنسيين اعتراض على هذه الشروط التي وصفت بأنها معتدلة اكثر من اللازم ، خاصة وأن سقوط مدينة الجزائر صار أمراً محتوماً . ولكن بورمونت كان متعجلاً في تحقيق النصر ليرسل نبأه على الفور إلى باريس عسى أن يؤثر الانتصار على الانتخابات . وكان بورمونت يخشى أن يقرر الداي الدفاع عن المدينة مما يتطلب فرض الحصار لمدة قد تطول ، وان تنسف القصبة وتضيع خزينة الداي .

دخل الفرنسيون المدينة ، في صبيحة الخامس من تموز ، في حالة من الفوضى ، وشرع الجنود والضباط على الفور في نهبها . واستقبل اليهود الجند الفرنسي ، وكانوا يدلون الجنود على ما ينبغي نهبه ويشترون منهم المنهوبات . وقد شاع خبر النهب في فرنسة ، وصادر رجال الجمرك من الضباط العائدين كثيراً من المنهوبات . وقد تطرق النهب الى قسم من خزانة الداي ، واضطرت الحكومة الى فتح تحقيق . ويذكر جوليان ان عددا من الضباط الكبار استطاعوا بما نهبوه وفاء ديونهم السابقة وتوفير مبلغ كبير من المال ، وقيل لواحد منهم ادعى انه ورث من عم زوجته حوالي ٦ ملايين « ... لم اكن اعلم ان داي الجزائر هو عم زوجتكم .. »(١) .

صدى احتلال الجزائر في اوربة :

يمكن القول ان كل دول اوربة باستثناء انكلترة اعربت عن رضائها وابتهاجها باحتلال الجزائر وتحطيم ما اسمته (عش القرصنة) . وهنأت كل من روسية وهولندة والولايات المتحدة والدول الايطالية، فرنسة على (الخدمة التي ادتها للانسانية) ، وقبل مترنيخ الامر الواقع واكتفى السلطان برفع احتجاج افلاطوني بسبب عجزه .

(1) Ch. A. Julien : Histoire de l'Algerie Contemporaine P. 57

اما انكلترة فانها لم تخف قلقها ، وقد كتب السفير الانكليزي الى بولينياك معرباً عن اعتقاده ان الوعود التي قطعت حول اهداف الحملة تقتصر على الانتقام للشرف الوطني وانها لاتبغي التوسع والفتح • ولكن بولينياك كعادته اتبع اسلوب المماطلة املا في اطالة امد الاحتلال ليخلق بذلك امرا واقعا • وكان جواب شارل العاشر اكثر حزما « ••• لاخذ الجزائر لم آخذ بعين الاعتبار سوى كرامة فرنسة ، وللاحتفاظ بها او التخلي عنها لن اقم وزنا الا لمصلحة فرنسة ••• » • وفي الواقع لم يكن احد في الحكومة الفرنسية بما فيهم الملك يعرف على وجه التحديد كيف سيكون مصير الجزائر •

وقبيل الفتح وفي مذكرة من بولينياك الى سفير النمسة في باريس في اواخر ابريل ، كان بولينياك يفكر بامكان الاحتفاظ بالداي بوصفه تابعا لفرنسة ، او اقتسام المنطقة الساحلية بين الدول • ولم يكن الوزراء يحبذون الاحتلال باستثناء عنابة • وفي التعليمات التي ارسلها بولينياك الى بورمونت في اواخر حزيران قدر بولينياك ان السلطان سيحتفظ بالسيادة على النيابة ، وانه يمكن الوصول معه الى صلح يسمح لفرنسة بالحصول على جزء من اراضي بيلكية قسنطينة تشمل عنابة وضواحيها حتى الحدود التونسية •

ولم يتح لحكومة شارل العاشر ان تبتهج بهذا النصر وان تقطف ثمراته فقد اطاحت بها الثورة في اواخر تموز، وغادر شارل العاشر فرنسة الى المنفى• وعلق شاتوبريان « ••• ان هذا النصر أبهجني ولكن لم يطمئني ••ان العناية الالهية قادرة بضربة واحدة ان توسع مملكة وان تطيح باسرة مالكة ••» •

خلقت ثورة تموز وضعا جديدا في فرنسة واوربة انعكس على الموقف في الجزائر • فقد اعترفت انكلترة وحدها بحكومة لوي فيليب الجديدة في حين حاول قيصر روسية دفع دول التحالف المقدس للعمل على اعادة شارل العاشر • وهكذا كانت فرنسة بحاجة الى مساعدة انكلترة التي ظل الرأي العام فيها معاديا للحملة • وقد كتب السفير الفرنسي في لندن الى حكومته

•• لاتتحدثوا ابدا عن الجزائر •• ، وخلقت الثورات التي قامت في بلجيكة وايطالية مشاكل • وكانت فرنسة في هذه الظروف بحاجة الى تعبئة قواتها كلها في اوربة • وظهر اتجاه لدى الفريق المؤيد للحكومة نحو اخلاء الجزائر • وفي ٩ من آب اعتبر السفير البريطاني في باريس ان القرار نهائي ، ولكن الحكومة الفرنسية تراجعت عنه خشية جرح كبرياء الرأي العام الذي سيثور للتخلي عن اول نجاح عسكري احرزته فرنسة منذ سقوط الامبراطورية • ولكنها في الوقت نفسه لم تضع خطة لتحديد مصير الجزائر، فقد كان الوضع الاوربي وضرورة مراعاة انكلترة يمنعها من اتخاذ موقف واضح بالرغم من تمسكها بالفتح ، وظل الانكليز مقتنعين حتى منتصف ايلول ان النظام الجديد ، الذي حارب انصاره الحملة ايام شارل العاشر، لن يتأخر عن الجلاء • وطبقت الحكومة الفرنسية نصيحة سفيرها في لندن فتجنبت إثارة المسألة وآثرت الصمت على أمل ان يعتاد الرأي العام مع الوقت على الاحتلال • واخيرا فان تطورات بلجيكة اثرت على موقف انكلترة « •• فقد تسامح بالمرستون بالجزائر للامة التي تخلت عن انفرس •• » •

وضع الحملة في الجزائر وسياسة التردد وعدم التجديد ١٨٣٠ - ١٨٣٤ :

انعكس موقف الحكومة الفرنسية وترددها وعجزها عن رسم سياسة جزائرية واضحة على موقف ممثليها في الجزائر • وهي وإن تركت لهم الكثير من المبادرة وحرية التصرف في رسم السياسة الجزائرية ، الا انها لم تلتزم باي من هذه السياسات ، وان كانت تتأثر كثيرا بردود الفعل التي تثيرها هذه السياسات فتسارع الى اجراء تغييرات في القيادة (كلوزل ايلول ١٨٣٠ - شباط ١٨٣١ • برتيزين شباط - ايلول ١٨٣١ • الدوق دو روفيجو كانون اول ١٨٣١ - نيسان ١٨٣٣ • البارون فوارول نيسان ١٨٣٣ - ايلول ١٨٣٤) ولم تحدد فرنسة موقفها حتى تموز ١٨٣٤ ، حين قررت ، باوامر ملكية ، الاحتفاظ بالجزائر •

كان بورمونت يعتقد ان سقوط الجزائر سيؤدي بصورة عفوية الى سقوط النيابة ، ويرى ان تحتفظ فرنسة بفتحها ، وان السلطان هو الوحيد الذي بامكانه ان يدعي حقوقا على النيابة ، وانه اذا فعل فبامكانه الاحتفاظ بوهران في حين تحتفظ فرنسة بالجزائر وقسنطينة .وبنى بورمونت سياسته في الجزائر على اساس ان الفتح دائم . وليحقق الاشراف على الساحل احتل عنابة ووهران ، ورافق بنفسه حملة الى بليدة دخلت المدينة في ٢٣ من تموز ولكن هجمات القبائل اجبرتها على الانسحاب في اليوم التالي ، وبالرغم من ان الخسائر المادية كانت طفيفة فان الخسائر المعنوية كانت كبيرة ، فقد كشفت للفرنسيين ان سقوط الجزائر لايعني سقوط النيابة ، وان قبائل الداخل ليست مستعدة للخضوع لهم ، كما كشفت للجزائريين ان المقاومة ليست مستحيلة . وقد سلكت القبائل المجاورة لعنابة ووهران المسلك نفسه.

وفوجيء بورمونت بقيام ثورة تموز التي وصلت انباؤها في ١١ من آب فأمر بسحب القوات من عنابة ووهران . وفي ١٢ من آب عقد اجتماعا لكبار الضباط رفض دوبرى حضوره ، وبحث المؤتمر مسألة استخدام جيش الحملة ضد النظام الجديد ، ولكن معارضة البحرية والكوادر الادنى من الجيش اجبرت بورمونت واعوانه على التراجع ، واضطر ان يعلن للجيش نبأ تنازل شارل العاشر ، واعلن تأييده للنظام الجديد .

وفي ٢٠ من آب تلقى بورمونت نبأ عزله وتعيين الجنرال كلوزل خلفا له . وقد وجد كلوزل وضعا صعبا ، فقد ترك بورمونت الجيش ومدينة الجزائر في حالة يرثى لها . كان الجنود المعسكرون في ضواحي المدينة يعيثون فسادا في الدارات الجميلة في الضواحي ويقطعون الاشجار ويخربون انابيب المياه ليسقوا دوابهم ويحطموا المرمر ، دون ان يتدخل رؤساؤهم لمنعهم . وعمدت القيادة لتجنب عسكرة الجند في العراء الى اسكان اكبر عدد ممكن منهم في البيوت التي اجبروا سكانها على اخلائها دون تعويض ،وحولت المساجد الى ثكنات ، واصبحت الدوائر حسب الحاجة في الزوايا والاماكن

الدينية خارقين بذلك التعهدات التي قطعت للسكان . وقد شعر الجيش بعد ثورة تموز انه اهمل وانه كلف بعمل دون امل . ولم يعد للضباط والجنود سوى أمل واحد هو العودة الى فرنسة . وكان على كلوزل ان يعيد اكبر قسم ممكن من الجيش . وكان يعتقد انه بالامكان الاكتفاء بعشرة آلاف جندي ، واتباع سياسة الاتراك في الاعتماد على فرق محلية . وكان بورمونت قد بدأ قبيل عزله في تكوين فرق من الزواف من قبائل جرجرة والزواوه . ولم تكن المحاولة الاولى ناجحة فقد كثر الهرب من صفوف هذه الفرق ، ولعل اهم سبب في ذلك موقف الاهالي العادي للفرنسيين ولكل من يتعاون معهم . يذكر جوليان ان والد احد هؤلاء الجنود الذين عادوا في اجازة تبرأ من ابنه لانه كافر وخائن وقتله .

رسم كلوزل سياسته على اساس الاحتفاظ بمدينة الجزائر بعيدا عن كل تهديد ، واقامة إدارة للمدينة ،ووضع اسس الاستيطان، وتصرف كلوزل خلال الاشهر الست وكأن الجزائر تمثل المرحلة الاولى من امتلاك النيابة ، حيث ينبغي ان تحل السلطة الفرنسية محل السلطة التركية . ولكن فشله في التدخل في تيطرى ومفاوضاته الشخصية مع باي تونس للاعتماد على بايات تونسيين في قسنطينة ووهران ، دعت الحكومة الى استدعائه وتعيين الجنرال برتيزين . كان برتيزين قائدا شريفا مستقيما استنكر سياسة كلوزل وحماسه للاستيطان وما كان يرافق ذلك من عمليات نهب وسرقة واختلاس كان يمارسها كبار المسؤولين في الجيش والادارة ، والمضاربون والمستوطنون على حساب السكان ، وكتب تقريرا قاسيا الى الحكومة عن الاستيطان الذي ليس سوى مضاربة ، والمستوطنين الذين ليسوا في نظره الا حثالة تجمعوا من فرنسة وشواطىء البحر المتوسط وانصرفوا الى السكر والدعارة واثارة الاضطراب والشغب والفساد . وقال برتيزين ان سكان الجزائر لم يكونوا خلال العهد التركي عرضة لمثل النهب والظلم الذين يتعرضان لهما اليوم . وبسبب معادات برتيزين للاستيطان وعدم مجاراته اعوانه والمستوطنين في عملياتهم الفاسدة وفشله في العمليات العسكرية في تيطرى وعنابة ، وتصرفات الجنرال

بوايسه التعسفية في وهـران • تقـرر استدعاء برتيزين وتعين الجنرال دو روفيجو • كان دو روفيجو يؤمن بسياسة العنف والبطش ، فقد اباد قبيلة الاوفياء لمجرد اتهام بعض افرادها بالسرقة ، في حين كان اللصوص ينتمون الى قبيلة اخرى ، وبحجة شق الطرق اعتدى على حرمة المقابر الاسلامية ، وعزم على تحويل جامع كتشاوا وهو اهم مساجد الجزائر الى كنيسة كاثوليكية • وبالرغم من احتجاج السكان ومظاهراتهم ، ورغم اقتراح المندوبين الجزائريين في اللجنة البلديـة تسليمه جامعا آخر في المدينة فقد رفض « •• لانه يريد أجمل المساجد • نحن الاسياد الظافرون ••• » • واعطى الامر باقتحام المسجد الذي كان يغص بالاهالي الذين اعتصموا فيه، واستولى عليه بالقوة • وقد اثار هذا ردود فعل قوية جابهها دو روفيجو بالقوة والبطش والنهب • وفي ١٨٣٣ ذهب الى فرنسة ليعالج من مرض ألم به وتوفي هناك • وعين خلفا مؤقتا له الجنرال فوارول الذي بقي حتى١٨٣٤ قائدا بالوكالة لقوات الاحتلال ، وبهذه الصفة لم تكن له حرية المبادرةوالعمل كما لم يكن له سلطة على قواد وهران وعنابة • وفي عهده قررت الحكومة ، اثر مناقشة حادة في البرلمان بين انصار استعمار الجزائر ومعارضيه ، تأليف لجنة تحقيق تقوم بدراسة الاوضاع في الجزائر لتساعد الحكومة على اتخاذ قرار حول مصيرها • وكان عمل هذه اللجنة استشاريا ، كان عليها ان تجد الحل لمختلف المسائل المتعلقة باحتلال الجزائـر • وتناول تقريرها بالنقد الاساليب التعسفية التـي تتبعها سـلطات الاحتلال تجاه الاهـالي ، ولا سيما اساليب دو روفيجو • وخرجت اللجنة بنتيجة وجوب احتلال فرنسة لنيابة الجزائر • وفي ١٢ من كانون اول ١٨٣٣ عين الملك لجنة عليا سميت لجنة افريقية الشمالية • وفي ٢٢ من تموز صدر امر ملكي يقيم نظام الممتلكات الفرنسية في شمالي افريقية على شكل مستعمرة عسكرية ترتبط بـوزارة الحربية ، يديرها حاكم عام مكلف بالقيادة العسكرية والادارة العليا ويمارس بتفويض من الملك سلطات حاكم (Proconsulaire) واختير الجنـرال دروى درلون كحاكم عام في ٢٧ من تموز سنة ١٨٣٤ •

الفصـل الخامس

المقاومة الجزائرية

بداية المقاومة الجزائرية :

غادر الداي الجزائـر في ١٠ من تموز الى نابولي ومنها انتقـل الى الاسكندرية • كما غادرها معظم الجنود الاتراك الى تركية • وبذلك انهارت الجزائر العثمانية ليتسلم الشعب الجزائري الدفاع عن مصيره، ولم يكن ينقص هذا الشعب التصميم على الكفاح والمقاومة ولكن كانت تنقصه الوحدة •

وصف رينه كاليسو[1] احتلال الجزائر انه كان عملية سهلة نسبيا بالرغم مما رافقه من تخبط القيادة والبطء في التنفيذ • ولا شك في صحة هذا القول ، والحق ان سهولة الفتح لاتعود الى تفوق الفرنسيين التقني بقـدر ما تعود الى تفكك الجبهة الجزائرية الناجم عن طبيعة الحكم التركي • رأينا من خلال تاريخ الحكم العثماني في الجزائر ان الحكومة التركية في الجزائر لم تكن حكومـة قوميـة • فقد كون الاتراك اقليـة عسكرية وادارية حاكمة ممتازة كانت تعيش في عزلة عن السكان • واذا كانت رابطة الدين تجمعهم مع السكان فان كل ما عدا ذلك كان يفصلهم• كان الاتراك يحتقرون الاهالي ويضطهدونهم وينهبونهم ، وعندما نزل الفرنسيون البر الجزائري كانت القطيعة بين السكان والاتراك قائمة « ••• لان اهل الجزائر واعرابها

(1) Revue Historique 1965 : P. 340

وهم السواد الاعظم سئموا سطوة جند الترك وبلغ السيل الزبى ، وزهدهم ذلك في الوطن وضاق فيهم الوطن ، والمظالم الفظيعة ربما تفضي الى مخالفة الشريعة ... » و « ... هذه ثمرة اضاعة الحزم وتنافر القلوب بين الراعي والرعية ... »(١) .

واذا كان صحيحا ان الاتراك قد وجدوا لدى نزولهم في الجزائر مجتمعا متفككا تعصف به الروح الاقليمية والقبلية ، التي زاد من اثرها في الجزائر بصفة خاصة كون الجزائر ظلت طيلة تاريخها السابق محرومة من حكومة مركزية ، على عكس جارتيها تونس والمغرب ، فانه من الصحيح ايضا ، ان الاتراك لم يسعوا ، وقد تهيأت لهم ظروف ملائمة لم تتهيأ لغيرهم، أو بتعبير اصح لم يحاولوا اجراء تغيير ، بل استغلوا الاوضاع القائمة واصطنعوا وسائل من شأنها ان تزيد في التباعد بين فئات السكان . واذا كانوا قد نجحوا في شيء فقد نجحوا في تعميق روح العداء ضد الحكم المركزي، وفي تجريد السكان من وسائل الدفاع المادية والمعنوية ضد الغزو الخارجي. وقد كان هذا سبب الصعوبات التي واجهتها المقاومة الجزائرية بعد زوال الحكم التركي كما كان سبب ضعفها .

كان الجيش الجزائري اكثر عددا ولكن تركيبه كان يعكس تركيب الدولة التركية . فلم يكن بامكان هذه الدولة اللاقومية ان تؤلف جيشا قوميا ولهذا كان هذا الجيش مؤلفا من مجموعات متباينة :

انكشارية : جندوا من خارج النيابة ، قل عددهم،واضعفهم الصراع فيما بينهم والصراع على السلطة ، يخافهم الداي ويكرههم السكان .

وقولوغلي : يكرهون الاتراك لامتيازاتهم ، ويحتقرون الاهالي .

(١) ابن ابي الضياف : ج ٣ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

وقبائل المخزن اصطنعها الحكم التركي بمنحها امتيازات واعفاءات ، وسلطها على القبائل الاخرى . وكان ولاؤها رخوا .

جنود القبائل : ويكرهون مضطهديهم من الفئات السابقة ، يتبعون رؤساءهم وليس الداي . وكان « ... لهم وحدهم ما يدافعون عنه: الاستقلال النسبي لودياتهم وجبالهم ولكن هل كان بامكانهم ان يعطوا معنى لمعركة تجري خارج وطنهم الصغير ... »(١) .

وكان على رأس الدولة والجيش داي غريب عن السكان يعيش في عزلته المنيعة في القصبة ، معزولا عن المدينة وعن البلاد ، ويحكم بواسطة خاصته العسكرية . ولم يكن بامكان الداي ان يستثير روح المقاومة الجزائرية كما لم يكن بامكانه ان يكون بطل المقاومة ، فهو لا يعرف من البلاد سوى مدينة الجزائر ولا يعرف من السكان سوى الغرباء . فلما هزم جيشه لم يفكر بالالتجاء الى الداخل ليتابع المقاومة بل فضل الاستسلام ومغادرة البلاد . ويعلق ابن ابي الضياف على موقف الداي « ... فانظر ايها المعتبر ، الى حال هذا الباشا وقد اتى الجزائر جنديا من عامة الجند ، كان ابوه ببلد شنا قلعة يحترف بغسل الاموات ، وترقى بعصبيته الى منصب الباشا ولم يكن له في البلد منزل ورثه من ابيه ولا مقبرة لسلفه وذويه ، ولا ما يقتضي حب الوطن وبنيه ، ولا سياسة يعرف بها نفسه والحال وما يقتضيه ، كيف لا يفكر اولا في عاقبته ، ولما ناداه المدفع اسرع الى اجابته ، وكان الأمان على ماله اول آماله ، لانه دخل البلاد صفر اليدين ، وخرج منها فائزاً بغنيمة القدين ولو كان من ابناء ترابها ما سهل عليه ذلك ولا استهان بطرق المهالك ... »(٢) .

ان مغادرة الداي وجنده الجزائر لم ينه المقاومة بل كان بداية لمقاومة جديدة ، ويقول كاليسو « ... لقد غيرت المقاومة الجزائرية طبيعتها حينئذ

(1) Revue Historique 1965 P. 342

(٢) ابن ابي الضياف : ج ٣ ص ١٦٨ .

فلم تعد النيابة التركية هي التي تقاوم ولكن الشعب الجزائري الذي كانت تعوزه الآن الوحدة . ان المقاومة الاولى لايمكن الا أن تكون مبعثرة ، وبالرغم من المقاومة المحلية الحادة فانها لم تكن لتعبر بعد عن رغبة المقاومة في اطار الوحدة ....[1]

(1) Revue Historique 1965 : P. 345

مظاهر المقاومة الجزائرية

١) مقاومة القبائل : التي يمكن ان نعتبرها على نحو ما استمرارا للمقاومة السابقة للحكم التركي ولكن بصورة جديدة ، انها تقاوم اجنبيا عن الوطن والدين . انها تقاوم كما يقول كافينياك « ... العنف التركي بايدي المسيحيين ... » .

٢) مقاومة البايات : في سبيل الاحتفاظ بالمركز والسلطة او طمعا في وراثة مركز الداي وسلطته المنهارة ، مستغلين في ذلك روح المقاومة ورفض السكان للاحتلال .

٣) مقاومة عبد القادر : وهي المقاومة الاصيلة الشعبية الواعية التي سعت من خلال مقاومة الاحتلال الى خلق الامة والدولة الجزائرية .

لم يكن سكان المدن المحتلة في حال تسمح لهم بابداء مقاومة فعالة ، وقد اخذت المقاومة في الجزائر ووهران وعنابة مظهر الهجرة من المدينة الى الداخل ، او مظهر التعاون السري مع رجال المقاومة حول هذه المدن ، عن طريق تزويدهم بالمعلومات ، وتهريب الاسلحة. كما اخذت في بعض الاحيان مظهر الاحتجاج والتظاهر والاحتقار للمتعاونين مع المحتل . ففي مدينة الجزائر انضم اليهود وحدهم على الفور الى المحتل واسهموا في نهب المدينة وعرضوا خدماتهم على المحتل الذي قبلها . وعمل يعقوب بكري الذي عين رئيسا للطائفة اليهودية مستشارا لبورمونت . وتعاون كبار التجار مع قوات الاحتلال على أمل ان يحلوا محل الاتراك في تسلم السلطة التي حرمهم الاتراك منها ، وكانوا في الوقت الذي يخدمون فيه الفرنسيين يخدمون مصالحهم ، وقد شجعهم ادراكهم لتردد الفرنسيين وعدم وجود تصميم

واضح لديهم حول مصير الجزائر ، كما شجعهم فيما بعد القنصل الانكليزي سانت جون الذي كان يؤكد لهم على الدوام الطابع المؤقت للاحتلال الفرنسي. وقد عمل هؤلاء في باريس بتشجيع من الاحرار الفرنسيين المعادين للاحتلال على اقناع الحكومة الفرنسية ان تترك للجزائريين انفسهم اختيار حكومة تضمن ، بموجب اتفاقات ، مصالح الاوروبيين، وتصبح فرنسة بذلك « صديقة افريقية الحرة » .

اما عامة اهل المدينة فقد وقع على عاتقهم عبء الاحتلال ، واجبر الكثيرون منهم على اخلاء دورهم دون تعويض لسكنى الجند ، وتوقفت اعمالهم وعم الفقر بينهم ، وانتشرت الشحاذة والدعارة بسبب ذلك ، وزاد في ألمهم ان تتحول مدينتهم ، بسبب وجود جند الاحتلال وتدفق المدنين الاجانب من حثالات فرنسة وموانى البحر المتوسط ، الى مدينة حانات ومواخير ، وان تدمر مقابرهم بحجة شق الطرق ، وان تحول مساجدهم الى ادارات وثكنات وكنائس ، وأن يتعرضوا كل يوم لاجراءات بوليسية تعسفية . واخلى سكان وهران المدينة بعد ان قبل الباي حسان التبعية الفرنسية وسلم المدينة للفرنسيين ، وفعل اهل عنابة مثلهم .

كانت مقاومة القبائل اول فصل في ملحمة المقاومة الجزائرية . ففي ٢٣ من تموز ١٨٣٠ عقد رؤساء القبائل في منطقة الجزائر مؤتمرا في برج ماتسيفو (غرب راس ماتيفو) اي في اليوم الذي قاد فيه بورمونت حملته الفاشلة على بليدة . وكان هدف المؤتمر تحديد موقف القبائل من الحرب او السلم مع الفرنسيين ، وكانت الرغبة في المقاومة ظاهرة، وقد تشجع المؤتمرون بهزيمة الفرنسيين في بليدة ، وبما حدث في الجزائر من اعتداءات ونهب ومصادرة املاك ، وحرق الحصاد وتدمير البيوت والاعتداء على النساء والمساجد ، واحاط بمكان المؤتمر جمهور كبير من رجال القبائل مرددين صيحات الحرب .

وقرر المؤتمر المقاومة ورفض اي اتفاق مع العدو ، وانتشر الرسل بين القبائل يحملون هذا القرار ويدعونها للقيام بعمل مشترك . وقد عملت هذه القبائل على حصر الفرنسيين في مدينة الجزائر ومنع توسعهم خارجها ، والحيلولة دون وصول المؤن اليهم . كما احبطت هذه القبائل مرتين في عهد كلوزل ١٨٣٠ وعهد برتيزين ١٨٣١ محاولات الفرنسيين للسيطرة على بليدة ومدية . واحبطت القبائل في منطقة بجاية نزولا فرنسيا فيها سنة ١٨٣٠ . وعملت قبائل منطقة عنابة على تحرير المدينة من الفرنسيين ،وتميزت معارك عنابة بالضراوة، وكتب احد الضباط الفرنسيين انه لو حارب الجزائريون في اسطا والي بالضراوة نفسها لالحقوا اضرارا فادحة بالحملة . وعملت قبائل منطقة وهران على النحو نفسه . ولكن مقاومة القبائل كان ينقصها الوحدة والتنسيق والاستمرار والزعامة .

مقاومة البايات :

باي تيطرى : كان بورمونت يعتقد ان سقوط الجزائر سيؤدي بصورة عفوية الى خضوع النيابة كلها ، وقد تعزز اعتقاده هذا بقبول باي تيطري التبعية لفرنسة . فقد قبل باي تيطرى مصطفى بو مزراق ان يعترف بملك فرنسة سيدا له ، وان يكون وفيا له ، وان يخدمه ضد كل اعدائه ، وان يدفع له اللزمة . ووقع وثيقة بذلك وتلقى تعيينه باياً لتيطرى في ١٥ من تموز ١٨٣٠ . وتمكن الفرنسيون من دخول وهران بالتواطؤ مع بايها حسان الذي اعلن عن استعداده لتسليم المدينة اذا كان بامكانه الانتقال مع عائلته وثروته واعوانه الى آسية الصغرى . ووافق الفرنسيون على السماح له بالسفر الى اي مكان يريد ، او البقاء في منصبه ، ثم تسلم الفرنسيون حصن المرسى الكبير ، ووقع حسان وثيقة التبعية ، ودخلت القوات الفرنسية وهران في ١٣ من آب . وتوقع بورمونت ان يكون موقف باي قسنطينة مشابها لزميليه. ولكن الامور تطورت على نحو آخر ، فقد رفض باي قسنطينة الخضوع

للتبعية الفرنسية ورفضت قبائل وهران طاعة الباي حسان، وما لبث الفرنسيون ان انسحبوا من وهران اثر سماعهم بثورة تموز في فرنسة .

كان موقف باي تيطري المتخاذل نتيجة اما لرغبته بالاحتفاظ بلقبه ، او ليتجنب الصدام مع الفرنسيين القريبين منه . ولكنه ما لبث ان رفض التبعية الفرنسية . وهناك تفسيرات عديدة لهذا التغيير :

١) ربما كان ناجما عن اعتقاد بومزراق ان الفرنسيين سيكتفون باحتلال مدينة الجزائر وان الفرصة سانحة لان ينصب نفسه محل الداي على ما تبقى من الجزائر . يذكر الباي احمد في مذكراته[1] ان مصطفى بومزراق اعلن استقلاله وسمى نفسه باشا ، وكتب الى الباي احمد يدعوه الى طاعته ودفع اللزمة له .

٢) ربما كان بومزراق متأثرا بتنكر الفرنسيين لعهودهم التي قطعوها لسكان مدينة الجزائر باحترام حريتهم ودينهم وممتلكاتهم ، فادرك انه لايستطيع ان يثق بعهدهم ، فرغب ان يسبقهم الى العمل . ونجد شيئا من هذا في رسالة بومزراق الى بورمونت ردا على دعوة هذا له الى القدوم ،ذكر فيها شكاوى السكان واعلن انه لا يثق بكلام بورمونت لانه كان قد اقسم باحترام الممتلكات والاشخاص وانه فعل العكس . فاي ثقة يمكنه ان يضعها فيه ؟

٣) ربما تأثر بومزراق ، ولعل هذا هو الاهم ،بمعاملة الفرنسيين للاتراك فقد طرد بورمونت بعد فشله في بليدة ، من تبقى من الاتراك في الجزائر او في الادارة ، واستخدم في جهازه الاداري في مدينة الجزائر عربا من سكان المدينة . فكتب بومزراق الى بورمونت « ... ان العرب لم يثوروا الا لأنهم سمعوا انكم طردتم الاتراك واعطيتم سلطات كاملة لاعيان المدينة من العرب .

(1) Revue Historique 1949

ان مثل هذا ما كان ينبغي ان يكون ، ذلك لان عربيا لايخضع ابدا لعربي . ان حاكما تركيا حتى ولو كان اعمى او مشلولا افضل الف مرة .. ... ان العرب لا يريدون ابدا حكاما عربا ... »[1] . وتشجع بومزراق عندما سمع بتصميم القبائل على القتال وبتردد الفرنسيين وعجزهم عن الحركة الفعالة خارج مدينة الجزائر ، وامتناعهم عن ارسال الاسلحة والذخائر التي وعدوه بها لمعاقبة القبائل في بيلكيته ، كل هذا دفع بومزراق الى تغيير موقفه . وبدلا من ان يلبي دعوة بورمونت بالمجيء الى الجزائر كتب له « ... لدي البارود والرصاص لاحارب عشرة اعوام . لست راغبا في مقابلة الجنرال القائد العام لانه لم يحسن التصرف مع الجند التركي ، وعلى اي حال وخلال بضعة ايام ان شاء الله ساحضر لمقابلته بجيش من مئتي الف رجل ... »[2] .

وجه كلوزل الذي خلف بورمونت قوة في تشرين الثاني دخلت مدية واستسلم بومزراق ، وعين بدلا منه التاجر مصطفى بن الحاج عمر . ولكن كلوزل اضطر الى الانسحاب تاركا الباي الجديد دون حماية . وفي حزيران ١٨٣١ اضطر القائد العام الجديد برتيزين الى التدخل في مدية بناء على استغاثة باي تيطري الجديد لمقاومة ثورة قامت ضده بقيادة ابن بومزراق . وبالرغم من نجاح الحملة في الوصول الى مدية الا انها اضطرت امام ضغط القبائل الى الانسحاب الى الجزائر مستصحبة معها الباي العميل ، واعتبرت القبائل هذا الانسحاب انتصاراً لها .

مقاومة باي قسنطينة :

كان الباي احمد من القولوغلي اي من الفئة الهجينة التي كان الاتراك يحتقرونها ، وتحتقر بدورها العرب . وكان احمد متأثرا بنفسية هذه الفئة

(1) P. Azan : P. 161
(2) P. Azan : P. 170

ولعل هذا من اسباب رفضه التفاهم مع عبد القادر حتى بعد سقوط قسنطينة لانه كان يحتقر رجلا ليس « ... من جنس يستطيع ان يقدم امراء ليقودوا ... » بل انه لم يكن ليخفي تفضيله التحالف مع فرنسة لمطاردة (ابن محي الدين) على الانضمام الى عبد القادر للعمل ضد الفرنسيين[1] .

وكان الباي احمد يعاني المتاعب من الاتراك والعرب في الوقت نفسه . واذا كان قد رفض الخضوع للسلطة الفرنسية فلم يكن ذلك بدافع الوطنية وان كان قد استغل كره السكان للفرنسيين وتصميمهم على المقاومة ليجمعهم حوله . كما تشجع بوعود السلطان بالمساعدة ، وبما رآه واطلع عليه من تردد الفرنسيين وعجزهم عن التوغل في الداخل . وكان حريصا على البقاء في منصبه سواء عن طريق التفاهم مع الفرنسيين او عن طريق المقاومة باسم سيده السلطان . ولم يرفض الباي احمد حتى استسلامه ١٨٤٨ المباحثات مع فرنسة ، وهو إن تذرع ، لرفض العروض الفرنسية ، بانه تابع للسلطان لا يستطيع التصرف الا باوامر منه ، وكان فعلا على اتصال مستمر معه ، فانه كان يسعى للحصول على افضل الشروط من الفرنسيين مستغلا ترددهم وعجزهم وحرصهم على التفاهم معه دون تضحيات . ويقول جوليان ان الباي احمد كان حريصا على السلطة اكثر من حرصه على الجهاد الذي لم يكن واثقا من نتائجه ، وان سياسة ماهرة تعرف كيف ترضي طموحه وتضمن له امتيازات كانت ستنجح دون شك في ايجاد حل وسط[2] .

وما من شك في ان الباي احمد كان اكثر ذكاء ومهارة من الحكام الاتراك ، كما ان اوضاع قسنطينة كانت تختلف عن اوضاع البيلكيات الاخرى ، فهي غزيرة السكان منتجة للحبوب ، واقل المناطق تأثرا بالازمة التجارية التي تعرضت لها الجزائر منذ اواخر القرن الثامن عشر . ولم تكن الادارة التركية فيها تعتمد ، كما في البيلكيات الاخرى ، على اصطناع قبائل ممتازة (قبائل

(1) Ch. A. Julien : Historie de l'Algerie Contemporaine. P. 135
(2) Ch. A. Julien : Historie de l'Algerie Contemporaine. P. 94

مخزن) وكان عدد الاوجاق قليلا لا يتجاوز ٩٠٠ جندي . وقد نجح الباي احمد بالقيام باصلاحات خففت من وطأة الحكم التركي الذي كانت البيلكيات الاخرى تعاني منه ، وليعوض عن نقص الحامية التركية التي لم تكن مرتاحة لحكمه وعن استخدام قبائل المخزن المرهق للحاكم والمحكوم ، احاط نفسه بجنود وفرسان من بلاد القبائل يتقاضون مرتبات . ولما كان الباي يتصرف بـ ٢/٣ الاراضي فان عددا كبيرا من صغار ومتوسطي المزارعين الذين كانوا يستأجرون اراضي الباي كانوا يؤلفون ما يمكن تسميته المخزن البايوي ، مكونين بذلك احتياطيا عسكريا . وهكذا ، كما يقول كالليسو صار بامكان الباي احمد ، بتوسيعه القاعدة العسكرية ، ان يجند اكبر عدد من الاهالي بدلاً من الاعتماد على عدد من القبائل الممتازة المعزولة عن السكان . وقد وحد الباي احمد الضريبة العقارية (الحكر) وجباها من الجميع ، ولم يعد الاعفاء الضريبي ولا الاوضاع العسكرية يفرقان بين السكان كما في البيلكيات الاخرى . وقبل ان يصل الى قسنطينة علم بقيام مؤامرة ضده في المدينة دبرها الجند الاتراك ، لان الباي من القولوغلي ، ولانهم اتهموه كما يذكر الباي في مذكراته بالانحياز للعرب . ولكن الباي تمكن بمساعدة اهل المدينة من التغلب على المتآمرين واعدم زعماءهم ، كما قرر التخلص نهائيا من الجند التركي الذي تفرق في القبائل هربا بعد فشل المؤامرة ، فعمم كتابا يطلب فيه من القبائل التخلص من هذه العناصر التي « ... لاتجلب الا الفوضى والتي تمنع الحاكم من ان يقدم الخير لهذه القبائل .. » . واطاعت القبائل لهذا النداء فاعملت القتل في الاتراك . ونظم الباي بدلا منهم جيشا من الزواوة من بلاد القبائل .

تلقى الباي كتابا من بورمونت يعلن له انه سيبقيه بايا في قسنطينة اذا اعلن خضوعه لفرنسة . ولم يكن رد الباي واضحاً ، فقد اجاب انه تسلم السلطة من الداي حسين وبموافقة كل سكان قسنطينة واقليمها ، وانه سيعود

اليهم ليأخذ رأيهم . فاذا وافقوا على طلب بورمونت فانه سيوافق(١) . ثم تلقى الباي كتابا آخر من الجنرال كلوزل يجدد عرض بورمونت . وعرض الباي مقترحات كلوزل على الديوان ، فاجاب الديوان ان قسنطينة تتبع باشا الجزائر وان الجزائر تتبع بدورها السلطان ، وان على الباي ان يأخذ موافقة السلطان قبل ان يقبل العرض . وقد لمس الباي احمد كره الديوان للفرنسيين ، وان جوابه هذا كان بقصد كسب الوقت واطالة المفاوضات ، كما انه كان بمثابة توجيه للباي للاتصال بالسلطان . وقد تقرر هذا الاتجاه بعد دخول باي تونس طرفا في العلاقات بين قسنطينة وفرنسة .

ونتيجة لرفض باي قسنطينة الخضوع لفرنسة، وبسبب عجز الفرنسيين عن القيام بعمل عسكري ضده ، بدأ كلوزل يفكر باسناد بيلكيتي قسنطينة ووهران الى بعض افراد الاسرة الحاكمة التونسية . وكان بورمونت قد فكر بمثل هذا الحل بناء على اقتراح قنصل فرنسة في تونس ماتيودولسبس الذي كان خبيرا باوضاع شمال افريقية ، حيث امضى مدة طويلة في العمل في المغرب وتونس وطرابلس وخرج بخبرة مفادها انه لا يمكن ادارة المسلمين الا بواسطة مسلمين .

قرر كلوزل عزل باي قسنطينة وتعيين سي مصطفى شقيق باي تونس بدلا عنه ، وعقد معه اتفاقا في كانون اول ١٨٣٠ حدد فيه التزامات الباي الجديد . وبموجب هذا الاتفاق تعهد سي مصطفى ان يدفع على اربع اقساط وبضمانة باي تونس مبلغ ٨٠٠ الف فرنك عن السنة الاولى ، ومليون فرنك بالنسبة للسنين القادمة ، مقابل اعطائه الحق بجباية عائدات الاقليم على النحو الذي يراه . كما نص الاتفاق على انقاص رسوم الجمرك التي يدفعها الفرنسيون في مواني عنابة وستورا وبجاية الى النصف . وتعهد سي مصطفى

(1) Revue Africaine 1949 P. 71 - 74

بحماية التجار والمزارعين الفرنسيين وتهدئة المنطقة ، وقبل كلوزل الا يقيم في المنطقة حامية فرنسية .

أثار هذا الاتفاق مشاكل عديدة . فقد كان هناك خلاف بين النصين العربي والفرنسي افسح المجال لادعاءات متناقضة واثار شكوك التونسيين بصدق نوايا فرنسة . كما سبب استياء شديدا لدى المسؤولين الفرنسيين لان كلوزل تصرف دون اخطار حكومته ، بحجة ان هذه التسوية ليست سوى عملا من اعمال الادارة الداخلية في الجزائر . كما ان دولسبس الذي لعب دورا بارزا في المفاوضات لم يخطر بها وزارة الخارجية . واعتبرت الحكومة الفرنسية ان كلوزل قد تجاوز صلاحياته لأنه ليس مخولا عقد اتفاق مع دولة اجنبية يحدد مصير اقليم . كما اعتبرت هذا العمل خسارة، لانه يتضمن تنازلا كاملا عن حقوق فرنسة لصالح باي تونس ، ولا يقيم وزنا لممتلكات فرنسة القديمة في افريقية ، ولانه ينص على ضريبة هي اقل بكثير من الموارد التي ينبغي ان يقدمها هذا الاقليم . وقد كشف التحقيق الذي اجراه القومندان هودر الذي كلف بمراجعة الاتفاق ان كلوزل قد اعطى تعهدات شفهية بانه عاجلا او آجلا ، ستسلم الجزائر الى باي تونس ، كما كشف التحقيق ان دوافع كلوزل لعقد هذا الاتفاق كانت مالية وليست سياسية ، وان هدفه الاساسي كان الحصول على اللزمة السنوية من اقليم قسنطينة . واتهم كلوزل انه حصل على فوائد شخصية كبيرة . وقد رفضت الحكومة الفرنسية الاتفاق وفشلت محاولة كلوزل .

وبالرغم من فشل هذا الاتفاق فانه سبب ازعاجا كبيرا للباي احمد لانه شجع المطامع التونسية في قسنطينة ، واخذ باي تونس يحرض السكان ضد الباي احمد . يذكر الباي احمد في مذكراته ان باي تونس ارسل رسلا الى بيلكية قسنطينة يروجون ان قسنطينة كانت فيما مضى جزءا من مملكة تونس وينبغي ان تعود اليها وان يحل اخوه مصطفى محل الباي احمد . وقد لاحظ الباي احمد ان هذه الرسائل لاتشير الى الفرنسيين في حين انها تحرض

السكان على الثورة على الباي وطرده • كما كتب باي تونس الى السلطان يتهم الباي احمد بالطغيان واثارة كره السكان ضده • عرض الباي احمد هذه الرسائل على الديوان فوجه الديوان رسالة الى باي تونس يرفض مزاعمه ويعلن تأييده للباي • وجاء في رسالة الديوان ان قسنطينة وتونس تابعتان للسلطان ، وان للسلطان وحده أن يقرر توزيع ممتلكاته • وارسل الباي احمد الى السلطان محمود كتابا صادرا عن اعيان بيلكية قسنطينة عرض فيه لكل ما حدث في البيلكية واعلن انه ينتظر اوامره • وازداد الخطر على قسنطينة قبل ان يصل جواب السلطان ، فقد نجح الفرنسيون بمساعدة مملوك هارب من تونس اسمه يوسف – اتهمه الباي احمد انه يهودي الاصل – في الاستيلاء على عنابة في آذار ١٨٣٢ • وبعد سقوط عنابة وصل جواب السلطان يحذ موقف الباي احمد من العروض الفرنسية ويطلب منه الاستمرار في هذا الموقف • واعرب السلطان في جوابه عن رغبته في تقديم المساعدة للباي ، وكنه في حالة صلح مع الدول المسيحية ولا يستطيع ان ينقض الصلح دون مبرر قوي • وطالب الباي بالمضي في المماطلة ازاء المقترحات الفرنسية بوصفه تابعا لاستنبول وليس بامكانه عقد اتفاق الا بواسطة السلطان • وطلب السلطان موافاته بكل المقترحات التي قد تقدم للباي « ••• تمسكوا بطاعتي ولا تعقدوا الصلح الا اذا اعطيتكم الامر بذلك ، لاتقلقوا انا مهتم بكم ••• » وجد الباي احمد ان جواب السلطان غير كاف فارسل رسالة اخرى بين فيها حرج موقفه بعد ان نزل الفرنسيون في عنابة ، وكيف انهم يكسبون كل يوم ارضا جديدة ويزدادون قوة ، وكيف اصبح عرضة لهجوم بين يوم وآخر • واكد الباي انه مستعد للتضحية والموت على الاستسلام اذا كانت هذه ارادة السلطان « ••• ولكن اذا رغبتم ان اقاوم فارسلوا لي نجدة••• واذا وجدتم انه من الخير ان تأمروني بالخضوع للفرنسيين فسأفعل ذلك على الفور ، ومع الأسف فان الحالة التي نحن فيها تبدو لي وكأنها تشير الى هذا الحل ، اخرجونا من هذا التخبط •• » • ولقي مبعوث الباي فتورا من الصدر

الاعظم رؤوف باشا الذي دعاه الى التمسك بالصبر واعلن ان السلطان سيرسل مبعوثا الى قسنطينة ليعرف حقيقة الوضع • ويفسر الباي احمد هذا الموقف المتشكك بدسائس باي تونس الذي كتب الى السلطان يتهم باي قسنطينة بالخروج على السلطان وانه عين نفسه باشا وسك عملة باسمه « كما لو كان سلطان استنبول » • ويدعى الباي احمد انه فعل ذلك حقا ولكنه انما فعل ذلك بناء على طلب السكان الذين بينوا له انه مساو لباي تونس [(١)] ، والحق ان السلطان كان آنذاك عاجزا تماما عن اي شيء سوى الكلام لانه كان يواجه جيوش ابراهيم باشا التي بدأت تهدده في عقر داره بعد استيلائها على سورية • ارسل السلطان مبعوثا الى قسنطينة اعلن في اجتماع ضم الباي وأعيانه ان السلطان يسعى لعقد اتفاق تبقى بموجبه قسنطينة تابعة له • والح مبعوث السلطان على اهل قسنطينة الا يقبلوا اي شرط دون الرجوع الى السلطان ودعاهم الى الاتحاد • وتبين للمبعوث كذب ادعاءات باي تونس ، وعندما غادر قسنطينة ارسل الى الباي احمد يطمئنه ان السلطان سيرسل قوة كبيرة لمساعدة قسنطينة اذا فشلت مساعيه في عقد اتفاق •

وفي آب ارسل الدوق دوروفيجو قائد قوات الاحتلال مندوبا من اعيان الجزائر (سي حمدان بن عثمان خوجا) الى الباي احمد ، يدعوه الى دفع اللزمة السنوية مع غرامة كبيرة ، ويطلب منه ان يعلن خضوعه لفرنسا مقابل احتفاظه بمنصبه •

---

(١) نشر عبد الجليل التميمي في Revue de l'occident Musulman et de la Mediterranée رسالة من اعيان قسنطينة واخرى من الباي احمد الى استنبول • أشار الأعيان في الرسالة الاولى الى جهود الباي أحمد منذ استسلام الداي وانهم هم الذين فرضوا عليه أن يحمل لقب الباشا بدلا من الباي واقسموا له يمين الولاء • وطالب الأعيان بموافقة السلطان على قرارهم • وجاءت رسالة الباي أحمد في التاريخ نفسه تقريبا تشرح مجهود الباي أحمد وتضحياته وامله ان يوافق السلطان على منحه لقب باشا وان يمده بالأسلحة • انظر ص ١٣٨ الى ١٤٧ • ويشير مؤرخ عثماني الى ان الحكومة العثمانية بتأثير سفراء فرنسة وانكلترة لم تمنح الباي هذا اللقب • المصدر نفسه ص ١٤٦ •

لم يرفض الباي والديوان العرض مبدئيا واكتفوا بالاحتجاج على مبلغ الغرامة وانه اكثر مما يملكون ، وانهم لايرفضون دفع اللزمة اذا انسحب الفرنسيون من عنابة لأن كل ثروة قسنطينة تقوم على بيع الحنطة والصوف في عنابة • وردد الباي والاعيان ما اكدوه من قبل ، ان ليس بامكانهم ان يعقدوا اتفاقا نهائيا مع الفرنسيين بدون اعلام السلطان محمود • نقل سي حمدان جواب الباي الى دو روفيجو وعاد في تشرين الاول ١٨٣٢ يحمل عروضا جديدة ، فقد خفض دو روفيجو مبلغ الغرامة وطلب السماح للفرنسيين بوضع حاميات في عنابة وقسنطينة[1] ، وان يحصل الفرنسيون وحدهم على حرية التجارة في عنابة • ولكن سي حمدان اصطدم هذه المرة برفض قاطع • ويفسر جوليان سبب هذا الرفض بتحذيرات وصلت الى الباي من الجزائر بان سي حمدان لم يأت إلا ليخدعه[2] ، كما عثر الباي احمد على رسالة من المملوك يوسف الى شيخ قبيلة عربية يطلب اليه فيها الا يكترث للمحادثات بين سي حمدان والباي لان الفرنسيين سيأتون الى قسنطينة ويستولون على المدينة • وكان ليوسف مصلحة شخصية في فشل المحادثات لانه كان يطمع أن يصبح باي قسنطينة • حاول سي حمدان أن يثني الباي احمد عن موقفه وطلب اليه ان يسلمه مبلغا ليذهب الى باريس ويسعى لصالحه • وبالرغم من ان الباي كان يعتقد بعبث هذه المحاولة فانه امام الحاح سي حمدان وتأكيده سلم له المبلغ المطلوب • وعاد سي حمدان الى الجزائر ثم ذهب الى باريس واستنبول ولكنه فشل في مهمته • وانصرف الباي احمد الى معالجة بعض الاضطرابات في حين شغل الفرنسيون في غربي الجزائر •

---

(١) في رسالة الباي احمد الى الباب العالي في ١٦ من ايلول ١٨٣٣ يذكر ان دو روفيجو طلب منه التخلي عن عنابة والقال والجزائر ووهران وان تترك له باقي البلاد الواقعة بين تونس والمغرب انظر

Revue de l'occident Musulman et de la Mediterranée P. 145

(2) Ch. A. Julien : Histoire de l'Algerie Contemporaine P. 95

تأثر مصير قسنطينة بقرار الحكومة الفرنسية في ٢٢ من تموز ١٨٣٤ بالاحتفاظ بالجزائر وبالاحداث الجارية في بلكية وهران • فبعد هزيمة الفرنسيين في معركة المقطع امام عبد القادر اعيد كلوزل للمرة الثانية حاكما للجزائر ، وشرع فور عودته بتركيز جهده ضد عبد القادر ، فدخل عاصمة الامير (معسكر) كما دخل تلمسان التي ارتكب فيها الفرنسيون ولا سيما اليهودي لاسري والمملوك يوسف،فظاعات اثارت استنكار الرأي العام الفرنسي وادت الى تدخل الحكومة • قرر كلوزل بعد هذه النجاحات التي احرزها ان الموقف قد توطد في الغرب وان عبد القادر بات عاجزا عن القيام بأي تهديد ، فعزم على توجيه جهوده نحو قسنطينة ، واعلن عزل الباي احمد وتعيين المملوك يوسف باياً عليها في كانون الثاني ١٨٣٦ •

نجح كلوزل في اقناع رئيس الوزراء تيير بمشروع حملة ضد قسنطينة ، سيؤدي نجاحها الى نجاح فتح الجزائر العام • واكد كلوزل لتيير ان يوسف سيضم اليه القبائل التي تكره باي قسنطينة • ولكن كلوزل كان مخدوعا فقد كان يوسف مكروها اشد الكره من السكان ، فبالاضافة الى الدور القذر الذي لعبه في تلمسان فقد بنى سلطته في عنابة على الارهاب ونهب القبائل المجاورة لعنابة فارضا عليهم اموالاً ونساء •

قدر كلوزل ، بعد ان حصل على وعد من تيير بتزويده باقوات اللازمة، ان الساعة قد حانت • ولكنه صدم اذ سقطت وزارة تيير وخلفتها حكومة جديدة لا ترغب في هذه الحملة • ولما كانت لاتستطيع ابداء رفض حازم فانها اكتفت بالقول ، رداً على طلب كلوزل للامداد ، انها لا تستطيع تجاوز الاعتمادات التي حددها المجلس ، وذكرته بقوله انه يستطيع الذهاب الى قسنطينة بتسعة او عشرة آلاف جندي ، واضافت ان لديه الوسائل ليهيء حملة بهذه القوة •

كانْ على كلوزل ان يقوم بهذه الحملة او يستقيل ، فآثر الحل الاول

واضعا امله بوعود يوسف الذي اكد له تأييد السكان ، وان الحملة ستكون نزهة عسكرية وان البلاد ستستسلم • وبلغ من انخداع كلوزل انه دعا مدعوين بارزين الى هذه النزهة العسكرية ليشهدوا دخوله قسنطينة ، واعلن انه واثق من النتيجة • وطبع امرا يوميا الى الجنود في عنابة ينقصه تحديد تاريخ اليوم جاء فيه « •• ايها الجنود سندخل اليوم قسنطينة ••• »

كان الباي احمد علي علم باستعدادات الفرنسيين في عنابة فأخذ يستعد للدفاع ، واستنفر الناس فلم يتخلف احد ، وعسكر على مسيرة نصف نهار من قسنطينة تاركاً في المدينة حامية بقيادة بن عيسى زودها بالمدافع والذخيرة الكافية • ولما وجد القوة المهاجمة كبيرة تجنب الدخول في معركة مفتوحة وفرر القتال متراجعا ، مكتفيا بعرقلة تقدم العدو ليستدرجه الى قسنطينة ليحتمي باسوارها ، ويترك الفرنسيين يتوغلون في الاقليم فيتعرضون لنيران حامية قسنطينة وهجمات القبائل على مؤخرتهم ، وادخل الباي قسما من قواته المدينة وانسحب مع الباقين وراء الفرنسيين يراقب حركاتهم •

ساعد الطقس الباي احمد فقد سقط المطر والثلج في غير موعده وبكميات كبيرة الحقت بالفرنسيين اضرارا كبيرة ، واعاقت تقدم المدفعية والمؤن •وركز الباي اهتمامه على من بقي في المؤخرة فهاجمهم وقتل كثيراً منهم وسلب اعتدتهم ، وعندما تقدم الفرنسيون لمهاجمة المدينة وجدوا انفسهم بين نارين: نار المدينة ونار خيالة الباي في مؤخرتهم • وفشل الهجوم واضطر الفرنسيون الى الانسحاب • وصف ديبو بريدل وبنوا هذا الانسحاب انه كان رهيبا يعيد الى الذهن الانسحاب من روسية ، وكان للبرد الاذى نفسه ، ولم يكن الخيالة العرب اقل رهبة من القوزاق[1] • وشرع الباي بمطاردة الحملة المنسحبة • ويذكر في مذكراته انه لم يثقل عليهم كي لايثير غضبهم ويدفعهم الى المقاومة الضارية • وكان الباي كما يذكر في مذكراته يعتقد انه لو دمر

(1) J. Dahu - Bridel et M. Benoist : P. 121

هذا الجيش المهاجم فان باستطاعة فرنسة القوية ان تنتقم ، في حين كان يأمل ان ترسل فرنسة مفاوضين جدد يتوصل معهم لعقد اتفاق •

وقد اشترى الباي من القبائل كل ما تركه الجيش الفرنسي من اعتدة واسرى ، وكان يعتقد ان الفرنسيين سيعاودون الهجوم ، وانه اذا رد لهم ما فقدوه امكنه ان يأمل بالمفاوضة والحصول على شروط مقبولة[1] •

ويفسر الباي احمد ، ويشاركه في ذلك الكثير من الضباط الفرنسيين ، سبب مقاومة سكان قسنطينة بانه يعود بصورة خاصة الى وجود يوسف مع الفرنسيين • وكتب الضابط بلسيه دورينو وهو من احسن الخبراء بأمور الجزائر في رسالة ارسلها من الجزائر الى جريدة فرنسية عن (المغامر يوسف) قال فيها : « الآن : يوسف نهاب تلمسان ، سلاب قبائل عنابة ، صانع فشلنا في قسنطينة ، يوسف الغارق بالدم والنهب ، ينبغي ان يكون موضع اشمئزاز كل الناس الشرفاء ••• »[2] • واذا كان يوسف قد فقد البايوية فانه لم يفقد حظوته ، فقد وجد في باريس حظوة لدى النساء بما يتمتع به من جمال « ••• وبدلا من ان يغزو دواير العرب في الجزائر بدأ يغزو مخادع باريس ••• » وبهذا اثبت جدارة استحق عليها لقب كولونيل ١٨٣٨ وارتقى الى رتبة جنرال وحصل على وسام جوقة الشرف •

كان وقع الهزيمة شديدا على الفرنسيين ، وعزل كلوزل وخلفه الجنرال دامريمون في شباط ١٨٣٧ • وكي تستطيع فرنسة الانتقام لهذه الهزيمة كان لابد من وضع عبد القادر في موقف محايد • وكلف الجنرال بيجو بهذه المهمة ونجح في عقد معاهدة تافنا مع الامير ، وسمح هذا الصلح في الغرب بنقل الجهد العسكري الى الشرق • وفي نهاية ايار تلقى دامريمون تعليمات حكومته حول حملة قسنطينة • وجاء فيها انه مع الاستعداد لهذه

(1) Revue Africaine 1949
(2) Ch. A. Julien : P. 134

(الحملة ينبغي القيام بمحاولة للتفاهم مع الباي احمد مع الاحتفاظ بأمل معارضة سلطة « ... هذا الاقطاعي التركي القديم بقوة عبد القادر الصاعدة .. »).

وجرت مفاوضات مع الباي بواسطة يهوديين احدهما موني بوشناخ الذي كان يعمل في حاشية الباي سابقا ثم انتقل الى خدمة دامريمون. عرض الفرنسيون على الباي الاعتراف بالسيادة الفرنسية ودفع غرامة حربية والتخلي عن القال وعنابة وضواحيها . ويضيف الباي في مذكراته انهم طلبوا وضع حامية في قصبة قسنطينة وان يترك للقبائل اذا رغبت ودون مقاومة من احمد الاعتراف بالسيادة الفرنسية . ولم يكن الباي احمد يثق باليهود « .. ان يهود هذه البلاد يعكرون على الدوام القضايا السياسية التي يشتركون فيها . انهم لا يحاربون ولهم على الدوام مصلحة برؤية الآخرين يتمزقون . انهم كأولاد آوى الذين يحصلون على بقايا معركة الاسود ... » .

كن الباي مستعدا للصلح ولكن بشروط اخف . ويذكر في مذكراته انه كان مستعدا لدفع اللزمة والغرامة ولكنه لم يكن مستعدا لترك القبائل تخرج عن قيادته ، اذ انه لايستطيع حينئذ تأمين المبالغ التي يتوجب عليه دفعها . وقبل الباي من الفرنسيين البقاء في عنابة على ان يتركوا له باقي البلاد . ولكن الفرنسيين تمسكوا بمطالبهم ، ولم يتراجع الباي . ويذكر الباي ان اليهودي استحسن عمله وبين له ان الفرنسيين يرغبون في التوسع بكل الوسائل الممكنة « ... اليوم يطلبون منك هذا وغدا يطلبون شيئا آخر ، واخيرا فان الامور لاتقرر في افريقية بل في فرنسة ... » وعرض اليهودي على الباي ان يمنحه مبلغا من المال ليذهب الى باريس ويسعى هناك للحصول على صلح ملائم . ولكن الباي رفض العرض وشتم اليهودي . وخشية ان يسعى اليهودي لدى الفرنسيين وان يحور كلامه ، ولانه كان راغباً في المفاوضات ، ارسل كاتبه مع اثنين من المخازنية مع كتاب يجدد فيه عرضه السابق . ولكن الفرنسيين تمسكوا بموقفهم .

وخلال ذلك قام الباي باخطار السلطان محمود
قسنطينة وجدد طلبه بالمساعدة ضد هجوم آخر متوقع . هنا السلطان محمود الباي على النصر ووعده بارسال المساعدات البشرية والمدافع والمدفعيين اللازمين . وعلم الباي بوصول اربع سفن تقل جنودا ومدافع الى تونس ، ولكن باي تونس عرقل نزول هذه القوات بحجة انه علم بوصول سفن فرنسية حربية الى المياه التونسية (وكانت الحكومة الفرنسية قد خصصت قسما من اسطولها لتحول دون وصول اية مساعدات من السلطان للباي) وأن هذه السفن ستهاجم تونس اذا سمحت بنزول هذه القوات. وحجز باي تونس المدافع التركية التي انزلت في تونس وانسحبت القوة التركية .

كانت الحملة الفرنسية تتألف من ٢٠ الف جنـدي ومزودة بكل ما يلزم . وقاد دامريمون بنفسه الحملة بعد ان رفضها الجنرال بيجو كما رفض الملك ان تكون بقيادة ولي العهد مخافة الفشل . ولكن ابنا آخر للملك اشترك فيها دلالة على اهميتها . وكان الباي احمد قد رمم تحصينات قسنطينة وبدأ يهاجم القوات الفرنسية التي كانت تتجمع في مجاز عمر ، وكان الباي يعلم ان القوات الفرنسية ستتجمع في هذا المكان ، فعزم على ضربها قبل استكمال التجمع ولكن هجومه فشل . فقـرر حينئـذ ان يعود الى تكتيكه السابق ، وأخلى الطريق للفرنسيين ليهاجموا قسنطينة فيحصرهم بين نارين، واستمر في مناوشتهم اثناء تقدمهم . ولكي يقوي الباي احمد من عزيمة المدافعين عن قسنطينة رفض اقتراحا بنقل الاشياء الثمينة من المدينة ، وضرب المثل بنفسه فابقى كل ثروته في القصر .

وعشية الهجوم على قسنطينة لاحظ الباي من مكمنه ان اجتماعا على مستوى عال يعقد بين الضباط الكبار ، فامر قائد مدفعية القصبة بقصف مكان الاجتماع . وادى القصف الى مقتل القائد العام دامريمون وواحد القادة الكبار المرافقين له . واستغل الباي البلبلة التي حدثت فشن هجوما دعمه في الوقت

الحملة ينبغي القيام بمحاولة للتفاهم مع الباي احمد مع الاحتفاظ بأمل معارضة سلطة « ... هذا الاقطاعي التركي القديم بقوة عبد القادر الصاعدة .. » .

وجرت مفاوضات مع الباي بواسطة يهوديين احدهما موشي بوشناخ الذي كان يعمل في حاشية الباي سابقا ثم انتقل الى خدمة دامريمون. عرض الفرنسيون على الباي الاعتراف بالسيادة الفرنسية ودفع غرامة حربية والتخلي عن القال وعنابة وضواحيها . ويضيف الباي في مذكراته انهم طلبوا وضع حامية في قصبة قسنطينة وان يترك للقبائل اذا رغبت ودون مقاومة من احمد الاعتراف بالسيادة الفرنسية . ولم يكن الباي احمد يثق باليهود « .. ان يهود هذه البلاد يعكرون على الدوام القضايا السياسية التي يشتركون فيها . انهم لا يحاربون ولهم على الدوام مصلحة برؤية الآخرين يتمزقون . انهم كأولاد آوى الذين يحصلون على بقايا معركة الاسود ... » .

كان الباي مستعدا للصلح ولكن بشروط اخف . ويذكر في مذكراته انه كان مستعدا لدفع اللزمة والغرامة ولكنه لم يكن مستعدا لترك القبائل تخرج عن قيادته ، اذ انه لايستطيع حينئذ تأمين المبالغ التي يتوجب عليه دفعها . وقبل الباي من الفرنسيين البقاء في عنابة على ان يتركوا له باقي البلاد . ولكن الفرنسيين تمسكوا بمطالبهم ، ولم يتراجع الباي . ويذكر الباي ان اليهودي استحسن عمله وبين له ان الفرنسيين يرغبون في التوسع بكل الوسائل الممكنة « ... اليوم يطلبون منك هذا وغدا يطلبون شيئا آخر ، واخيرا فان الامور لاتقرر في افريقية بل في فرنسة ... » وعرض اليهودي على الباي ان يمنحه مبلغا من المال ليذهب الى باريس ويسعى هناك للحصول على صلح ملائم . ولكن الباي رفض العرض وشتم اليهودي . وخشية ان يسعى اليهودي لدى الفرنسيين وان يحور كلامه ، ولانه كان راغباً في المفاوضات ، ارسل كاتبه مع اثنين من المخازنية مع كتاب يجدد فيه عرضه السابق . ولكن الفرنسيين تمسكوا بموقفهم .

وخلال ذلك قام الباي باخطار السلطان بفشل الهجوم الفرنسي على قسنطينة وجدد طلبه بالمساعدة ضد هجوم آخر متوقع . هنأ السلطان محمود الباي على النصر ووعده بارسال المساعدات البشرية والمدافع والمدفعيين اللازمين . وعلم الباي بوصول اربع سفن تقل جنودا ومدافع الى تونس ، ولكن باي تونس عرقل نزول هذه القوات بحجة انه علم بوصول سفن فرنسية حربية الى المياه التونسية (وكانت الحكومة الفرنسية قد خصصت قسما من اسطولها لتحول دون وصول اية مساعدات من السلطان للباي) وأن هذه السفن ستهاجم تونس اذا سمحت بنزول هذه القوات. وحجز باي تونس المدافع التركية التي انزلت في تونس وانسحبت القوة التركية .

كانت الحملة الفرنسية تتألف من ٢٠ الف جندي ومزودة بكل ما يلزم . وقاد دامريمون بنفسه الحملة بعد ان رفضها الجنرال بيجو كما رفض الملك ان تكون بقيادة ولي العهد مخافة الفشل . ولكن ابنا آخر للملك اشترك فيها دلالة على اهميتها . وكان الباي احمد قد رمم تحصينات قسنطينة وبدأ يهاجم القوات الفرنسية التي كانت تتجمع في مجاز عمر ، وكان الباي يعلم ان القوات الفرنسية ستتجمع في هذا المكان ، فعزم على ضربها قبل استكمال التجمع ولكن هجومه فشل . فقرر حينئذ ان يعود الى تكتيكه السابق ، وأخلى الطريق للفرنسيين ليهاجموا قسنطينة فيحصرهم بين نارين ، واستمر في مناوشتهم اثناء تقدمهم . ولكي يقوي الباي احمد من عزيمة المدافعين عن قسنطينة رفض اقتراحا بنقل الاشياء الثمينة من المدينة ، وضرب المثل بنفسه فابقى كل ثروته في القصر .

وعشية الهجوم على قسنطينة لاحظ الباي من مكمنه ان اجتماعا على مستوى عال يعقد بين الضباط الكبار ، فامر قائد مدفعية القصبة بقصف مكان الاجتماع . وادى القصف الى مقتل القائد العام دامريمون واحد القادة الكبار المرافقين له . واستغل الباي البلبلة التي حدثت فشن هجوما دعمه في الوقت

نفسه هجوم من المدافعين عن المدينة ، واحرز الهجوم نجاحا محدودا لم يؤثر على الموقف العام .

قاد الهجوم الفرنسي الجنرال فالي ، وبالرغم من ضراوة المقاومة فقد نجح الفرنسيون في اقتحام المدينة ونشب قتال رهيب في الشوارع ، وسقطت المدينة في الوقت الذي نفذت فيه ذخيرة الجيش الفرنسي ، ولو طالت المقاومة وشن الباي هجوما معاكسا لابيدت الحملة بكاملها . نهبت المدينة كما حدث للجزائر ، ولعب اليهود دورا بارزا في ذلك .

لم ينه سقوط قسنطينة مقاومة الباي ، ويذكر الباي انه صمم على المقاومة على اساس ان يسحب جزءاً من قواته الى مكان آمن في الجنوب ، وان يرابط مع ما تبقى من القوات على طريق عنابة ليقطع الطريق على وصول المؤن الى قسنطينة - وكان قد عرف ان الجيش الفرنسي قد نفذت مؤنه - ولكن اعوانه اصروا على الانسحاب الى الجنوب . واستمر الباي احمد في المقاومة حتى ١٨٤٨ ، ولجأ أخيراً الى جبال الاوراس . وتكررت خلال ذلك عروض الفرنسيين عليه بالاستسلام دون نتيجة بسبب تشدد اعوانه ، وقد أصبح شبه اسير لديهم . واخيرا قبل الباي عرضا فرنسيا بالاستسلام مع وعد باعادة ممتلكاته ، واتفق سرا مع الفرنسيين على ارسال قوة تحاصره وحينئذ يعلن لانصاره المصرين على المقاومة ان المقاومة مستحيلة . وتم الاستسلام في حزيران ١٨٤٨ ونقل الى الجزائـر حيث توفي ١٨٥٠ .

عبد القادر

يعتبر عبد القادر ابرز وجوه المقاومة الجزائرية واكثرها وعيا واصالة، لان عمله لم يكن رد فعل عفوي او محلي ، بل كان رد فعل واع يعكس روح امة ، كان عبد القادر يدرك بوضوح ضرورة وجودها وشروط هذا الوجود .

كان عبد القادر زعيما من طراز جديد لم تعرفه الجزائر من قبل ، فهو لم يكن وريث زعامة سياسية او ادارية او عسكرية او اقطاعية ، بل كان في بداية امره رجل زاوية يحيا حياة بسيطة فجاءت ظروف الجهاد والمقاومة لتجعل منه قائدا عسكريا وزعيما سياسيا واميرا ، لا من اجل السلطة فحسب، وليس من اجل المقاومة وحدها ، بل من اجل خلق الامة والوحدة الجزائرية .

بدأ عبد القادر كزعيم للجهاد ضد الغزاة ، ولكنه كان اكثر ادراكا ووعيا من قادة المقاومة الآخرين الاقليميين ، من زعماء قبائل او حكام اتراك او مرابطين . فقد ادرك ان الحماس لايكفي وان الشجاعة بدون تنظيم واعداد تهور . وادرك ان مقاومة المحتل ينبغي الا تكون غاية في ذاتها ، وأراد ان يجعل منها وسيلة لخلق جزائر جديدة . لقد ادرك ان النضال لا يمكن ان يحقق اهدافه الا اذا تحققت الوحدة الجزائريـة . ان ثورات القبائل المتفرقة قدمت النضال على التنظيم والاعداد ، ولم يستطع زعماؤها ان يتجاوزوا حدود القبيلة او الاقليم . اما عبد القادر فقد عمل على تحقيق الوحدة الجزائرية كشرط اساسي لنجاح المقاومة ، وبهذا اوجد بعدا جديدا في حياة المجتمع الجزائري هو شعور الانتماء الى مجتمع يتجاوز حدود القبيلة او اتحاد القبائل او الاقليم ، مجتمع اراده ان يكون امة ، وكاد بالفعل

ان يبلغ على يده حدود الامة • يقول بول فورنييه « ان الفرنسيين لم يبدأوا الحرب على رجل طموح بل على شعب يتكون وعلى دولة تبنى[1] •

ادرك عبد القادر ان سر انهيار الجزائر التركية السريع يعود الى فساد النظم السياسية والادارية التركية ، والى فساد العلاقات الاجتماعية القديمة ، وادرك انه كي ينجح في هزم العدو ينبغي ان يزيل هذا الفساد وان يعمل على تغيير العلاقات القديمة او على الاقل تعديلها بقدر ما تسمح به الظروف والامكانات ، ليكون بذلك الامة الجزائرية المتحدة • واذا كان عبد القادر لم ينجح في تحقيق كل ما يريد ، فقد نجح في وضع نواة الدولة والامة التي ظلت حية في اذهان المتنورين الجزائريين حتى قامت الثورة الجزائرية الحديثة ، التي اعتبرها زعماؤها بنت ثورة عبد القادر وامتدادا لها ، واستطاعت ان تكمل ما بدأ به •

ادرك عبد القادر ان عنصر اللحمة الوحيد القادر على تكوين الامة هو الدين • وبالرغم من ان عبد القادر كان ينتمي الى طريقة صوفية (القادرية) فانه لم يعمل بوصفه قادريا ولم يسع ليفرض طريقته على الآخرين • كان يعمل باسم الاسلام وكانت طريقته الجديدة هي (الجهاد)• ولم يكن عبد القادر مصلحا دينيا فهو لهذا يختلف عن زعماء العصور الوسطى المغاربة كالمرابطين والموحدين • كان يريد ان يوحد الامة ويطرد المحتل عن طريق الشعور الديني • وفي الوقت نفسه كان عبد القادر متفهما

---

(١) يقول فورنييه « ... فعبد القادر ليس مؤسس سلالات شبيهة بسلالات العصور الوسطى. فقد صار اهم شيء عنده مقاومة الفتح اكثر من العون الديني • وكانت هذه المقاومة تعتمد قبله على العاطفة الوطنية المضطرمة في القبائل المتعلقة بالارض التي زرعها أجدادهم أما مع عبد القادر وحتى سنة ١٨٤١ فانها كانت مبنية على الدفاع عن قومية بدأت تنتظم وتتحول الى دولة ... ان الفرنسيين لم يبدأوا سنة ١٨٤١ الحرب على رجل طموح بل على شعب يتكون وعلى دولة تبنى ... » فورنييه مجلة التاريخ الحديث المعاصر ص ١٣٣ • انظر ...

Revue d'Histoire Moderne et contemporaine 1967 P. 133

لروح العصر الحديث ، فقد شاهد عمل محمد علي في بناء دولة مصر الحديثة اثناء مروره من مصر ، واعجب به ، وادرك سر تفوق الغرب الاوربي[1] ، ولكنه تجاوز الحدود التي وقف محمد علي عندها • لقد اقتصر محمد علي على البناء المادي • وسعى الى خلق الدولة الحديثة دونما عناية بتكوين الامة • كان محمد علي يمثل الاستبداد المستنير وكان مفهومه يقوم على ان وجود الدولة يعني وجود الامة • اما عبد القادر فقد عمل وفي آن واحد على تكوين الامة والدولة معا ، وكان عمله اصعب من عمل محمد علي ، فقد كان هذا يعمل في بلد اعتاد الناس فيه على وجود الدولة واعتادوا على تدخلها في حياتهم بحيث كان عدم وجود الدولة ظاهرة شاذة وخطرة ، في حين كانت الجزائر قد اعتادت منذ القديم على حياة المجموعات المستقلة وعلى غياب الدولة ، بحيث كان وجود الدولة وتدخلها في حياة الناس هي الظاهرة الشاذة والمؤذية •

ومن جهة اخرى ، كانت الظروف الداخلية والخرجية تسهل عمل محمد علي ، في حين كانت هذه الظروف تعاكس عمل عبد القادر • ومع ذلك فان ما حققه من نجاح بالرغم من هذه المصاعب يعتبر انجازا يثير الاعجاب •

بيلكية الغرب قبل ظهور عبد القادر :

هناك عوامل متعددة كانت تميز بيلكية وهران ، فقد الف سكان الاقليم الجهاد بسبب الاحتلال الاسباني الطويل لوهران والمرسى الكبير الذي لم ينقض زمن طويل على زواله ، وكانت مقاومة الحكم التركي عادة لدى

---

(١) يذكر الضابط الفرنسي ماسو الذي كان اسيراً لدى عبد القادر ١٨٤٠ _ ١٨٤١ في تقرير له الى وزير الحربية بعد أن تحرر من الأسر أن عبد القادر كان يحلم ان يكون محمد علي وقد يدفعه طموحه الى الابداع مثله ... انظر :

Revue A'Histoire Moderne et contemporaine 1967 P. 151

سكان هذه المناطق ، زاد من حدتها انتشار الطرق الصوفية القوية التي كان معظمها معاديا للاتراك ، وكانت علاقات هذه المنطقة وثيقة بالمغرب . واذا كان التدخل المغربي العسكري قد فشل فان النفوذ المغربي ظل قويا في هذه المنطقة بسبب العلاقات الاقتصادية والدينية التي تربط بين الطرق الصوفية وسلاطين المغرب . لهذه الاسباب كلها كان الوجود التركي قويا في هذه المنطقة ، ممثلا بالحاميات التركية والقولوغلي وقبائل المخزن . ولكن هذا الوجود كان ثقيلا على الناس بسبب سياسة القمع والنهب والامتيازات .

ولدى مجيء الفرنسيين وقفت السلطات التركية والقوى التي كانت تعتمد عليها موقفا مسالماً في اغلب الاحيان . فقد قبل حسان باي وهران التبعية الفرنسية ، وقبل اتراك وهران وقولوغلي مستغانم وتلمسان وقبائل المخزن (الدواير والزمالة) ، اي العناصر المرتزقة التي كانت تعيش بمعزل عن السكان وتتولى مسؤولية نهبهم واضطهادهم باسم السلطة ، قبل هؤلاء التعاون مع الفرنسيين ، وانضم اليهم عدد من الاقطاعيين العرب من صنائع الاتراك ، ورفض باقي السكان قبول الوجود الفرنسي . ولم يتوفر في هذه المنطقة احد من رجال الادارة التركية كالباي احمد يستطيع ان يقود المقاومة ويجمع السكان ، كما لم يكن بامكان احد من زعماءالقبائل ، بسببالمنافسات المحلية ، ان يتزعم حركة مقاومة عامة ، وفي مثل هذه الاحوال كان التيار الوحيد القادر على وصل القبائل بعضها ببعض متجاوزا الخصومات المحلية هو التيار الديني ، وكانت الطرق الصوفية قد كسبت نفوذا كبيرا في هذه المنطقة بتصديها للحكم التركي .

احتلال الفرنسيين وهران :

قبل الباي حسان التبعية الفرنسية وسلم وهران لبورمونت في آب ١٨٣٠ . ولكن الفرنسيين سرعان ما انسحبوا اثر سماعهم بثورة تموز ، وفي كانون الاول ١٨٣٠ احتل الفرنسيون بامر كلوزل المرسى الكبير ،

وعادوا لاحتلال وهران في كانون الثاني ١٨٣٠ ، ووافق كلوزل على اعتزال الباي حسان منصبه ومغادرته وهران الى المنفى بعد ان رفض السكان طاعته واخلوا وهران .

كان الوضع في بيلكية وهران خطيرا بسبب التدخل المغربي ، ولهذا عمل كلوزل على ايجاد ترتيب خاص بوهران شبيه بالترتيب الذي اعده لقسنطينة . فقد عرض على باي تونس ان يعين احد افراد اسرته بايا على وهران ، ووقع الطرفان اتفاقاً بذلك في الجزائر في شباط ١٨٣١ ووقع الاختيار على سي احمد ابن شقيق باي تونس . وكان هذا الاتفاق يختلف عن الاتفاق الخاص بقسنطينة ما عدا المسائل المالية،فقد سمح للفرنسيين باحتلال المرسى الكبير وان يكون الباي الجديد ازاء السيادة الفرنسية في الجزائر في وضع مشابه لوضع بايات وهران السابقين ازاء الدايات ، واحتفظت فرنسة بحق عزل الباي اذا لم ينفذ تعهداته .

وفوجيء الجنود التونسيون عندما وصلوا الى وهران بفقدان المال والمؤن اللازمة لهم، ووجدوا المدينة مخربة ،والبيلكية في حالة عصيان تام ، بحيث كان من الخطر عليهم مغادرة وهران . وكان هذا مناقضا لما ادعاه الفرنسيون . ولهذا اعتبر التونسيون انهم خدعوا ، وطلب القائد التونسي خير الدين آغا من كلوزل في ١٦ شباط ١٨٣١ الغاء الاتفاق واعادة التونسيين الى بلادهم بسرعة . وقد حمل كلوزل مسؤولية هذا الموقف للباي التونسي احمد الذي تأخر عن الالتحاق بمقر عمله . وفشلت العملية بسبب رفض وزارة الخارجية الفرنسية الاتفاقات التي عقدها كلوزل ، واخبر الوزير الجنرال برتيزين الذي خلف كلوزل ان المعاهدات السابقة لاغية وان عليه اعادة التونسيين الى بلادهم واحلال الفرنسيين محلهم في احتلال وهران . وفي ٢٢ من آب ١٨٣١ غادر التونسيون وهران .

التدخل المغربي :

كانت تلمسان منذ زمن طويل محط انظار حكومات المغرب المتعاقبة .

وكانت البورجوازية التجارية في المدينة وتسمى (الحضر) قوية ولها صلات تجارية وثيقة مع فاس ، ولهذا كانت على الدوام تتطلع نحو المغرب .

وازاء التطورات الجديدة الناجمة عن الغزو الفرنسي طالب (حضر) تلمسان من مولاي عبد الرحمن سلطان المغرب قبول تبعيتهم له ، وقبل السلطان وعين ابن عمه على بن سليمان خليفة عليهم يساعده ادريس عامل وجدة ، كوصي عليه بسبب صغر سنه ، وزوده بالجند والمال اللازمين . واعتمد السلطان على سيدي الحاج العربي شريف وزان ، الذي كان له نفوذ كبير في المنطقة كي يدعو القبائل هناك الى الدخول في طاعته .

رحب حضر تلمسان والقبائل المجاورة بالخليفة الجديد ، ولكن القولوغلي اعتصموا بالمشور ورفضوا التبعية المغربية، ووقفت الدواير والزمالة الموقف نفسه .

سارع كلوزل لمعالجة هذا الموقف ، فارسل احد ضباطه يحمل انذارا الى سلطان المغرب يطالبه باخلاء تلمسان .

كان تصرف كلوزل شخصيا دون علم حكومته التي استنكرت هذا التصرف الذي انتهى على اي حال دون نتيجة .

ولم يخف السلطان على ممثل فرنسة في طنجة رغبته في الاحتفاظ بتلمسان واكد له حقوقه فيها وواجباته ازاء المسلمين . واذا كان السلطان قد اضطر الى استدعاء خليفته مولاي علي فليس بسبب تخليه عن مشروعه ، بل كان لفشل هذا الخليفة في معالجة موضوع القولوغلي والدواير والزمالة .
وتشجع السلطان في متابعة مخططاته في تلمسان باتفاقه مع آغا الدواير وآغا

الزمالة اللذين اوقفهما الخليفة المعزول وارسلهما الى فاس ، كما شجعته الانباء التي وصلته عن اضطرار الفرنسيين الى الانسحاب من مدية وتصميم الجزائريين على المقاومة . عين السلطان خليفة جديدا هو الشريف محمد بلحمري الذي دخل تلمسان في ١٦ من آب ١٨٣١ مستصحبا اعوان الدواير والزمالة . وتقوى موقف السلطات المغربية بتأييد القبائل المجاورة لوهران ، التي نقمت على سياسة قائد وهران الجديد الجنرال بواييه الذي اعلن « ... ان السيف هو القانون الذي ينبغي فرضه على الاهالي ... » واشتعت عن تموين المدينة وفرضت على وهران حصارا شديدا حتى اضطرت الحامية الى جلب ما تحتاجه من مؤن من فرنسة. تشجع الشريف بلحمري بسبب هذا كله فحاول الاستيلاء على وهران ولكنه فشل بعد حصار دام اسبوعين من ٨ - ٢٢ من تشرين الاول ١٨٣١ . وسعت فرنسة حينئذ الى التدخل لدى السلطان والضغط عليه ، ونجحت مساعي مبعوثها الكونت شارل دو مورناي في اقناع السلطان باستدعاء خليفته من تلمسان والامتناع عن التدخل في شؤون الجزائر .

ظهور عبد القادر :

ترك انسحاب المغاربة الوضع في بيلك وهران خطيرا . فقد انتشرت الفوضى وازداد شعور السكان بالخطر والنقمة على تصرفات الجنرال بوايه التعسفية ، وظهرت الحاجة الى شخصية قادرة على توحيد السكان وقيادتهم للقضاء على الفوضى ومقاومة الاحتلال . ويقول صاحب تحفة الزائر ان اهل الحل والعقد في غربي الجزائر من الاشراف والعلماء والاعيان كانوا قد تداعوا قبل التدخل المغربي للنظر في من اجتمعت فيه شروط الامارة ليبايعوه، فعرضوا الامارة على مقدم الطريقة القادرية محي الدين « ... وكان اعصف القوم ريحا وابعدهم صيتا وانفذهم كلمة ... » ، ولكن محي الدين اعتذر بسبب كبر سنه. وبعد انسحاب المغاربة عاد اهل المغرب فالحوا على محي الدين

ليقبل الامارة والجهاد فأبى الامارة وقبل الجهاد[1] . شن محي الدين بين ايار وتشرين الثاني عدة هجمات على وهران برز فيها ابنه الشاب عبدالقادر، ولكن محي الدين فشل في احتلال وهران كما فشل في وضع حد للخصومات القبلية ، وشعر بعجزه بسبب شيخوخته فاحب ان يتخلى عن هذه المهمة لابنه.

وفي ٢٤ من تشرين الثاني ١٨٣٢ اجتمع العلماء والاعيـان ورؤساء القبائل في سهل اغريس وبايعوا عبد القادر ، وكان عمره ٢٤ عاما ، اميرا وزعيماً للجهاد . وجاء في صك البيعة ان اختيار عبد القادر « ... لكونه ذا حزم وعزم وشجاعة وعقل سليم وذات سليمة صالحة لتنفيذ الأحكام فاجتمع اهل الحل والعقد وبايعوه من غير طلب للامارة ولا متابعة للنفس الامارة ، بل بايعوه رغما عنه ... » [2] .

ولم تكن البيعة فقط لجهاد الفرنسيين بل لانقاذ البلاد من الفوضى والفتن وجمع الكلمة . ولقب عبد القادر ناصر الدين .

وفي ٢٥ من تشرين الثاني ١٨٣٢ دخل عبد القادر (معسكراً) التي اختارها مقرا له ، وامر مجلس العلماء ان يكاتب رؤساء القبائل ليحضروا للبيعة . وجاء في رسالة العلماء الى رؤساء القبائل «... اما بعد فاعلموا يا معشر العرب والبربر ان الامارة الاسلامية والقيام بشعائر الملةالمحمدية قد آل امرها الآن الى ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين وجرت مبايعته على ذلك من العلماء والاشراف والاعيان ومعسكر، وصار اميرا علينا ومتكفلا باقامة الحدود الشرعية وهو لايقتفي آثار غيره ولا يحذو حـذوهم ولا يخصص لذاتـه مصاريف زائدة عن الحاجة كما كان الغير يفعله ، ولا يكلف الرعية شيئا لم تامر به الشريعة المطهرة ولا يصرف شيئا الا بوجه الحق ، وقد نشر راية الجهاد وشمر عن ساعد الجد لنفع العباد وعمران البلاد ... » [3] . وجاء

(1) محمد بن عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر ص١٤٧ .

(2) المصدر السابق _ ص ١٥٨ .

(3) محمد بن عبد القادر : المصدر السابق ص ١٦١ .

في رسالة الامير الى القبائل انه قبل البيعة « .. مؤملا ان يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورفع النزاع والخصام بينهم ... وحماية البلاد من العدو ... فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعا ... » . وهكذا كان عبد القادر يؤكد على الدوام على ارتباط الاتحاد بالجهاد .

كانت مهمة عبد القادر صعبة فقد كان عليه ان يعمل في آن واحد على تنظيم حكومته الجديدة واخضاع القبائل التي تعبث بالامن ، او التي تتعاون مع الفرنسيين ، والتخلص من منافسيه . وقد شرع على الفور في اعادة النظر في القوانين والعوايد الجائرة السابقة ، وانشأ مجلسا للشورى من العلماء والرؤساء ، وهدم « ... ما كانت الحكومة الجزائرية اسسته من المغارم والضرائب والعوايد ... » . كما عمل على اخضاع منافسيه ، فتغلب على ابن نونه زعيم الحضر في تلمسان الذي كان قد تلقى من سلطان المغرب لقب خليفة . وعفا الامير عن خصمه واقره على زعامته واصلح بينه وبين القولوغلي . ثم اخضع عددا من القبائل التي كانت تعبث بالامن . وازداد انصاره وجاءته الوفود تعلن بيعتها وتأييدها .

معاهدة ديميشيل ١٨٣٤ :

لم يهمل الامير امر وهران بل شدد الحصار عليها ، وعاقب القبائل التي كانت تتعامل مع الفرنسيين .

وفي ١٨٣٣ حل الجنرال ديميشيل في قيادة وهران محل الجنرال بوايه ونجح في الاستيلاء على مستغانم وارزيو . الا ان هذا النجاح لم يغير الموقف فقد فرض الامير حصارا شديدا على هذه الموانى ولم يعد باستطاعة ديميشيل التموين الا عن طريق البحر . ولما لم يكن بامكان ديميشيل التخلص من هذا الوضع الصعب عن طريق القوة فقد لجأ الى التفاهم مع الامير .

وكان الامير من جهته بحاجة الى الصلح ليتمكن من توطيد مركزه ، واعداد القوة اللازمة لتحرير الموانى المحتلة . ولم يكن بامكان الامير ان يكون

البادىء بطلب الصلح مع شدة حاجته اليه لان هذا يهدد مركزه ونفوذه ، ولهذا رحب بالمبادرة التي جاءت من ديميشيل « ... ان ديننا يمنعنا عن طلب الصلح ابتداء ويسمح لنا بقبوله اذا عرض علينا ... » • بدأ ديميشيل الاتصالات مع الامير بموضوع اسرى فرنسيين وقعوا في قبضة الامير • وقد اعرب ديميشيل خلال ذلك عن امله في الحصول على معاهدة موافقة « ... يتوقف عليها سفك دماء امتين اقتضت الارادة الالهية الا تكونا تحت سلطة واحدة ... » [1] كان ديميشيل يفاوض الامير بمبادرة شخصية دون ان يتلقى تعليمات من باريس ، ودون اخطار حاكم الجزائر • توصل الطرفان الى اتفاق في شباط ١٨٣٤ سمي فيما بعد معاهدة ديميشيل • وقد سبق الاتفاق النهائي موافقة كل من الطرفين على شروط قدمها الطرف الآخر ثم اتفقا على اختيار صك هدنة واحد تحرر فيه مطالب الامير باللغة العربية ومطالب ديميشيل باللغة الفرنسية • كان الاتفاق عاما حول وقف الخصومة واحترام الدين الاسلامي وتحرير الاسرى الفرنسيين وحرية التجارة والاعتراف بسلطة الامير خارج وهران ومستغانم وارزيو ، وارجاع الفارين من رعايا الطرفين • ونصت مطالب الامير التي وافق عليها ديميشيل ان يكون للعرب الحرية ان يبيعوا ويشتروا كل ما يتعلق بالحرب ، وان يكون متجر مرسى ارزيو تحت ولاية الامير كما كان قبلا بحيث لا يشحن الا منه ، اما وهران ومستغانم فلا يرسل لهما الا البضائع اللازمة لاهلهما •

عندما ابلغ ديميشيل هذه المعاهدة الى وزارة الحرب لم تبد الوزارة ارتياحا لشروطها ، واعتبرتها مجرد وقف للخصام ينبغي ان يتلوه اتفاقات اكثر تحديدا • والواقع ان الطرفين اعتبرا هذه المعاهدة هدنة مؤقتة ريثما يتضح الموقف ، فالفرنسيون ينتظرون ما ستسفر عنه تقارير لجان التحقيق ، والموقف الذي ستتخذه الحكومة حول مصير الجزائر • والامير ايضا اعتبرها

(1) محمد بن عبد القادر : المصدر السابق ص ١٨١ •

هدنة موقتة لمتابعة تنظيم حكومته واخضاع منافسيه ، وقد استغل عدم تعرض المعاهدة لحدود عمله خارج المناطق التي يحتلها الفرنسيون فسعى الى مد سيطرته الى خارج بيلكية وهران ، ولاسيما بيلكية تيطري •

لم تعلن الحكومة الفرنسية عن موقفها حتى ٢٢ من تموز حيث قررت الاحتفاظ بالجزائر • وحينئذ سعى حاكم الجزائر الى اعادة النظر في المعاهدة، تعديلها وتحديد شروطها بصورة ادق وبشكل يتناسب مع مصالح فرنسة •

كانت التغيرات التي اجرتها الحكومة الفرنسية بعد قرارات ٢٢ من تموز ١٨٣٤ في حكومة الجزائر وبيلكية وهران (تعيين دروى ديرلون حاكما عاما للجزائر وتعيين تريزل حاكما لوهران بدلا من ديميشيل) تشير الى انها لن تتقيد بالمعاهدة السابقة • شرع حاكم الجزائر باجراء محادثات مع الامير حول تدخل الامير في بيلكية تيطرى ودخوله مدية ، وسعى الحاكم الفرنسي لاقناع الامير باعادة النظر في المعاهدة بحيث يقتصر عمل الامير على المناطق الداخلية من بيلكية وهران • وحاول الامير من جانبه اقناع الحاكم الفرنسي بالاعتراف له بجميع المناطق التي خضعت لسلطته ، وبحرية العمل خارج مناطق الاحتلال الفرنسي • واشتد الخلاف بسبب قبول الجنرال تريزل ، بالرغم من معارضة حاكم الجزائر ، انضمام الدواير والزمالة الى الفرنسيين ومنحهم الحماية ، الامر الذي اعتبره الامير خرقا للمعاهدة • ادى تمسك تريزل بموقفه الى تجدد القتال الذي كان يتحرق شوقا اليه ، يدفعه الى ذلك التجار الفرنسيون الذين آذاهم حصر التجارة في ميناء ارزيو ، واشراف الامير عليها •

خرج تريزل من وهران على رأس قوة كبيرة ولكنه اصيب بهزيمة منكرة في معركة المقطع تركت صدى كبيرا في فرنسة •

معاهدة تافنا ١٨٣٧ :

بعد معركة المقطع اعيد كلوزل مرة ثانية حاكما عاما للجزائر • وركز

كلوزل جهوده ضد الامير ليمحو آثار معركة المقطع التي قوت مركز الامير ووسعت دائرة نفوذه ، فوجه قوة كبيرة تتألف من ١١ الف جندي نحو عاصمة الامير معسكر كان هدفها اسر الامير او اجباره على الاستسلام. تجنب الامير الدخول في صدام مكشوف مع كلوزل واخلى معسكراً فدخلها كلوزل في كانون الاول ١٨٣٥ ، وغادرها بعد ان تركها طعمة للنار . لم يكن لهذه الحملة اي اثر لان الامير ظل في مأمن محتفظا بقواته سليمة ، وما لبث ان عاد الى عاصمته بعد ان غادرها كلوزل . ولهذا وصفت هذه الحملة انها مجرد « ... ذهاب ومجيء دون مجد .. » . وفي كانون الثاني ١٨٣٦ ارسل كلوزل ، استجابة لطلب القولوغلي ، قوة الى تلمسان دخلتها في ١٣ من كانون الثاني ١٨٣٦ . واكتفى الامير بمراقبة تحركات خصمه دون الدخول في معركة معه . ارتكب كلوزل في تلمسان حماقات كان لها نتائج خطيرة : فقد فرض غرامة حرب ثقيلة على جميع السكان بما فيهم القولوغلي، وكان هذا بناء على اقتراح اليهودي يعقوب لاسري ، والمملوك التونسي اليهودي الاصل يوسف اللذين كلفهما كلوزل بالجباية . واشتد لاسري ويوسف في تحصيل الغرامات واستخدما اقذر الاساليب واكثرها وحشية مما اثار ضجة كبيرة في البرلمان والصحف الفرنسية ، دعت الحكومة الى اجراء تحقيق حمل كلوزل مسؤولية ما حدث . واضطرت الحكومة الى اقرار تعويض للسكان. وادت هذه المعاملة الوحشية الى ازدياد كره السكان للفرنسيين ومن دعاهم الى التدخل ، وازدادت شعبية الامير بدلا من ان تضعف . وظلت الحامية التي تركها كلوزل في تلمسان محصورة محرومة من المؤن حتى انسحابها بعد معاهدة تافنا .

ادت سياسة كلوزل الحمقاء في تلمسان وفشله المخزي في احتلال قسنطينة الى سحبه وتعيين الجنرال دامريمون حاكما عاما للجزائر .

انتهى تدخل كلوزل في بيلكية وهران بالفشل الذريع فقد استعاد الامير عاصمته ، وعاقب القبائل التي خرجت عن طاعته ، وانزل بالفرنسيين

الذين اقاموا معسكرا في رشقون هزيمة ساحقة عند مصب وادي تافنا في نيسان ١٨٣٦ شبهت بهزيمة المقطع ، وقطع الامير الاتصال بين رشقون ووهران ، وحاصر الحامية الفرنسية في تلمسان .

وللتغلب على هذه الصعوبات ارسلت الحكومة الجنرال بيجو الى وهران لمعالجة الموقف .

احرز بيجو نجاحا مؤقتا ، فقد هزم الامير في معركة على نهر السكاك في تموز ١٨٣٦ ، وفك الحصار عن تافنا ، وارسل المؤن الى حامية تلمسان ثم عاد الى فرنسة .

وفي ١٨٣٧ كان الشاغل الرئيسي للسياسة الفرنسية هو العمل على محو آثار هزيمة قسنطينة ، فشرعت في اعداد حملة قوية للقضاء على الباي احمد. وكي لا تتعثر الجهود الفرنسية قررت الحكومة السعي لتحييد الامير ، فعينت بيجو حاكما لوهران واوكلت اليه مهمة التفاوض مع عبد القادر ، واعطته حرية واسعة لاختيار افضل الوسائل للوصول الى اتفاق مع الامير بمعزل عن حاكم الجزائر العام .

كان بيجو آنذاك من المناهضين لاحتلال الجزائر وكان في هذه الفترة اكثر اهتماما بالنفوذ السياسي منه بالمجد العسكري ، ويفضل عضوية البرلمان على القيادة العسكرية . فقدر انه اذا حصل عن طريق المفاوضات على اتفاق مع الامير ايا كان ثمنه فانه سيكسب شعبية لدى الناخبين الفرنسيين. ولهذا وبالرغم من انه كان يعتقد انه بامكانه ، بالقوة الكبيرة التي وضعت تحت تصرفه ولأن الامير لم يوطد سلطته بعد ، ان يفرض بالقوة صلحا ملائما ، فانه فضل ان يحصل على الصلح سلما مقابل تنازلات واسعة اثارت قلق الامير نفسه .

دارت المفاوضات بواسطة اليهودي بن دران الذي اتهمه بيجو انه كان يلعب لعبة مزدوجة ليحصل على امتيازات من الطرفين كاذبا على كليهما .

وقام الامير بمناورة بارعة ليحصل على شروط افضل ، فنقل المفاوضات المباشرة مع بيجو الى الحاكم العام دامريمون ، واضطر بيجو الى طلب تدخل الحكومة لابعاد الحاكم العام عن هذه المفاوضات • وفي ٢٠ من ايار ١٨٣٧ تم توقيع صلح تافنا •

حصل الامير بموجب هذا الصلح على مكاسب ارضية واسعة ، فقد اعترف لـه بكل بيلكية الغـرب ، عدا وهـران وارزيو ومستغانم ومازغران واراضيها ، وحصل الامير على رشقون وتلمسان وكانتا من قبل بيد الفرنسيين • وخلافا لتعليمات الحكومة منح بيجو للامير بيلكية تيطرى وقسما كبيرا من بيلكية الجزائر خارج منطقة الاحتلال الفرنسية ، بحيث لم يبق للفرنسيين سوى الساحل وبليدة والمتيجة • وحُددت المنطقة الفرنسية في الشرق بوادي خضرة على بعد ٤٠ كم جنوب شرق الجزائر • وكان هناك اختلاف بين النصين العربي والفرنسي حول وادي خضرة كان مجالا للخلاف الذي انتهى الى تجدد القتال •

ونصت الاتفاقية على حرية التجارة بين المنطقتين ، وعلى حق الامير ان يشتري من فرنسة البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الاسلحة ، كما سوت الاتفاقية وضع القولوغلي والدواير والزمالة • ووضـع الرعايا من الطرفين المقيمين في اراضي الطرف الآخر •

بموجب هذا الاتفاق اصبح الامير سيد القسم الاعظم من نيابة الجزائر • ولكن الاتفاق استقبل ببرود لدى بعض الاوساط الحاكمة في فرنسة والجزائر ، فوصفه الحاكم العام دامريمون انه غير مفيد ولا مشرف ، وانه اعطى للامير ما لم يستطع اي نصر اعطاءه • وقد تبين فيما بعد ان بيجو قد قدم في اتفاق سري تنازلات اوسـع من ذلك : كتقـديم ٣٠٠٠ بندقية ، ومنـع الدواير والزمالة من تجاوز حدود معينة ، ونفي خصوم الامير ، وطلب مقابل ذلك مبلغ ١٣٦ الف فرنك • وقد اعترف بيجو امام محكمة عسكرية انه طلب

هذ المبلغ ليوزع قسما منه على ضباط اركانه الذين ادوا له بعض الخدمات ، وليدفع للمهودي بن دران جزاء خدماته ، وليدفع لاحد جنرالاته مبلغ عشرة آلاف فرنك ، واقر انه اخطأ وانه لايليق بضابط كبير ان يفعل ذلك •

حكومة الامير :

كان الامير يعتبر تنظيم الجبهة الداخلية وتوطيدها الاسس الاول الذي ترتكز عليه حرب التحرير • واذا كان قد قبل التفاوض والتهادن مع العدو فقد كان ذلك بغرض كسب الوقت لاستكمال اسباب هذا التنظيم ، واذا كانت السنوات السابقة قد شهدت وضع الاسس الاولى فان الفترة التي تلت معاهدة تافنا ١٨٣٧ - ١٨٣٩ هي الفترة الذهبية في التنظيم والتوسع والاعداد •

سعى الامير الى تجنب الاخطاء التي ارتكبها التنظيم العثماني والتي جعلت الحكومة التركية مكروهة ومعزولة عن السكان ، وعمل في بناء دولته على ان تكون قائمة على اخلاص الحاكم وثقة المحكومين • ويقول صاحب تحفة الزائر انه بنى امارته على قوتين « ••• قوة رغبة وقوة رهبة • الا ان القوة الاولى كانت هي المعول عليها ولذا كان الاكثر من سكان البلاد يطيعونه بخلوص ووداد ••• »[1] •

كانت حكومة الامير تختلف اختلافا بينا عن الحكومـة الجزائرية التركية السابقة • فهو لم يُنصّب حاكما بفرمان من سلطة او سلطان خارج الجزائر ، بل تلقى السلطة بموجب بيعة رضا من سكان ملوا الفوضى وخافوا من خطر الاحتلال الاجنبي • وكانت هذه البيعة بمثابة وضع الثقة التامة

---

(١) محمد عبد القادر : المصدر السابق ص ٢٢٠ وقد لمس الضابط الفرنسي الاسير ماسو هذه الحقيقة واشار اليها في تقريره السابق الذكر انظر :
Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine 1967 P. 136
ويقول ماسو « ان عبد القادر قائد شعبي والقبائل تحترم هذا القائد اكثر مما تخافه لاشك في انه استطاع ان يفرض سلطته بالقوة ولكنه نجح في تجسيد آمال الشعب » •

بشخص الامير وتفويضه تفويضاً عاماً بالتصرف لانقاذ البلاد من الفوضى والاحتلال • وبالرغم من ان هذا التفويض قد قيد ، بتأثير العلماء ، بحدود الشريعة •

ويمكن القول ان عبد القادر قد حصل على سلطات استثنائيـة اشبه بالسلطات التي كانت تمنح للقناصل الرومان في الحالات التي يتهدد فيهـا المجتمع الروماني بالخطر •

وبالرغم من ان حكومة الامير كانت ترتكز الى حد بعيد على شخص الامير ، وان القرارات التي يتطلبها الموقف الداخلي والخارجي كانت تصدر عنه ، فانه كان حريصا على الدوام على ابعاد الطابع الفردي لسلطته ، باشراك ممثلين عن العلماء والاشراف ورؤساء القبائل ، يقل عددهم او يكثر حسب اهمية المسائل او القرارات •

وكان الامير يدرك مدى عمق الروح الاستقلالية لدى القبائل وزعماء الطرق الصوفية ، ومدى تأثير ذلك على عملية التوحيـد مما يجعلها اكثـر صعوبة • كما كان يدرك مدى كره هؤلاء جميعا للغزاة • وبربطه بين التوحيد والمقاومة كان يأمل ان يساعده كره الاجنبي على تذليـل صعوبات التوحيد • ولكن الامر لم يكن سهلا • ذلك ان عبد القادر كان يدرك ان ليس بامكانه ان يعمل عملا مثمرا على الجبهتين الداخلية والخارجية ، ولهذا كان لابد من تحييد احداهما • ولما كان يعتقد ان العمل في الجبهة الداخلية هو الاساس ، كان لابد من تحييد الجبهة الاخرى الخارجية ، ولهذا قبل مفاوضة العدو الغازي ومهادنته • وبالرغم من انه نجح في الحصول على موافقة مجلسه الاستشاري على هذه السياسة فان سياسة المهادنة لم تبد مقبولة من الجميع ، فقد تذرعت القوى الانفصالية بهذه المهادنـة لترفض سـلطة الامير • فبحجة رفض مهادنة العدو رفض التيجانية ، الذين كانوا يؤلفـون قوة هامة ، الخضوع لسلطة الامير ، وبالحجة نفسها رفضت عدة قبائل ،

بتحريض من خصوم الامير ومنافسيه ، دفع ضريبة الجهاد (المعونة) كستار للانفصال لان « ... البيعة انما كانت على الجهاد ، وحمل أثقال الضريبة انما كان لنفقاته ، وحيث ان الجهاد طوي بساطه والامير ركن الى مسالمة العدو فلنا ان نرجع عن بيعتنا ونمتنع عن دفع اموالنا ... »[1] •

ولهذا كان لابد للامير من استخدام القوة ، ولكنه كان يدرك ان القوة قد تخضع الناس فتكون طاعتهم طاعة خوف ، وهي طاعة موقتة لا تصلح أساساً لبناء دولة وأمة • ولهذا حاول ان يوضح بالقول والعمل انه لا يعمل لنفسه بل للصالح العام • كان الامير يؤكد « ... ان الغاية الوحيدة في قبولي تقلد هذا المنصب ان تكونوا آمنين على انفسكم واعراضكم واموالكم مطمئنين على بلادكم ، متمتعين بوظائفكم الدينية • ولا يمكن ان ابلغ مرادي من ذلك الا بمساعدتكم مالا ورجالا • وبهذا تعلمون ان المنافع الحاصلة منكم عائدة عليكم • ولا اظن انه يخطر في بال احدكم ان الاموال التي تؤخذ منكم ابتغيها لنفقاتي الشخصية لعلمكم وتحققكم اني غني مليء بما خلفه والدي... »

وكان الشعراء والوعاظ ورجال القوافل والمنشدون في الاسواق يؤكدون على هذه المعاني • جاء في بعض الاناشيد الشعبية في بلاد القبائل ان الامير لايطمح ابدا الى العرش والعظمة ، وان رغبتـه ان يخضع الناس لاوامره كاخـوة ليدخل معهم الجزائر ويطرد الكفار •

وجابه عبد القادر نفوذ الطرق الصوفية ولا سيما الدرقاوية والتيجانية بسلاحها نفسه • فاعتمد على نفوذه الديني لا كقادري وانما كأمير للمؤمنين حامل راية الجهاد بموجب بيعة عامة ، واعتمد على العلماء الذين جمعهم حوله وكان يشركهم على الدوام في دعم اعماله وقراراته بفتاوى شرعيـة • ولم يكتف بذلك بل نجح في ان يكسب الى جانبه رجال الـدين في المغرب عن طريق استشارتهم والحصول على فتاوى منهم تقر أعماله ، كما حصل على

---

(١) محمد بن عبد القادر : المصدر السابق ص ١٨٨ •

تأييد الرأي العام المغربي وسلطان المغرب فحرم الدرقاوية والتيجانية من قوة دعم ادبية هامة ، ولم يقتصر تأييد سلطان المغرب على النواحي المعنوية بل امده بالسلاح اللازم للتغلب على حصون عاصمة التيجانية عين ماضي .

وعندما لاينفع الاقناع كان الامير يلجأ الى الحزم والقوة فاذا انتصر انقلب الحزم حلما والقوة عفوا .

وصفه احد خصومه الالداء مصطفى بن اسماعيل رئيس الدواير انه « ... لا يتأثر بما يرضي ولا بما يغضب ... »[1] . وكان يعفو عن زعماء القبائل العاصية ورؤساء الطرق المنافسين عندما يتغلب عليهم ، لانهم متأثرون بدوافع استقلالية اقليمية كان يفهمها . ولكنه لم يكن يرحم الذين يتعاونون مع العدو .

بنى عبد القادر دولته على المساواة وعدم التمييز . يقول الامير « ... لا تسألوا ابدا عن اصل الرجل بل اسألوا عن حياته وأعماله وشجاعته ومؤهلاته وستعرفون من هو . اذا كانت مياه النهر طاهرة مقبولة عذبة فلأنها جاءت من نبع صاف ... »[2] .

كان الحكم التركي يقوم على امتيازات الاتراك والقولوغلي وقبائل المخزن وعدد من الزعماء الاقطاعيين . وكان فرض الضرائب وجبايتها يقوم على اساس نهب السكان لاشباع جشع هذه الفئات الممتازة . وكان عبد القادر قد تعهد عندما تلقى البيعة بالقضاء على كل المفاسد القديمة . وقد عمد الى هدم النظام الاداري القديم القائم على الامتيازات ، والغى الامتيازات التي تصاحب السلطان ، وامتيازات القبائل والزعماء ، والالقاب السابقة ، وعمل على تقليص الاقطاع الى اقصى حد ممكن . واقام بدل ذلك نظاما اداريا وقضائيا وماليا يجعل الجميع متساوين امام القانون ، وفي الضريبة والخدمة العسكرية .

(1) محمد بن عبد القادر : المصدر السابق ص ٢١٦ .

(2) Revue Historique 1965 P. 354

الف الامير برئاسته حكومة تتألف من عدة وزارات . وقسم دولته الى ثماني خلافات قسمت بدورها الى آغويات ثم قيادات فشياخات . وكان الجميع بمثابة موظفين يتقاضون مرتبات محددة من الدولة ويخضعون لرقابتها ، ولا سيما في الشؤون المالية . وكان عبد القادر يختار رجال الادارة الكبار بصورة عامة من المتدينين الذين يثق باخلاصهم وكفاءتهم وشجاعتهم ونزاهتهم .

واصلح الامير القضاء واوجد مجالس استئناف ، وكان حريصا على تطبيق العدالة بكل دقة ودون تحيز ، وكان يعلن في الاسواق ان من له شكوى من الآغا او القائد او القاضي فليرفع ظلامته الى الامير لينصفه .

واصلح نظام الضرائب ، فوحد الضرائب وعممها على الجميع بدون تمييز او استثناء ، واكتفى بجباية الضرائب الشرعية : الزكاة على المواشي في الربيع والعشور على المواسم في الصيف . واوجد ضريبة استثنائية تتطلبها ظروف الجهاد سميت (المعونة) . وكانت الضرائب تجبى عينا او نقدا . وحاصل الضرائب العينية يجمع في مخازن عامة ومستودعات مخبأة ، وعلى كل قبيلة ان يكون لها مستودعاتها الخاصة . وكان الامير يهدف من وراء ذلك الى غرضين :

الاول عسكري : وهو تأمين تموين الجيش كي لا يعيش على استغلال السكان كما في العهد البائد .

الثاني : كان مساعدة السكان في المواسم السيئة وتأمين البذار ومساعدة الفقراء ، وكان ذلك كله من اجل اعداد البلاد على احسن وجه للقتال .

واوجد الامير نظام اقتصاد موجه ، فاشرفت الدولة على التجارة والصناعة . وكان الهدف من ذلك ايضاً جعل الاقتصاد في خدمة الاغراض الحربية بصورة خاصة .

الجيش :

كان الامير شديد الاهتمام بالامور العسكرية ، وقد ادرك ضرورة خلق جيش قوي يدعم اهدافه الداخلية والخارجية . فاتجه الى خلق جيش نظامي حديث عني بتدريبه على احدث الفنون العسكرية وتزويده باحدث الاسلحة . وقد عقد مجلسا عاما من رجال الدولة واعيانها واخذ موافقتهم على هذا الاجراء ، ثم عمم بلاغا على الاهالي جاء فيه « ... ليبلغ الشاهد الغائب انه صدر امر مولانا ناصر الدين بتجنيد الاجناد وتنظيم العساكر من كافة البلاد . فمن اراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام فليسارع الى دار الامارة (معسكر) ليتقيد اسمه في الدفاتر الاميرية ... » .

وقسم الامير هذا الجيش الى خيالة ومشاة ومدفعية ، وحدد الرتب والمرتبات واللباس ، واوجد النياشين لمنحها لمن يظهر شجاعة او يبدي مزية في وقت الحرب . ومنح مرتبات لاهل الجندي الشهيد وللجنود الذين يصابون باضرار تمنعهم عن العمل ، ومنح الجندي الذي يصاب بمرض يمنعه من الخدمة نصف مرتبه طول حياته .

واختار الامير رؤساء الجند من « ذوي النجدة والشجاعة والاقدام والقوة في الدين واليقين والصبر والثبات والعظمة ... » واوجد المشافي العسكرية اللازمة . وقد قدر عدد افراد الجيش سنة ١٨٤٠ بحوالي عشرة آلاف جندي موزعين على الخلافات الثمان .

اما الجيش غير النظامي فكان يتألف من جنود القبائل الذين يجمعهم الخلفاء لاغراض الدفاع المحلي ، وللاشتراك في العمليات التي يقودها الامير الى جانب الجيش النظامي . ولم يكن عدد هذا الجيش ثابتا ، وقد قدر بثلاثة وخمسين الفاً سنة ١٨٣٩ . وبعشرين الفاً سنة ١٨٤٠ .

وكان الامير يحصل على السلاح من جهات متعددة . كان يحصل عليه

احيانا من الفرنسيين بموجب المعاهدات ، كما كان يحصل عليه من انكلترة بواسطة جبل طارق ، ومن المغرب . واقام في الجزائر مصانع للاسلحة والذخيرة .

ونظم الامير البلاد حسب متطلبات الدفاع : كانت القبائل القريبة من الساحل بمثابة المخافر الامامية ، ومهمتها مراقبة الفرنسيين وحصرهم في الساحل وقطع طرق تموينهم واتصالهم . وكانت المدن القديمة ، كتلمسان ومعسكر ومليانة ، تكون خط الدفاع الاول . واقام الامير خط دفاع ثان او مراكز انطواء خلفية بين السواد (التل) والصحراء ، كانت عبارة عن قلاع ومستودعات : سعيدة وتاغدمت وطازة وبوغار وسبدو . وكانت تاغدمت اهم هذه المراكز وقد اخذت مظهر عاصمة حقيقية، وكانت تتمتع بموقع استراتيجي واقتصادي لكونها وسطاً بين السواد والصحراء ، وانتقل الامير اليها باهله واهل دائرته ، وانشأ فيها دارا للسلاح واخرى لسك العملة ، ومستودعا ضخما للبارود والحديد والرصاص والنحاس والفضة .

ولكن الوقت لم يتوفر للامير لاستكمال تدريب هذا الجيش وتقويته عددا وعدة . ولهذا تجنب خوض معارك واسعة مكشوفة واقتصر على المعارك الصغيرة ، ومعارك المفاجآت والكمائن ، متبعا اسلوب الكر والفر . وصف وزير خارجية الامير للجنرال ديميشيل هذا الاسلوب في القتال عندما هدد هذا باستخدام قوة كبيرة ضد الامير « ... اننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب ولكن محاربة هجوم واقدام - يقصد محاربة كر وفر كما وردت على لسان الامير - ولو فعلت ما قلت وخرجتم بهذه القوة كنا نتقهقر امامكم متوغلين في الصحراء باهلنا واثقالنا . وفي حال هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لا ترجعوا عنا ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم وتلين قوتكم ، ومتى سنحت الفرصة وتورطتم في فيافي الصحراء قلبنا الكرة عليكم واحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية ، وتكون ذخائركم نفدت وقوتكم ذهبت وعساكركم

لحقها التعب وأضر بها السغب فحينئذ ماذا كنت تصنع ايها الجنرال ...»[1].
وكتب الجنرال سانت ارنو يصف عمليات هذا الجيش « ... اذا طوردوا يتفرقون كالطيور ، واذا تراجعنا يطاردوننا كالذئاب ... » .

تجدد القتال سنة ١٨٣٩ :

استطاع الامير بين ١٨٣٧ – ١٨٣٩ ان يتغلب على عصيان القبائل الثائرة والطرق الصوفية وان يبسط سلطته على ثلثي الجزائر . وظل الفرنسيون محصورين في وهران والجزائر وفي جزء من بيلكية قسنطينة .

وكانت سيطرة الفرنسيين على قسنطينة ، وتوسع الامير الكبير الذي اخذ يمتد نحو هذه البيلكية ، اساس التصدع الذي اصاب المعاهدة ، وأدى الى الحرب .

فبعد التغلب على الباي احمد صار بامكان الفرنسيين الالتفات نحو عبد القادر . وكان الاختلاف بين النصين العربي والفرنسي في معاهدة تافنا يفسح المجال [ل]خرقها . كانت الحكومة الفرنسية قد قبلت المعاهدة كحل مؤقت لتحييد [ا]لامير ريثما تهي مشكلة قسنطينة . وبعد ان تحقق لها ذلك بدأت تسعى [للت]نصل من هذه المعاهدة عن طريق تفسيرات باطلة لبعض نصوصها ، ولا سيما [الف]قرة التي تتعلق بمنع توسع الفرنسيين وراء وادي خضرة . وكان هذا [التو]سع ضروريا للفرنسيين لتامين الاتصال بين الجزائر وقسنطينة ، ولابعاد [الام]ير عن المناطق التي كانوا يعتبرونها تابعة لبيلكية قسنطينة . وكانت معاهدة [تافنا] تنص على ان المنطقة الفرنسية تمتد في الشرق حتى مجرى وادي بودوار [ال]مسمى وادي خضرة . وكان النص الفرنسي يتضمن « ... حتى [وادي] خضرة وما وراءه ... » في حين تضمن النص العربي « ... وفي وطن الجزائر والساحل والوطن متاع بتيجة من جهة الشرق لحد وادي

---

(1) [...] بن عبد القادر : المصدر السابق ص ١٨٦ .

خضرة الى قدام ... » وكان النص العربي اكثر دقة ، فليس من الطبيعي في تحديد الحدود ان يعين نص المعاهدة حدودا الى مسافة ما ، ثم يضيف اليها تعبيرا عاما مبهما : انه يمكن ان تمتد هذه الحدود الى « وراء ذلك » .

وعلى هذا الاساس بنى الامير حجته في اقناع حاكم الجزائر المارشال فالي قال فيها « ... ان هذه الكلمة (ما وراء) هي تعبير لا معنى له ولا يعني شيئا . واذا كانت فرنسة قد فهمت منه شيئا آخر فلماذا عينت حدا في الشرق . واخيرا ما معنى الحد اذا لم يكن الخط الفاصل بين منطقتين ، وهكذا فقد توسعتم الى وادي خضرة وليس لكم ان تدعوا اكثر من هذا ... » .
والواقع ان الفرنسيين كانوا يدركون صحة تفسير الامير ولكنهم اساسا لم يكونوا راضين عن تنازلات بيجو للامير في هذه المعاهدة . وقد حاولوا في بادىء الامر التمسك ظاهريا بالمعاهدة مع دفع الامير الى قبول تعديلها لصالحهم ، او دفعه الى الانحناء امام القوة وذلك باحتلال الاراضي المتنازع عليها .

بدأت المفاوضات بين المارشال فالي والامير في الجزائر ، ثم نقلها الامير الى باريس ، وبعث وزير خارجيته المولود بن عراش يصحبه اليهودي بن دران (العميل المرن الذي كان يتنقل على التناوب في خدمة الطرفين) .

استقبل الملك والحكومة الوفد الجزائري استقبالا حسنا ، ولكن الحكومة الفرنسية رفضت مباشرة المفاوضات مع الوفد لان ذلك من اختصاص حاكم الجزائر .

عرض المارشال فالي على ابن عراش مشروع تعديل لمعاهدة تافنا يدخل الاراضي المتنازع عليها ، بما فيها الطريق السلطاني بين الجزائر وقسنطينة ، في المنطقة الفرنسية . وحاول فالي الحصول على موافقة ابن عراش وتوقيعه على المشروع ، ولكن ابن عراش اعتذر بانه غير مخول بذلك ووعد برفع المشروع الى الامير . وامام الحاح فالي وضغطه قبل ابن عراش ان يكتب في

لحقها التعب وأضر بها السغب فحينئذ ماذا كنت تصنع ايها الجنرال...."[1].
وكتب الجنرال سنت ارنو يصف عمليات هذا الجيش "... اذا طوردوا تفرقون كالطيور ، واذا تراجعنا يطاردوننا كالذئاب ....".

تجدد القتال سنة ١٨٣٩ :

استطاع الامير بين ١٨٣٧ - ١٨٣٩ ان يتغلب على عصيان القبائل الثائرة والطرق الصوفية وان يبسط سلطته على ثلثي الجزائر . وظل الفرنسيون محصورين في وهران والجزائر وفي جزء من بيلكية قسنطينة .

وكانت سيطرة الفرنسيين على قسنطينة ، وتوسع الامير الكبير الذي اخذ يمتد نحو هذه البيلكية ، اساس التصدع الذي اصاب المعاهدة ، وأدى الى الحرب .

فبعد التغلب على الباي احمد صار بامكان الفرنسيين الالتفات نحو عبد القادر . وكان الاختلاف بين النصين العربي والفرنسي في معاهدة تافنا يفسح المجال لخرقها . كانت الحكومة الفرنسية قد قبلت المعاهدة كحل مؤقت لتحييد الامير ريثما تنهي مشكلة قسنطينة . وبعد ان تحقق لها ذلك بدأت تسعى للتنصل من هذه المعاهدة عن طريق تفسيرات باطلة لبعض نصوصها، ولا سيما الفقرة التي تتعلق بمنع توسع الفرنسيين وراء وادي خضرة . وكان هذا التوسع ضروريا للفرنسيين لتأمين الاتصال بين الجزائر وقسنطينة ، ولابعاد الامير عن المناطق التي كانوا يعتبرونها تابعة لبيلكية قسنطينة . وكانت معاهدة تافنا تنص على ان المنطقة الفرنسية تمتد في الشرق حتى مجرى وادي بودوار الاعلى المسمى وادي خضرة . وكان النص الفرنسي يتضمن "... حتى وادي خضرة وما وراءه ..." في حين تضمن النص العربي "... وفي وطن بلاد الجزائر والساحل والوطن متاع بنيجة من جهة الشرق لحد وادي

(١) محمد بن عبد القادر : المصدر السابق ص ١٨٦ .

خضرة الى قدام ..." . وكان النص العربي اكثر دقة ، فليس من الطبيعي في تحديد الحدود ان يعين نص المعاهدة حدودا الى مسافة ما ، ثم يضيف اليها تعبيرا عاما مبهما : انه يمكن ان تمتد هذه الحدود الى " وراء ذلك ".

وعلى هذا الاساس بنى الامير حجته في اقناع حاكم الجزائر الماريشال فالي قال فيها "... ان هذه الكلمة (ما وراء) هي تعبير لا معنى له ولا يعني شيئا . واذا كانت فرنسة قد فهمت منه شيئا اخر فلماذا عينت حدا في الشرق . واخيرا ما معنى الحد اذا لم يكن الخط الفاصل بين منطقتين ؟ وهكذا فقد توسعتم الى وادي خضرة وليس لكم ان تدعوا اكثر من هذا ....".

والواقع ان الفرنسيين كانوا يدركون صحة تفسير الامير ولكنهم اساسا لم يكونوا راضين عن تنازلات بيجو للامير في هذه المعاهدة . وقد حاولوا في بادئ الامر التمسك ظاهريا بالمعاهدة مع دفع الامير الى قبول تعديلها لصالحهم ، او دفعه الى الانحناء امام القوة وذلك باحتلال الاراضي المتنازع عليها .

بدأت المفاوضات بين الماريشال فالي والامير في الجزائر ، ثم نقلها الامير الى باريس، وبعث وزير خارجيته المولود بن عراش يصحبه اليهودي بن دران (العميل المرن الذي كان يتنقل على التناوب في خدمة الطرفين) .

استقبل الملك والحكومة الوفد الجزائري استقبالا حسنا ، ولكن الحكومة الفرنسية رفضت مباشرة المفاوضات مع الوفد لان ذلك من اختصاص حاكم الجزائر .

عرض الماريشال فالي على ابن عراش مشروع تعديل لمعاهدة تافنا يدخل الاراضي المتنازع عليها ، بما فيها الطريق السلطاني بين الجزائر وقسنطينة ، في المنطقة الفرنسية . وحاول فالي الحصول على موافقة ابن عراش وتوقيعه على المشروع ، ولكن ابن عراش اعتذر بانه غير مخول بذلك ووعد برفع المشروع الى الامير . وامام الحاح فالي وضغطه قبل ابن عراش ان يكتب في

قبل المشروع انه اطلع عليه واستحسنه ، وارسل فالي صهره القومندان
سل مع ابن عراش لمقابلة الامير والحصول على مصادقته .

كان الامير آنذاك مشغولا في حصار انبجاني في عين ماضي وقد سبب هذا تأخر اجتماعه بالمندوب الفرنسي حتى شباط ١٨٣٩ . وعرض الامير المشروع على المجلس فرفضه بالاجماع . وكتب الامير عدة رسائل الى ملك فرنسة ووزير خارجيتها وحربيتها اكد فيها رغبته في السلم ، واتهم المسؤولين الفرنسيين في الجزائر بالعمل على تعكير العلاقات وخرق المعاهدة[1] . ولكن الامير لم يتلق جوابا ، وعلى العكس فان الحكومة الفرنسية لم تقم وزنا لرفض الامير المصادقة على المشروع بل اعتبرت ان الاتفاق اصبح نافذا ونشرت المشروع كما لو انه اخذ الصفة النهائية . وقرر الماريشال فالي ان يقوم بمظاهرة قوة في الاراضي المتنازع عليها ليضع الامير امام الامر الواقع ، واقنع الدوق دورليان ولي العهد بالاشتراك معه في هذه المظاهرة .

وفي تشرين الاول تحركت قوة فرنسية مكونة من ٤٠٠٠ جندي على رأسها فالي والدوق دورليان من ميلة الى سطيف ، واجتازت في اواخر تشرين الاول مضيق البيضان المعروف بابواب الحديد حيث يجري واد صغير بين جدران من الاحجار السوداء . ووصلت القوة دون طلقة نار الى برج حمزة ، وعادت الى الجزائر دون ان تترك حامية في هذه المناطق . اعتبرت هذه الحملة بمثابة رحلة استكشاف او جس نبض اكثر منها عملية حربية استراتيجية ، وجاءت سهولتها من اعتقاد السكان – كما يقول صاحب تحفة الزائر « ... ان حاكم الجزائر قصد بمروره بابن الملك في بلادهم مجرد السياحة والتفرج لما هو مقرر عندهم من امر المعاهدة بين الامير ودولة فرنسة . ولذلك كانوا يقدمون له جميع التسهيلات السفرية مسرورين بحليف وَدود لاميرهم ولولا هذا ما تركوه يمر في بلادهم من غير قتال ... » وكان بامكان قوة صغيرة ان تحول دون اجتياز ابواب الحديد .

---

(1) انظر محمد بن عبد القادر : المصدر السابق ص ٢٤٩ – ٢٥٢ .

اعتبر الامير عمل فالي خرقا للمعاهدة وعرض الموضوع على مجلس الشورى فقرر المجلس اعلان الحرب . وقام الامير باخطار الماريشال فالي بقطع العلاقات واستئناف الحرب . وفي ٢٠ من تشرين الثاني ١٨٣٩ شنت القبائل الموالية للامير هجوما كاسحا على المتيجة فخربت مزارع المستوطنين وفتكت بالكثير منهم ، واجبرت الحاكم العام على اخلاء اغلب معسكرات الساحل والمتيجة . ويذكر ديبو بريدل وبنوا ان القبائل في غمرة حماسها انطلقت تغني انها ستطرد الفرنسيين من الجزائر وانها ستجتاز البحر فتستولي على باريس وغيرها من البلاد لتعلمهم رسالة التوحيد[1] . واشتد الخطر على مدينة الجزائر وانتشر الذعر بين الفرنسيين الذين لجأوا اليها وبات الجميع يتوقعون دخول الامير مدينة الجزائر مظفرا .

ارسلت الحكومة نجدات سريعة الى الجزائر ، وامرت الحاكم العام باحتلال مدية ومليانة وشرشال ، وتحقيق الاتصال مع قوات وهران عن طريق وادي الشلف . واستطاع الماريشال فالي بفضل التعزيزات التي وصلته من فرنسة ان يحرز انتصارات هامة في ربيع وصيف ١٨٤٠ فاستولى على شرشال ومدية ومليانة ، ويخلص اطراف سهل المتيجة . ولكنه توقف واكتفى بوضع حاميات في هذه المراكز ما لبث ان تعرضت للتطويق فضاعت جهوده عبثا .

اثارت هذه الاحداث التي قضت على جهود عشرة اعوام صدى كبيرا في فرنسة ، في الوقت الذي كانت فيه مشغولة بالازمة الدولية الناجمة عن استئناف الحرب بين محمد علي والسلطان . وارتفعت من جديد اصوات المعادين لاحتلال الجزائر . ففي الجلسة التي عقدها البرلمان لمناقشة ميزانية ١٨٤١ طالب بعض النواب باخلاء الجزائر ، وقال احدهم « ... ان افريقية هي الخراب اثناء السلم ، والضعف اثناء الحرب ، ان افريقية شر وجنون ... »

---

(1) J. Debu - Bridel et M. Benoist : P. 126

وتكلم الجنرال بيجو في هذه المناقشات منحازا الى جانب الاحتلال الشامل والاستعمار العسكري منتقدا سياسة الماريشال فالي العسكرية • واعرب المجلس عن أمل اعتُبر – كما يقول جوليان – بمثابة زوال حظوة فالي « ... يلزم لافريقية رجل ينبغي ان يكون في آن واحد عسكريا وسياسيا واداريا • وسيكون من الصعب العثور على هذه الصفات مجتمعة ، ولكن كل مستعمرة تنتج عاجلا او آجلا رجلها ، ان مستعمرتنا ستعطي رجلها ... » •

كان بيجو مستعدا لتحمل مسؤولية معالجة الموقف في الجزائر ولكن ظروف الازمة الشرقية اجبرت الحكومة على الاحتفاظ به في فرنسة ليتولى قيادة على الراين •

طغت احداث الشرق الاوسط واحتمال نشوب حرب اوروبية على احداث الجزائر ، وبدا بالمرستون للرأي العام الفرنسي اكثر خطرا من عبد القادر ، وبدت الحرب في سبيل ابقاء سورية لمحمد علي اكثر قبولا من حرب الجزائر[٢] • واصدرت الحكومة امرها الى فالي بالاكتفاء بالدفاع وفكرت بسحب جزء من قواتها من الجزائر لمجابهة الخطر في اوروبة • ولكن انتهاء ازمة الشرق الاوسط في اواخر ١٨٤٠ سمح لفرنسة بتركيز جهودها في الجزائر • فعزلت الماريشال فالي وعينت الجنرال بيجو في ٢٩ من كانون الاول ١٨٤٠ • وكان بيجو قد تعهد باحتلال الجزائر كلها بدلا من احتلال المدن والمراكز وترك الضواحي والريف بيد الجزائريين • واعتبر تعيين بيجو بمثابة تحول السياسة الفرنسية في الجزائر باتجاه الاحتلال الشامل •

الجنرال بيجو وتكتيكه العسكري :

كان بيجو في بداية الامر معاديا للحملات الاستعمارية لانها تحول

(1) Ch. A. Julien : Histoire de l'Algerie Contemporaine P. 155
(2) Ch. A. Julien : Histoire de l'Agerie Contemporaine P. 155

الجيش عن مهمته التاريخية • وكان يعارض احتلال الجزائر والبقاء فيها ، ويرى ان الحرب في افريقية تخلف عن الحرب في القارة ... لان مايجري في افريقية ليس حربا بل صيدا للرجال ... » ، وكان بيجو يرى ان تربة الجزائر لا تصلح للاستعمار لانها ليست صالحة للزراعة ، وقد رد على آراء كلوزل وانصاره المتحمسين للبقاء في الجزائر واستعمارها قائلا لتيير ١٨٣٦ « ... ان هؤلاء الرجال يسعون في افريقية الى الترقية والزيادة في المرتبات ، انهم يدعون ان الجزائر مستعمرة رائعة ولكني كشاهد اقول لك بعد ان شاهدت الجزائر انها لا تساوي شيئا لا بالنسبة للزراعة ولا بالنسبة للحرب ، وينبغي علينا شئنا او ابينا ان نغادرها عاجلا او آجلا ... »[١] • وعندما عقد بيجو معاهدة تافنا كان ما يزال يدين بهذه الفكرة ويحلم بالمجد السياسي اكثر من المجد العسكري • ولكن معاهدة تافنا وما رافقها من انتقادات وتحقيقات مست سمعته وتركت في نفسه حقدا على الامير •

وفي اواخر الثلاثينات بدأ بيجو يتحول الى نصير العمل الحازم • وعندما استؤنف القتال مع الامير بدأ بيجو يطالب ، بعد ان رأى تمسك الحكومة واغلبية المجلس بالجزائر ، بالعمل الحازم واعلن ان « ... الاحتلال الناقص وهم ، ان احتلال الجزائر خطأ ولكن ما دمتم ترغبون فيه فينبغي ان تعملوه بقوة ... » •

كان بيجو ضابطا عمل في اسبانية ايام نابليون وعرف حرب العصابات التي شنها الاسبان على الجيش الفرنسي ، واكتسب خبرة بمقاومة هذا النوع من الحرب • وكان ينتقد اسلوب سلفه فالي الذي كان يبعثر قواته في معسكرات كثيرة تشل حركتها دون فائدة • وفي رأيه ان الاسلوب الوحيد القادر على اخضاع الجزائر هو اسلوب الحركة لا اسلوب المراكز الثابتة الصغيرة المبعثرة •

(1) Ch. A. Julien : P. 171

قرر بيجو ان يقاوم الامير باسلوبه نفسه ، وكان عبد القادر يتجنب خوض معارك كبيرة ويفضل حرب الكر والفر معتمدا على سرعة التنقل والحركة ، فقرر بيجو اتباع التكتيك نفسه .

يرى بيجو « ... ان افضل وسيلة للدفاع والوقاية هو الهجوم ، وان نلحق بالعدو الاضرار التي كان يهددنا بها ... » . وبدلا من المعارك الكبيرة المستحيلة وغير الفعالة ينبغي القيام بمعارك دائمة مستمرة ، وبدلا من الجيوش المجمعة ينبغي الاعتماد على طوابير صغيرة مؤلفة من بضعة آلاف جندي تطارد الامير دون توقف وترهقه وتضيق عليه .

ادرك بيجو ان قوة الامير الحقيقية ليست في جيشه النظامي البسيط وانما في جنود القبائل ، فركز جهده على القبائل ، وأمر بشن الغارات عليها ليبعدها عن الامير . خاطب بيجو قواده وجنوده قائلا « ... ليست مهمتكم ان تجروا وراء العرب فهذا غير مجد . ان مهمتكم ان تمنعوهم من ان يبذروا او يحصدوا او يرعوا ... » و « ... ان الحرب التي سنقوم بها ليست حربا تعتمد على طلقات البنادق وانما هي ان نحرم العرب من مواردهم التي تنتجها ارضهم ... اذهبوا اذن واقطعوا القمح والشعير ... . عرفت هذه السياسة باسم الارض المحروقة وتكشف عنها رسائل الجنرال سانت ارنو ، والتي تتلخص بـ (دمر ، احرق ، انهب) . جاء في هذه الرسائل « ... نحن في قلب الجبال بين مليانة وشرشال حيث نطلق القليل من الطلقات ونحرق كل الدواير وكل القرى وكل الاكواخ . ان العدو يهرب امامنا في كل اتجاه مصطحبا معه قطعانه ... » . و « ... ان بلاد بني مناصر بلاد رائعة من اغنى ما شاهدت في افريقية فالقرى والمساكن متقاربة جدا هناك . لقد احرقنا ودمرنا كل شيء . آه من الحرب كم من النساء والاطفال ممن لجأوا الى ثلوج جبال الاطلس قد ماتوا فيها من البرد والشقاء ... » و « ... اننا نخرب ونحرق وندمر المنازل والاشجار . اما المعارك فقد كانت قليلة اولا وجود لها ... » ، ويشير سانت ارنو انه

كان يتبع سير الحاكم العام بعد ان غادره من خلال النيران المشتعلة ... لقد بقينا حتى نهاية حزيران سنة ١٨٤١ ونحن نقاتل في مقاطعة وهران وندمر جميع المدن وجميع ممتلكات الامير فقد كان على الامير ان يجد الجيش الفرنسي في كل مكان يحمل اللهب بيده ... » .

ورافق هذه العمليات ابادة قبائل برمتها بواسطة الخنق بالدخان عندما تلجأ هذه القبائل الى مغاور الجبال . واخذت الحرب كذلك طابع (صيد الرجال) ، وقد وضع بيجو جائزة لكل جندي يجلب رأسا مقطوعا .

وفي رسائل جندي لمونتياك جاء ما يلي « ... قطعت رأسه ومعصمه الايسر وجئت الى المعسكر احمل رأسه على رأس الحربة ومعصمه معلقا بسوار البندقية ... تلك هي يا صديقي الشجاع الطريقة التي يجب ان نشن بها الحرب على العرب ، يجب قتل الرجال حتى سن الخامسة عشرة وسبي جميع النساء وخطف الاطفال وتفريغ المساكن منهم وترحيلهم الى جزر الماركيز او اي مكان آخر خارج الجزائر ، وبكلمة يجب سحق جميع الذين لا يركعون تحت اقدامنا كالكلاب ... »[1] .

وبالرغم من هذه الاساليب الوحشية ، وبالرغم من حرية العمل الواسعة التي تركت لبيجو ، والامكانات العسكرية والمالية الضخمة التي وضعت تحت تصرفه[2] ، فانه لم يستطع احراز النصر والتغلب على الامير الا بعد سبع سنوات .

نجح بيجو سنة ١٨٤١ في الاستيلاء على تاغدمت وطازة وبوغار ومعسكر . وفي ١٨٤٢ استولى على تلمسان وعلى اهم المراكز في اقليم وهران وفقد الامير ٥/٦ اراضيه وكل قلاعه ومستودعاته ومعظم جيشه النظامي .

---

(١) فرحات عباس : الثورة الجزائرية ص ٨٠ .

(٢) وصل عدد القوات التي وضعت تحت تصرف الجنرال بيجو ١٠٨ آلاف جندي ، اي ثلث الجيش الفرنسي . كما وضع تحت تصرفه مبلغ ١٠٠ مليون فرنك .

وعبثا حاول الامير ان يحصل على مساعدة انكلترة او الدولة العثمانية او المغرب ، وفي سنة ١٨٤٣ اضطر الامير الى الانتقال في الصحراء بعاصمته الجديدة المتنقلة (الزمالة) المؤلفة من الخيام والتي كانت تضم ٣٠ الف شخص من اسرته والقبائل الموالية له ، تطارده قوات بيجو من مكان لآخر . وخلال انتقال الامير نحو جبال عمور فاجأته قوة فرنسية بقيادة الدوق دومال ونجحت في الاستيلاء على الزمالة ، ولكن الامير نجا واضطر الى الالتجاء الى المغرب .

التدخل الفرنسي في المغرب :

كان عبد القادر يتمتع بشعبية كبيرة لدى الرأي العام المغربي ، وكانت انباء انتصاراته تقابل بالابتهاج والاحتفالات والمساعدات من كل نوع تدفق عليه من المغرب . وكان بيجو منذ سنة ١٨٤٢ يفكر بالتدخل في المغرب لمنع تدفق السلاح على الامير . ولكن الحكومة الفرنسية آنذاك كانت تسعى لتحقيق سياسة الاتفاق الودي مع انكلترة ، وتخشى ان يؤدي التدخل في المغرب الى عرقلة هذه السياسة ، ولذلك حذرت بيجو من التدخل . وكانت انكلترة من جانبها راغبة في قطع الطريق على اي تدخل فرنسي في المغرب ، فحذرت سلطان المغرب انه ليس له ان يعتمد على مساعدتها في حالة نزاع مع فرنسة . ومنعت انكلترة تصدير السلاح عن طريق جبل طارق .

ولكن لجوء الامير الى المغرب بدل الموقف . فقد اعتمد الامير على مساعدة بعض القبائل المغربية للقيام بغارات على الاراضي الجزائرية . ويرى جوليان ان هدف الامير كان ان يجر الجيش الفرنسي الى التدخل في المغرب ليثير بذلك نزاعا عاما تستفيد منه الجزائر [1] . استولى بيجو على لالا مغنية وبدأت قواته تخترق الحدود المغربية . فارسل السلطان قواته الى ضواحي وجدة ، ووجه نداء الى جميع القبائل اعتبر بمثابة اعلان بالتعبئة العامة .

(1) Ch. A. Julien : P. 194

وجهت فرنسة تحذيرا الى السلطان بوجوب التخلي عن مساعدة الامير وسحب قواته من وجدة ، وارفقت تحذيرها بتوجيه قوة بحرية الى المياه المغربية بقيادة الامير دوجوانفيل . فتحرج موقف السلطان واحتار بين ضغط الشعب المتحمس للجهاد وبين التهديد الفرنسي . وكان بيجو متحرقا للعمل ضد المغرب فاحتل وجدة في ١٩ من حزيران . وبالرغم من ان السلطان ابدى استعداده للتفاهم على حساب الامير فان بيجو عمل على تجاهل المفاوضات الدائرة في طنجة بين ممثل فرنسة وبين السلطان ، واخبر قيادة الاسطول انه شرع بالحرب . وفي ٦ من آب شرع الاسطول الفرنسي في قصف طنجة ، وفي ١٤ منه احرز بيجو انتصارا ساحقا في معركة ايسلي ، وفي ١٥ منه قصف دوجوانفيل ميناء موغادور وانزل قوة في الجزيرة الصغيرة التي تسيطر على الميناء . وكان بيجو يرغب في استثمار ظفره في ايسلي للتقدم نحو تازا وفاس ، ولكن انكلترة تدخلت وابلغت الفرنسيين ان احتلالهم لاي منطقة مغربية احتلالا دائما سيكون بمثابة حرب ، واضطر بيجو الى التوقف ، وقبل السلطان في اتفاق طنجة سنة ١٨٤٤ اعتبار الامير خارجا على القانون في المغرب ، وملاحقته وحجزه في احد الموانئ المغربية حتى يتبنى الطرفان باتفاق بينهما الوسائل الكفيلة بمنعه من العودة الى السلاح .

اضطر الامير الى العودة الى الجزائر وكان الظرف مواتيا . فقد ادت وحشية الفرنسيين الى قيام ثورات متعددة أبرزها ثورة بو معزة . وظهر الامير في وادي تافنا واحرز عدة انتصارات في معركة الغزوات وسيدي موسى وبدأ يستعيد قوته التي فقدها . ولكن بيجو سير ثماني فرق لمطاردة الامير . ولما اشتد الضغط على الامير اضطر مرة ثانية الى اللجوء الى المغرب . ولكن انكلترة التي كانت تخشى تدخلا فرنسيا جديدا في المغرب تدخلت لدى السلطان وذكرته انه اعتبر الامير خارجا على القانون . وبدأت الاشاعات تتهم الامير انه يرغب في انشاء دولة مستقلة في الريف وانه يسعى لخلع السلطان . قرر السلطان العمل وامر قواته بمطاردة الامير وطرده من المغرب .

ولما شعر الامير انه لم يعد هناك امل في المقاومة فضل الاستسلام للفرنسيين مشترطا السماح له بالسفر الى الاسكندرية او عكا ، ووافق الجنرال لاموريسير والدوق دومال . ونقل الامير الى طولون . ولكن الحكومة الفرنسية بضغط من المستوطنين نكثت بوعدها وحرصت على ابقائه في فرنسة وعاملته معاملة شاذة . وظل الامير شبه سجين حتى سمح له نابليون الثالث سنة **١٨٥٢** بالانتقال الى دمشق ، وتوفي فيها سنة **١٨٨٣** بعد ان امضى **١٥** عاما في الجهاد و ٣٦ في المنفى .

* * *

المصادر العربية

ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار افريقيا وتونس - تونس ١٩٦٧

ابن ابي الضياف (أحمد) : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان - تونس ١٩٦٣

ابن خلدون : كتاب العبر وديون المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر - بيروت ١٩٥٩

البكري (ابو عبيد) : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب

بوعزيز (يحيى) : الموجز في تاريخ الجزائر - بيروت ١٩٦٥

الجزائري (محمد بن عبد القادر) : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر - بيروت ١٩٦٤

الجيلالي (عبد الرحمن بن محمد) : تاريخ الجزائر العام - بيروت ١٩٦٥

خوري (اميل) واسماعيل (عادل) : السياسة الدولية في الشرق العربي بيروت ١٩٦٠

الزياني (ابو القاسم) : الترجمانة الكبرى - فضالة ١٩٦٧ .

عباس (فرحات) : الثورة الجزائرية - دمشق ١٩٦٤

عبد القادر (نور الدين) : صفحات في تاريخ مدينة الجزائر - قسنطينة ١٩٦٥

العقاد (الدكتور صلاح) : المغرب في بداية العصور الحديثة - القاهرة ١٩٦٢ - ١٩٦٣

العقاد (الدكتور صلاح) : المغرب العربي - القاهرة ١٩٦٥

الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى - الدار البيضاء ١٩٥٦ .

المراجع الأجنبية

Azan (General Paul) : L'Expedition D'Alger 1830 Paris 1930

Bernard (Auguste) : l'Algerie Paris 1930

Boyer (P.) : l'evolution de l'Algerie mediane de 1830 à 1956 Paris 1960

Braudel (Fernand) : La Méditerranée et le Monde Mediterranéen à l'epoque de Philippe.. Paris 1949

Debu - Bridel (Jacques) et Benoist (Marc) : Alger 1830 Paris 1930

De Grammont (H.) : Histoire D'Alger sous la Domination Turque Paris 1887

Esquer (Gabriel) : La Prise d'Alger Paris 1929

Hanotaux (Gabriel). Martineau (Alfred) : Histoire des colonies françaises et de l'expansion de la france dans le monde Paris 1931

Initiation à l'Algerie : Par ...... M. Colombe ...... Paris 1957

Julien (Ch.A.) : Histoire de l'Afrique du Mord Paris 1952

Julien (Ch.A.) : Histoire de l'Algérie Contemporaine Paris 1964

Martin (Claude) : Histoire de l'Algérie Française Paris 1963

Maura (G) : La question du Maroc au point de vue espagnole Paris 1911.

Nouschi (A.) : Enquête sur le niveau de vie des populations Rurales constantinoises de la conquête jusqu'en 1919 Paris 1961

Zeller (Gaston) : Les temps Modernes Paris 1953

Encyclopedie de l'islam

Revues

Journal Asiatique

La Revue Africaine

Revue d'Histoire Moderne et contemporaine

Revue de l'occident Musulman et de la méditerrannée

Revue Historique

الفهرس

صفحة

